

سنة عام من العزلة



جَابْرِيل غَارِسِيَا مَارَكِيَز

المناظر على جاشرة شوبيل للأدباء



مَنَّةٌ عَامٌّ مِنَ الْعَزَلَةِ

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩١



دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب. ١١٣/٥٧٢٠

دمشق : الحجاز - ص.ب. ٦٢٠٨

هاتف ٢٢٥٢٢٦ - سجل تجاري ٤٩٨٥٧

مقدمة

لئن كانت هذه الرواية هي الثالثة في ما نقدمه في روايات من أعمال الكاتب الكولومبي الأشهر جابريل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل في الأدب « ١٩٨٢ » بعد روايتي « الضحية » و « ليالي الحب والرعب » المنشورتين في إبريل ونوفمبر ١٩٨٣ ، إلا أنها معدودة على النطاق الأدبي العالمي قمة أعماله التي نيفت على العشرة، حتى أصبحت إحدى الشوامخ في الفن الروائي قديمه وحديثه، وجلبت له من الشهرة واليسر ما عوضه عن كفاحه الطويل لتحقيق هدفه كواحد من أبرز اعلام الأدب المعاصر، ومن ثم كان الأجدر ان نستهل بها رواياته في ما ننقله منها الى العربية لأول مرة، لولا أن آثرنا إرجاءها الى ما بعد نشر روايتيه آنفتي الذكر، ليكون القارئ بعد تذوقهما أكثر توقاً الى هذه الرائعة بصفة خاصة، وأشد إقبالاً عليها، وأوفر قسطاً من المتاع بها . والواقع ان القارئ لا يملك الا أن يلهث طوال قراءتها وأن يستبق صحائفها حتى يشفى منها على النهاية بغير انقطاع ولا يلبث وهو متأثر أشد التأثير مبهور غاية البهر بما يجليه المؤلف من غرائب الاحداث وخوارق الوقائع ودخائل المشاعر ودقائق التحليلات وعظائم المفاجآت . حشدتها جميعاً على صعيد واحد وعلى مدار عشرة عقود من الزمان لأسرة لعله لم يخلق مثلها في التفرد والغرابة، وكل ذلك في اقتدار وبراعة بالغين، وفي شمول جامع لا تند منه هنة من الهنات، وفي إحكام

وثيق لا تشرد فيه من أوله الى آخره شاردة، متفرداً في كل أولئك بما لم يضارعه فيه سوى قلة قليلة من أساطين الفن الروائي من طراز هوجو وبلزاك ودوستوفسكي وتولستوي وتوماس مان وديكنز وأضربهم... وإذا كان لا يسوغ في هذه العجالة ان نعرض لصلب الرواية ببيان قد ينال من متاع القارئ بها، فإن هذا لا يمنع من ازجاء بعض اللمحات الطائرة من وقائعها وشخصياتها ومناحيها الفكرية والنفسية والحسية، لتكون مدخلاً الى هذا الحشد القصصي الضخم، وللقارئ بعد ذلك أن يستأثر وحده بالسياق الخصب والمتعة السائغة غير منقوصين، منوهين فحسب بأن الغواية كانت هي السمة المشتركة في ما تعاقب على أبطالها من أحداث وما اضطرم فيهم من نوازع، وهي آفة ظلت لعتها تطاردهم حتى آخر فرد من سلالتهم... فاشهد معي على هذه اللمحات :

«... لم يكن يعرف سر مولده قط، ولكن تلك المرأة كانت تضرم النيران حامية في عروقه كلما اقتربت منه... كانت تذكي مشاعره بقوة خارقة مثلما كانت بالنسبة لابن الملود الهمجي ومن بعده عمه السحارب، وعندما واثته الفرصة للانفراد بها اشتد هلعها وإن عجزت عن مكاشفته بأمومتها له، ولم يتركها الا على موعد ليلي، ولكنه ظل طول ليله يتقلب على جمر من سحر عواطفه الى أن...»



«... ولقد ظل على عزله وانطوائه الى أن حدث ما جعله يواجه واقع الدنيا بمقدم تلك المرأة التي حيته بمعرفة أكيدة لم تثر دهشته اذ كثيراً ما خلط النلس بينه وبين أخيه التوأم، بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن منحته حبها... وبعد انقضاء أسابيع تحقق أن المرأة كانت تعالسه مع أخيه التوأم معتقدة أنهما شخص واحد...»



« . . . وكادت الجدة تفقد عقلها بشذوذ أطوار ذريتها، حتى لكأن نقائص الأسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت فيهم، ولهذا نذرت في نفسها أن تتولى بنفسها تربية وصياغة هذا الحفيد ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة : الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات . . . وهي العوامل التي عدتها هادمة لكيان الأسرة على مدار المائة عام من تسلسلها . . . الى أن روعت به في النهاية وقد استحال الى . . . »



« . . . والحق أن هذه الفتاة التي لقبوها بالجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا . . . كانت الجدة الكبرى تحمد الله أن منح الأسرة فتاة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كان يقلقها في نفس الوقت مثل هذا الجمال الذي عدته شركاً شيطانياً تحت طابع البراءة . . . كانت الفتاة تؤثر البساطة في كل شيء، ولهذا داست على الأزياء النسائية وخاطت لنفسها ثوباً فضفاضاً كالجلباب غير مبالية بأنها تبدو فيه شبه عارية . . . وحلقت شعرها بعد أن رأتهم يؤنبونها لتركه مرسلًا حتى الفخذين . . . وكان الشيء المروع في هذا كله أنها كلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لبساطتها وعفويتها، كلما بدا جمالها الصارخ أشد إثارة، وإغراؤها للرجال أعنف وأفدح، ولم تدر أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مذكية للمشاعر مثيرة للاضطراب هو كارثة يومية محققة، الى أن تحققت الكارثة و . . . »



« . . . ولقد بلغت البلية ذروتها عندما جيء بالمولود الى البيت الكبير . . . فاضطرت هذه التي أصبحت جدة قبل الاوان الى اخفائه عن العيان حتى تتدبر الامر، بعد أن أعوزتها الشجاعة لإغراقه في الصهريج

تخلصاً من العار، ثم زعمت في ما بعد أنهم وجدوه في سلة طافية في
النهر...» .

«... نشأت هي وهو في رحاب البيت الكبير يلعبان ويلهوان طوال
سني الطفولة... وبعد عودتها الى البيت بعد طول السنين بصحبة زوجها
المطواع الذي طوقت رقبتة بحبل من حرير وجدت سليل الأسرة ورفيق
الطفولة مارداً حتى لقبتة بالمتوحش مداعبة... وأصبح ثلاثهم كل الابقين في
البيت المهجور... ولم تلاحظ أول الامر هذا التغير الكبير الذي طرأ عليه
منذ عودتها... كان لا يزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كأخت وتركته
لاهث الانفاس، يهرب ما استطاع من مداعبات تلك الخالة الفتية التي
اصبحت تقض مضجعه وتسمم لياليه... الى أن جاء ذلك اليوم المستطير
الذي أبصرها فيه برداء الحمام، فتبعها على أطراف أصابعه و...» .

«... وشد ما كان ارتياحهما عندما اكتشفت القابلة ان آخر سلالة
الاسرة هذا الذي تلقفته لتوها من بطن أمه له ذيل خنزير... إذن فقد صدقت
الاسطورة التي توارثتها الاسرة جيلاً بعد جيل : من أن تزواج الاقارب يثمر
هذا المسخ الشيطاني...»

«... ومضى رغم ذلك في حياته الماجنة العابثة معرضاً عن زوجته،
فقد عد ان ما ناله من ثراء موفور انما كان وليد علاقته بتلك العشيقة، منذ
كانت الافراس تلد ثلاثاً كل مرة، والدجاج يبيض مرتين في اليوم، والخنازير
تسمن بسرعة غريبة، الى درجة أن أحداً لم يصدق هذه الخصوبة الغريبة الا
إذا كانت من قبيل السحر الاسود...» .

هكذا ترى أن الغواية كانت هي القاسم المشترك في حياة هذه الأسرة الغريبة نساء ورجالاً حتى امتدت لعنتها الى آخر سليل منهم . . وإنما أروع ما في هذا كله هو قدرة هذا المؤلف القدير على حشد أجيال الأسرة جميعاً بين دفتي روايته، وربط أحداث حياتهم برباط وثيق لا تفكك فيه، وتحليل نزعاتهم ومشاعرهم، ذلك التحليل الدافذ العمق الى الدخائل، وإن اقتضى ذلك تعرية شتى منازعهم على حقيقتها بغير مداراة ولا تزويق، حتى تجدك تتقلب في عالم مائج صاحب فوار، ولكنه يتمتع عقلك، ويذكي خيالك، ويستأثر بإعجابك بالكاتب الذي نوهت لجنة جائزة نوبل بأن من أسباب استحقاقه للجائزة العالمية أسلوبه الفذ الذي يجمع بين الخيال والواقع، وهو الكاتب الذي ظل مدى ستة عشر عاماً يفكر في هذه الرواية وهي تختمر في ذهنه وتعمل في وجدانه حتى اكتملت لديه عناصرها، فتوفر على تأليفها قرابة عامين متخلياً عن كافة شؤون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه، حتى اذا اتسقت له عملاً سورياً ناضجاً وتم نشرها أكسبته شهرة مستفيضة، ودرت عليه يسراً عوضه عن بأساء حياته الفنية، وتربعت عملاً مجيداً في عداد التراث الادبي العالمي . .

وبعد، فما أحسبني، والقارئ مشوق الى الرواية ذاتها دون مزيد من الإفاضة، بحاجة الى التحدث عن سيرة المؤلف تفصيلاً وقد اوردتها بإسهاب في روايتي سالفتي الذكر، وإنما اجتزئ هنا ببيان أهم أعماله وهي حسب تسلسل صدورها منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن : (عيون الكلب الأزرق)، (الأوراق الذابلة)، (أرينديرا وجدتها القاسية)، وقد صدرت بعنوان (الضحية)، (مأتم الأم الكبرى)، (ساعة النحاس)، وقد صدرت بعنوان : (ليالي الحب والرعب)، (لا أحد يكتب الى الكولونيل)، (مائة

عام من العزلة) ، الرواية الحالية بعنوان : (لعنة الغواية) ، (خريف
البطريق) ، (وقائع موت معلن عنه) .

والى اللقاء في التحفة الرابعة من روائع هذا الكاتب المبرز، نجلوها
الى القارىء في عدد قادم من روايات الهلال بعون من الله وهو ولي التوفيق .

محمود مسعود

الفصل الأول

كان على الكولونيل (أوريليانو بوينديا) ان يتذكر بعد طول السنين وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، عصر ذلك اليوم البعيد عندما صاحبه أبوه لاكتشاف الثلج... في ذلك العهد كانت (ماكوندو) قرية مؤلفة من عشرين بيتاً من الطوب النىء، بنيت على ضفة نهر صافي المياه تبدو في قاعه احجار مصقولة أشبه في بياضها وضخامتها ببيض حيوانات ما قبل التاريخ... وكانت الدنيا غضة الى حد أن كثيراً من الأشياء كانت تنقصها المسميات، فيستعان على وصفها بالإشارة... وفي كل عام كانت تفد على القرية في شهر مارس اسرة من (الفجر) المهلهلين، تنصب خيامها خارج القرية، وبين لعلمة المزامير ودق الطبول المدوية تأخذ في عرض العديد من المخترعات... وكان أول ما جاءوا به هو المغناطيس... ووقتها قام «غجري» منهم متين البنيان منفوش اللحية قدم نفسه باسم (مالكويداس) بعرض جريء سماه العجيبة الثامنة للعلماء الكيمياء المتنورين في مقدونيا... ومن بيت الى بيت راح يجر كتلتين معدنيتين، فيشير ذهول الناس اذ يبصرون أوانيهم المعدنية وهي تتهاوى من مواضعها، وإذ يسمعون الالواح الخشبية وهي تصر صريراً بتأثير حركة المسامير وهي تكاد تنتزع من أماكنها، بل وإذ يرون كثيراً من الأشياء التي كانت مفقودة بعد طول بحث وتفتيش تظهر من مخائبها وتسحب سحباً في اثر كتلتي مالكويداس السحريتين... وفي ذلك كان مالكويداس يقول للناس المذهولين بصوته الأجلش: «لكل شيء من الأشياء حياته الخاصة... والمسألة ببساطة هي بحث الیقظة في أرواحها»... وعندئذ فكر (جوزيه أركاديو بوينديا) الواسع الخيال في أنه من

الممكن الانتفاع بهذا الاختراع العديم الجدوى في استخراج الذهب من باطن الارض... ولكن مالكويداس الذي كان رجلاً قوياً قال له : «إن الاختراع لا يتمشى مع هذا».. يبد أن جوزيه لم يكن يؤمن في ذلك الحين باستقامة (الفجر)؛ وهكذا قاىض على كتلتى المغناطيس ببغلة وعنزتين.. ولم تستطع زوجته (أورسولا اجواران) التى كانت تعتمد على هذه الحيوانات في زيادة دخلهما المتواضع ان تشنيه عن عزمه، اذ قال لها : «عما قريب سيكون عندنا من الذهب ما يكفي لتبليط أرضية البيت».. وقد ظل شهورا طويلة يعمل دائباً لإثبات صحة فكرته.. فراح يستكشف كل شبر في المنطقة، حتى قاع النهر، ساحباً كتلتى المغناطيس ومردداً تعاويذ مالكويداس بصوت مسموع.. وكان الشيء الوحيد الذي افلح فيه هو استخراج جسم مدرع من القرن الخامس عشر تصلبت اجزاؤه بفعل الصدأ.. وعندما تمكن جوزيه وأفراد بعثته الاربعة من تفكيك الجسم، لم يجدوا بداخله سوى هيكل عظمي متكلس تدلت حول عنقه ايقونة نحاسية بها شعر امرأة!..

وفي مارس من كل عام كان (الفجر) يعودون الى القرية وفي جمعيتهم اختراع جديد.. جاءوا مرة بتلسكوب وعدسة مكبرة بحجم طبله، فجعلوا امرأة منهم عند طرف القرية ووضعوا التلسكوب في مدخل خيمة، وبشمن قدره خمسة سنتات بالعملة المحلية. كان في مقدور من يدفع ان ينظر من التلسكوب فيبصر المرأة (الفجرية) على قيد ذراع منه، لا أكثر.. وكان مالكويداس يقول في هذا : «إن العلم قد ألغى المسافات... وبعد زمن قصير سيكون في قدرة الانسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون ان يغادر بيته»!..

وفي عرض مثير آخر وقت الظهيرة سلطوا العدسة المكبرة الضخمة على كوم قش في وسط الشارع، فاشتعلت نار حامية أتت عليه عن آخره...

وسرعان ما أوحى ذلك بفكرة جريئة الى (جوزيه اركاديو بوينديا).
تعزیه عن الفشل في استغلال المغناطيس لاستخراج الذهب، وهي استخدام
هذا الاختراع كسلاح حربي... وهكذا قايض مالكويداس على اقتناء
العدسة مقابل كتلتی المغناطيس وثلاث قطع من العملة الذهبية مما ورثته
زوجته عن أبيها، وكانت تخفيها في الارض تحت الفراش انتظاراً لاستغلال
القطع كلها استغلالاً نافعاً في المستقبل، غير عابىء ببيكائها وحزنها...
وإثباتاً لآثار العدسة المحرقة على جنود العدو، فقد عرض جسده لأشعة
الشمس المركزة من خلال العدسة الضخمة، وكانت النتيجة اصابته بحروق
خطيرة كادت تودي بحياته واستغرق وقتاً طويلاً للشفاء منها، بل لقد تعرض
البيت كله للحريق!... ومع ذلك سرعان ما نشط جوزيه لإعداد تقرير مفصل
عن اختراعه الخطير الذي سماه (الحرب الشمسية) وبعث به مع رسول
خاص الى الحكومة مبدياً تمام استعداده للسفر وشرح كافة التفاصيل وتدريب
الجنود على استخدام السلاح الفتاك متى جاءته الموافقة... ولكن الرسول
كاد يهلك في الطريق الى العاصمة بين الجبال والمستنقعات والقفار... وظل
جوزيه ينتظر سنوات عديدة حتى يش من وصول الرد... ولما عاد
مالكويداس في رحلة (الفجر) السنوية واستمع الى شكوى جوزيه المحزنة
بسبب فشل مشروعه الحربي، طيب خاطره ورد اليه القطع الذهبية مقابل
استعادة العدسة المكبرة، ثم أتحفه هذه المرة - تدليلاً على اخلاصه ومودته -
بخرائط جغرافية وادوات ملاحية وفلكية، أفرد لها جوزيه غرفة صغيرة خلف
البيت وعكف على اجراء تجاربه العلمية، مهملاً شؤون أسرته، تاركاً زوجته
وولديه يقصمون ظهورهم في فلاحه الارض لاستنبات ما يأكلون... وكم روع
أفراد الأسرة كلها ذات يوم من شهر ديسمبر عندما جمعهم وقال لهم برصانة
وجد بالغين: «لقد اكتشفت من أبحاثي العلمية والفلكية ان الارض
مستديرة، مثل برتقالة...».

عندئذ لم تتمالك زوجته أورشولا ان صرخت فيه: «اذا كان لا بد أن

نجن، فلتجن وحدك !.. لكن لا تحاول أن تبث ترهات الغجر في عقول أطفالك !... .

بيد أن جوزيه لم يتأثر بما أبدته زوجته من جزع ويأس، فقد جمع رجال القرية وشرح لهم نظريته بأن الانسان يستطيع ان يعود الى المكان الذي يبدأ منه رحلته اذا واصل الإبحار شرقاً.. ولكنه زادهم اقتناعاً بأنه فقد عقله، وظل الحال كذلك الى أن عاد مالكويداس وأثنى بينهم علناً على ذكاء رجل منهم استطاع باستدلالاته المحضة اثبات النظرية التي تم اثباتها فعلاً وعملاً في العالم الخارجي، وإن لم تكن معروفة من قبل في القرية، وتأكيداً لفرط إعجابه بهذا الرجل القدير فقد اهداه شيئاً كان مقدراً ان يكون له تأثير عميق على مستقبل ماكوندو : ألا وهو (معمل كيميائي) ..

كان المعمل البدائي يشتمل على مجموعة كاملة من الانابيب والقناني والوانى الزجاجية العجيبة، الى جانب مختلف الاحماض والمساحيق والمعادن التي قيل ان بينها المعادن السبعة الرامزة الى الكواكب السبعة... . ولما كان جوزيه قد استهوته سهولة الوصفات التي اطلع عليها لمضاعفة اية كمية من الذهب، فقد راح يتودد الى أورسولا مدى أسابيع لكي تسمح بإخراج جنيهاتها الذهبية المدفونة تحت السرير، حتى يعمل على مضاعفتها لها أضعافاً كثيرة.. وفي النهاية لم تستطع أورسولا سوى النزول عند رغبة زوجها إزاء إلحاحه وإصراره... . وعندئذ ألقى جوزيه الجنيهاات في اناء وخلط بها مقادير من النحاس والكبريت وكبريتور الزرنيخ والرصاص، ثم جعلها تغلي في وعاء به زيت الخروج حتى استحالت الى سائل كثيف بدا في شكله اقرب الى (الكراملة) العادية منه الى الذهب الثمين.. وبعد عمليات خطيرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزئبق ثم التبريد في النهاية، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصفت في قاع الإناء التصاقاً لا فكاك منه !.

كانت هذه التجربة المريرة باعثة على حزن جوزيه حتى نفص يديه بين عشية وضحاها من القيام بمزيد من التجارب في عالم الكيمياء . . وانصرف عن كل شيء حتى الاكل ، وراح يدور في أرجاء البيت مغموما ، ولكنه كان يقول لزوجته أورسولا : «هناك أشياء لا تصدق تحدث في الدنيا . في ما وراء النهر الذي يحد قريتنا ، هناك كل أنواع الادوات السحرية العجيبة ، ونحن نعيش هنا كالحمير ! . .

والحق ان (جوزيه اركاديو بوينديا) كان طوال شبابه مجدا مكافحا متفانيا في رعاية أسرته ومتعاوننا مع جيرانه في العمل على رفاهية القرية ، واليه يرجع الفضل في تخطيط ماكوندو على نظام منسق بديع حتى أضحت سكانها الثلاثمائة افضل من كل قرية اخرى معروفة في ذلك العهد ، لا يزيد عمر كل فرد من أبنائها عن الثلاثين ، ولم تحدث فيها وفاة واحدة . . .

بيد أن هذه الروح الاجتماعية الوثابة ما لبثت ان اختفت بعد ظهور حمى المغناطيسات ، والادوات والحسابات الفلكية ، وأحلام تحويل المعادن الى ذهب ، ومضاعفة مقاديره ، وشهوة اكتشاف عجائب العالم . . وهكذا إستحال جوزيه من إنسان نظيف نشط الى شخص كسول في مظهره مهمل في ملابسه اشعث اللحية حتى اضطرت أورسولا الى تقليمها له بعد جهد كبير مستعينة بسكين المطبخ . . وكثيرون هم الذين اعتقدوا انه أصبح ضحية لون من السحر غامض خفي . . .

وفي هذا قالت له أورسولا ذات يوم :

- بدلا من أن تنهمك هكذا في اختراعاتك الجنونية ومشروعاتك المتهوسة ، يجب ان تشغل بتربية اولادك . . انظر الى الحالة التي وصلوا اليها ، وهم يجرون في كل مكان شاردين مثل الحمير ! . .

وفعلا نظر جوزيه من النافذة ، فشاهد ولديه يلعبان في الحديقة

حافيين، وبدا له انه لم يشعر بوجودهما الا في هذه اللحظة... وظل يتأملهما حتى تندت عيناه بالدموع، وما لبث ان جففتهما بظهر يده، وقال وهو يتنهد ممثلا :

- لا بأس... قولي للولدين ان يأتيا لمساعدتي في جمع ادواتي...

كان (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر في الرابعة عشرة... وكان مربع الرأس، كثيف الشعر، يماثل أباه في متانة البنية، ولكن يقصر عنه في التفكير وقوة التخيل... وكان مولده اثناء رحلة الاسرة بين الجبال، قبل تأسيس قرية ماكوندو، وقد حمد ابواه ربهما اذ لم يولد بملامح حيوانية... وكان (اوريليانو) اول مخلوق بشري ولد في ماكوندو، يناهز السادسة من عمره، وكان أميل الى الصمت والعزلة والانطواء... لقد سمع بكأؤه وهو لا يزال في رحم أمه، وولد وهو مفتوح العينين... وعندما قطعوا الحبل السري جعل يدير رأسه من جانب لجانب متطلعا الى ما في الغرفة من أشياء ومتفحصا الوجوه من حوله بفضول لا يخالطه أي خوف... وبعدها لم يعبأ بمن اقتربوا منه للنظر اليه، وركز نظراته في السقف المصنوع من النخيل والذي بدا كأنما يوشك ان يخر تحت وطأة المطر الدافق المنهمر...

ومنذ تلك اللحظة التي استرعت فيها اورسولا نظر الاب الى ولديه، عكف جوزيه على تعليمهما القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولم يفته ان يحدثهما عما في العالم الخارجي من عجائب، مضيفا اليها حصيلته الذاتية من التخيلات والاحلام، الـ والتخرصات والاهام...

والواقع ان هذه (الهلوسة) ظلت محفورة في ذاكرة الصبيين الى حد بعيد حتى أن (الكولونيل اوريليانو) لم ينس بعد طول السنين (وهو واقف امام فريق الرماة ينتظر اشارة الضابط لإطلاق النار) مشهد أبيه عصر ذلك اليوم الحار من شهر مارس، اذ قطع درس الفيزياء الذي كان يلقيه لولديه،

ووقف مبهورا رافع اليد جامد العينين ، مرهفا سمعه الى الأصوات البعيدة
المتدانية الصادرة عن زمور وطبول «الفجر» القادمين الى القرية مرة اخرى،
ليتحفوا أهلها بمزيد من أعاجيب العالم الخارجي . . .

كانوا في الحق طرازا جديداً من (الفجر)، شبانا ونساء لا يتكلمون
سوى لغتهم، لهم بشرة زيتية وأيد بارعة، بثت رقصاتهم وموسيقاهم البهجة
والروح في الشوارع، ومعهم ببغاوات من كل الالوان ترطن الايطالية،
ودجاجة تضع مائة بيضة ذهبية على دق الدفوف، وقد مدرب يقرأ الطالع،
وجهاز متعدد الفوائد التي تشمل الشفاء من الحميات ومساعدة الانسان على
نسيان ذكرياته الاليمة، وعشرات اخرى من (المخترعات) المبتكرة
الفريدة، حتى أن (جوزيه اركاديو بوينديا) ود لو استطاع ان يخترع هو نفسه
جهازا للذاكرة يمكنه من استيعاب كل هذه العجائب واختزانها جميعا في
وعيه . . .

في لحظة واحدة سحر (الفجر) القرية كلها . . . وألفى سكان ماكوندو
انفسهم تائهين في شوارع قريتهم، مذهولين من فرط ما يرون من
الأعاجيب . . .

وراح (جوزيه اركاديو بوينديا) وهو ممسك بولديه حتى لا يضيعا في
غمار الزحام يشق طريقه بين بهلوانات ذوي أسنان مذهب وحواة ذوي ستة
اذرع وروائح خانقة من السباح والاثربة، باحثا عن مالكويداس لكي يكشف
له عن مزيد من الاسرار . . . وفي هذا سأل عديد (الفجر) الذين لم يفهموا
لغته، الى أن وصل في النهاية الى الموضع الذي اعتاد مالكويداس أن ينصب
فيه خيمته . . . فوجد ارمينيا كان يعلن بالاسبانية عن شراب يجعل الانسان
مخفيا عن العيان . . . فقد شرب كأسا من مادة عنبرية بجرعة واحدة عندما
اقرب منه جوزيه مع ولديه بين الجمع المنهبر لمشاهدة هذه الخوارق،
واستطاع جوزيه ان يتجه اليه بسؤاله . . . واذا (الفجري) يرميه بنظرة شاملة

مخيفة قبلما تحول الى بركة دخانية خائفة تردد من فوقها صوته وهو يقول :
« إن مالكويداس قد مات » . . .

لقد حزن جوزيه لهذا النبأ الاليم وجمد في مكانه برهة الى ان تفرق
الجمع منجذبين الى فنون الألعاب السحرية الأخرى بينما تبخرت في خلال
ذلك بركة الأرمني الدخانية . . . وتحت اصرار ولديه لرؤية اعجوبة الأعاجيب
المعلن عنها انتقل معهما الى خيمة أخرى دخلوا اليها بعد دفع ثلاثين سنتا،
فشاهدوا مارداً اشعر الجسد حليق الرأس تتدلى من أنفه حلقة نحاسية وتلتف
حول كاحله سلسلة حديدية ثقيلة وأمامه صندوق قرصاني كبير . . . وعندما فتح
المارد الصندوق انبعثت منه رائحة ثلجية . . . ولم يكن بداخله سوى كتلة
شفافة ضخمة بداخلها ابر لا عداد لها وقد تكسر عليها ضوء الغروب بنجوم
ملونة . . . واجتزأ جوزيه ان يغمغم لولديه بتفسير لا بد منه :

- هي أكبر ماسة في الدنيا . . .

ولكن المارد رد عليه مناقضا :

- لا . . . انها ثلج . . .

لم يفهم جوزيه ، ومد يده في اتجاه الكتلة الكعكية ، بيد أن المارد
ردها قائلاً :

- خمسة سنتات أخرى نظير اللمس . . .

فدفع جوزيه ، ووضع يده على كتلة الثلج ، وأبقاها بضع دقائق وقد
امتلاً قلبه بالخوف والبهجة معا للمس هذا الجسم الخفي . . . وما لبث أن
دفع عشر سنتات أخرى تمكينا لولديه من ملامسة هذه الخارقة دون أن يحير
قولا . . . فأما (جوزيه اركاديو) الابن الأكبر فقد رفض اللمس . . . وأما
(أوريليانو) فقد تقدم خطوة ووضع يده عليها ثم سحبها في الحال هاتفا :

«إنها تغلي !» . . . ولكن جوزيه الأب الذي أسكرته هذه المعجزة فقد نسي مشروعاته المحمومة وحزنه لفقد مالكويداس معلمه ومشيره الحكيم ودفع خمسة سنتات أخرى ووضع يده من جديد على الكتلة المتلألئة بخشوع وقداسة، وهتف قائلاً :

- هذا اعظم اختراع في زماننا . . .

الفصل الثاني

كان سر اهتمام (جوزيه اركاديو بوينديا) بالثلج هو حلم تراءى له في منامه ذات ليلة وهو في الطريق الى ماكوندو لأول مرة، عن مدينة جدرانها من المرايا... ولم يستطع ان يفسر هذا الحلم الا يوم اكتشف الثلج عند (العجبر)... وقد بدا له أنه سوف يستطاع في المستقبل القريب صنع كتل هائلة من الثلج على نطاق واسع من مادة عادية كالماء، ومن الكتل تبني بيوت جديدة للقرية، وهكذا لا تبقى ماكوندو مكاناً يتلظى بالحرارة. بل تتحول الى مدينة تحتل الحياة فيها.. وإذا كان لم يثابر في محاولاته لإقامة مصنع ثلج، فذلك لأنه كان في ذلك الحين منهمكا أشد الانهماك في تعليم ولديه، خصوصاً أوريليانو، الذي تعلق منذ البداية بالكيمياء.. وقد عكف الاثنان فعلا على محاولة فصل بقايا ثروة أورسولا الذهبية الملتصقة بقاع الإناء واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها.. أما (جوزيه اركاديو) الابن الأكبر فقد عزف عن المشاركة في هذه المحاولة. والواقع ان هذا الابن كان ذا ارادة وعزم، وقد نما جسمه بصورة مفرطة، حتى اذا بلغ سن المراهقة كان أقرب الى صورة مارد.. وفي تلك الايام ترددت على البيت امرأة عرفت بالمرح والإثارة وطلاقة اللسان للمساعدة في أعمال المنزل، وكانت تعرف قراءة الطالع بأوراق اللعب... وقد حدثتها أورسولا عن ولدها وعن خشيتها من حجمه المجاوز لسنه، فأطلقت المرأة ضحكة رنانة وقالت لها: «بل بالعكس، انه سوف يكون سعيد الطالع»... ولكي تثبت المرأة نبوءتها جاءت الى البيت بعد ايام قلائل ومعها اوراق كشف الطالع وأغلقت على نفسها الباب مع الفتى في غرفة خلفية... فكانت هذه الخلوة ايداناً بانقلاب

خطير في اطواره واذكاء مشاعره العاطفية . . .

كانت هذه المرأة تدعى (بيلا تيرنيرا) ، وكانت من أفراد الفريق الذي وفد مع جوزيه الأب لتأسيس ماكوندو، جاءت بها أسرتها عنوة للتفريق بينها وبين الرجل الذي اغواها وهي في سن الرابعة عشرة وظلت علاقتهما سراً حتى بلغت الثانية والعشرين دون أن يحسمها بالزواج . . .

فهل كان عجباً ان تجد هذه المرأة في جوزيه الابن خير عوض لها عما فقدته في ذلك العشيق الآبق ؟ . . . بل انها تمادت في هذا الى حد أنه اصبح يتسلل كل ليلة الى بيتها في غفلة من أهله وأهلها . .

وكان جوزيه الابن يجلس نهاره غارقاً في ذكريات نشوته الجديدة حتى أنه لم يكذبهم معنى لهذه الضجة التي شملت البيت كله فجأة عندما راح أبوه وأخوه الأصغر أوريليانو يعلنان في بهجة غامرة نبأ نجاحهما أخيراً في استخلاص ذهب أورسولا من قاع الإناء وتنقيته مما علق به من شوائب . . . وكانت أورسولا سعيدة غاية السعادة بهذه النتيجة، الى حد انها راحت تحمد الله من أجل اختراع الكيمياء، وذهبت تقدم الحلوى والفاكهة الى أهل القرية الذين توافدوا على الدار لمشاهدة هذه العجبة، وكان جوزيه الابن يريهم الذهب مزهراً وكأنه استنبطه من لا شيء . . . وفي النهاية وقف به أمام ابنه الأكبر الذي لم يكن يراه في المعمل الكيميائي في الايام الاخيرة الاندراً ، وسأله :

-كيف تراه ؟ . . .

فأجاب جوزيه الابن ببساطة :

- مثل براز كلاب . . .

فما كان من الاب الا أن لطمه بظهر يده لكمة أسالت دمه ودموعه . . . وفي تلك الليلة وضعت له بيلا تيرنيرا (كمادات) فوق الورم، وبذلت له من

حبها ما جعله يهمس في سمعها لثلا يسمعه أحد من أهلها وهما في غرفة نومها :

- أريد أن اكون معك وحدنا . . سيأتي يوم اقول فيه للناس ما بيننا، وبعدها لانحتاج الى هذا التستر . . .

فقالت له دون أن تحاول صده :

- لو تم هذا لكان شيئاً جميلاً . . اذا اصبحتنا وحدنا فسيكون بالامكان ان نترك المصباح مضاء لكي اراك وتراني، بدل هذا الظلام من حولنا . وسيكون لي أن ارفع الصوت وأصرخ دون أن يتدخل أحد، وسيمكنك ان تقول لي علنا ما يخطر ببالك . . .

إن هذا الحوار الهامس، وغضبه لما ناله من أبيه، وتشوقه للانطلاق في غرامه هذا الى أبعد مدى . . كل هذا قد بث فيه روح الجرأة، حتى اندفع في لحظة عفوية الى مكاشفة أخيه بحل شيء . . وأول الامر لم يفهم أوريليانو الصغير سوى فكرة المجازفة، واحتمال الخطر الذي تعنيه مغامرة أخيه، ولم يستطع ان يفهم الإثارة التي اشتملت عليها . . وشيئاً فشيئاً سرت اليه عدوى القلق، وأصبح يتساءل في نفسه عن كنه الاخطار ويتلمس تفاصيل المعاناة والبهجة التي يتعرض لها أخوه، حتى لقد جعل يسهر انتظاراً لعودته حتى الفجر . . . ولم يطل بهما الوقت حتى اصبحا يكابدان آثار السهر، ويشتركان في العزوف عن الكيمياء وما يبثه فيهما الاب من تعاليم وحكمة، ولم يجدا ملاذا الا في العزلة والأنطواء . . . وعندما فطنت أورسولا الى حالهما قالت :

- إن الولدين قد اختل عقلهما . . لا بد أن عندهما ديدانا . . .

وبادرت فأعدت لهما (شربة) كريهة ارغمتهما على تناولها حتى لقد تبرز كلاهما احدى عشرة مرة في يوم واحد، مفرزين طفيليات وردية اللون أبهجهما أن يراها للجميع، اذ هيا لهما ذلك خداع أورسولا وتحويل نظرها

عن المصدر الحقيقي لاضطراب احوالهما . .

وفي الساعة الثانية من صباح يوم خميس في يناير وضعت أورسولا الحامل في شهرها التاسع ابنتها (اماراتا) . . وعندما فحصتها الام وهي وحدها وجدتها خفيفة مائة مثل ورل صغير، ولكنها حمدت الله اذ كانت كل اعضائها بشرية (كان هذا الخوف المتكرر من جانب الام عقب كل ولادة مرجعه الى اسطورة مؤداها أن زواجها بين اثنين من أسلاف أسرتها وأسرة زوجها من الاقارب قد انجب ولدا له ذيل خنزير وقد عاش متخفيا حتى سن الاربعين في ملابس فضفاضة الى أن قطع قصاب ذيله بسكين فتزف حتى الموت) . . .

ومهما يكن فإن أوريليانو لم يلاحظ هذا الحدث الجديد الا عندما امتلأ البيت بالناس فانتهاز فرصة الهرج وخرج للبحث عن أخيه الذي لم يبت معه في الفراش منذ الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الفكرة مفاجئة اذ لم يخطر بباله كيف يمكنه استدراج أخيه من غرفة بيلار تيرنيرا في بيت أهلها، لقد راح يدور حول البيت مدى ساعات، مصفرا بنداءات خاصة بهما، الى أن اضطره اقتراب الفجر الى العودة الى داره . . وفي غرفة النوم وجد (جوزيه اركاديو) يلعب بأخته الوليدة وعلى وجهه دلائل التظاهر بالبراءة . .

وما أن جاوزت أورسولا فترة (أربعينها) حتى عاد (الفجر) الى القرية في دورتهم السنوية . . وكانوا هم نفس المشعوذين والحواة الذين جاءوا معهم بالثلج من قبل . . وقد اظهروا منذ البداية انهم على عكس قبيلة مالكويداس ليسوا رسل تقدم وإنما أعوان ترفيه وتسلية، وكانت كل معروضاتهم وأدواتهم من هذا الطراز . . .

ولقد امضى «جوزيه اركاديو» الابن وبيلار تيرنيرا اوقاتاً بهيجة وهما يتفرجان على ألعاب (الفجر)، الى أن فاجأته بيلار ذات مرة بنبا قلب الدنيا

فوق رأسه، اذ قالت له :

- الآن انت رجل فعلاً . . .

ولما لم يفهم قصدها، عاجلته قائلة :

- سوف تصبح أباً . .

لم يجسر (جوزيه اركاديو) الابن على مغادرة بيته مدى أيام . . وكان يكفي ان يسمع ضحكات بيلار الرنانة في المطبخ لكي يهرب ويلجأ الى المعمل الكيميائي، حيث كانت تجارب ابيه تجري الان على قدم وساق بمباركة من اورسولا . . والواقع أن «جوزيه اركاديو بوينديا» الاب تلقى ابنه الأبقى بالبهجة وأشركه معه في البحث عن «حجر الفلاسفة» وهي احدث محاولاته . . ولكن على الرغم من تظاهر الابن بالاهتمام، فإنه لم يفلح في الهروب من عنائه . . وأفضى به الامر الى فقد الشهية ومجافاة النوم . . وانحاز الى الاكتئاب والغم، حتى أعفاه أبوه من المساعدة في المعمل الكيميائي ظناً بأنه لا يجد القابلية لذلك . . . وقد فهم أوريليانو بالطبع أن اكتئاب أخيه لا علاقة له بالبحث عن «حجر الفلاسفة» وإن كان لم يستطع أن ينفذ الى دخائله بعد أن آنس منه الصمت والأنطواء والبعد عن كل تبسط كما كان حاله في الماضي . . .

و ذات ليلة عندما ثقلت عليه الوحدة التي أصبح (جوزيه اركاديو) الابن يعانيتها واشتدت. نغمته على الدنيا ومن فيها، ترك فراشه كالمعتاد، بيد أنه لم يذهب الى بيت بيلار تيرنيرا، وإنما يمم شطر ملعب (الفجر)، حيث راح يتفرج على العروض ويطوف بأرجاء الملعب على غير هدى . . الى أن استرعت نظره فتاة (عجرية) صغيرة السن كانت مثقلة بالعقود وبدت في نظره اجمل امرأة في الدنيا، وقد وقفت بين الجمع الذي كان يشاهد الرجل الذي تحول الى أفعى لأنه عصى أبويه . .

لم يعبأ (جوزيه اركاديو) بالعرض، وشق طريقه الى حيث وقفت الفتاة في الصف الاول، فوقف عن كذب منها، وأخذ يقترب منها الى أن شعرت الفتاة باهتمامه بها وتبسمت له . . وفي النهاية صحبته الى خيمتها حيث تبادلوا القبلات والعناق . . .

كان ذلك يوم الخميس . . وفي ليلة السبت لف (جوزيه اركاديو) الابن منديلا أحمر حول رأسه وارتجل مع (الفجر) . . .

وعندما اكتشفت أورسولا غيابه بحثت عنه في كل انحاء القرية . . . ولم يبق في الساحة التي أقام فيها (الفجر) سوى بقايا النيران الخائبة . . وتطوع واحد من أهل القرية فقال لها إنه كان هناك في الليلة الماضية وشاهد ابنها في الزحام يدفع العربة التي تحمل قفص الرجل الأفعى . . وصرخت الام لزوجها :

- لقد أصبح واحدا من (الفجر) ! . .

فقال الاب الذي لم ينزعج لاختفاء ابنه وهو يطحن في الهاون مواده الكيميائية للمرة الألف :

- يا ليت هذا يكون صحيحاً . . بهذه الطريقة سوف يتعلم كيف يصبح رجلاً ! . .

وراحت أورسولا تسأل عن الطريق الذي سلكه (الفجر) في رحيلهم، ظنا منها بأنها تستطيع اللحاق بهم . . وتبعت هذا الطريق الى أن ابتعدت عن القرية مساحة كبيرة لا تستطيع ازاءها العودة . . . ولم يعرف «جوزيه اركاديو» بوينديا، بغياب زوجته حتى كانت الساعة الثامنة ليلا، فترك خلائطه الكيميائية تبرد وذهب لرؤية أمارانتا الوليدة التي يح صوتها من الصراخ . . وبعد ساعات جمع بضعة رجال مزودين بما يلزم وعهد بالمولودة الى امرأة ابدت استعدادا لرعايتها، وغاب عن الانظار مع رفاقه في أثر أورسولا . . .

وكان أوريليانو معهم . . . وأبلغهم بعض الصيادين الهنود بالإشارات وهم لا يفهمون لغتهم انهم لم شاهدوا احداً يمر في الطريق الذي سلكوه . . . وبعد ثلاثة أيام من البحث العقيم عادوا ادراجهم الى القرية . . .

ومضت أسابيع غير قليلة اطلق فيها جوزيه الاب العنان لجذعه . . . وفي خلال ذلك عكف على رعاية اماراتا الصغيرة كام . . . فكان يحميها ويلبسها وكان يدفع بها الى المرضعة اربع مرات في اليوم، بل جعل يغني لها في الليل الاغنيات التي لم تكن أورسولا تعرف كيف تغنيها . . .

وفي احدى المناسبات تطوعت بيلار تيرنيرا بالقيام بالاعمال البيتية الى حين عودة أورسولا . . . وقد أحس أوريليانو ببديته التي شحذتها هذه البلوى ان هذه المرأة مسؤولة على نحر مبهم لم يستطع ادراكه عن سبب هروب اخيه وما تلاه من اختفاء امه، فبادرها بعداء صامت لا هوادة فيه حتى كفت المرأة عن الحضور الى الدار . . .

وفجأة بعد خمسة اشهر كاملة من اختفاء أورسولا ، اذا هي تعود على غير انتظار . . .

جاءت في حالة ابتهاج ونضارة، مرتدية ملابس جديدة من طراز لم يكن معهودا في القرية . . . ولم يكذ جوزيه الاب يستطيع ان يقيم عوده من وطأة المفاجأة، حتى صاح قائلاً :

- هذا هو ما كنت اعتقده ! . . . كنت اعرف ان هذا سيحدث ! . . .

وكان ذلك يقينه حقاً . . . ففي خلال عكوفه الطويل بين معادنه ومواده الكيميائية، كان يدعو في أعماق نفسه أن تكون المعجزة المنتظرة ليس اكتشاف (حجر الفلاسفة) ولا استخلاص الروح الخفية التي تجعل المعادن تتبدل كأنما دبت فيها حياة جديدة، ولا القدرة على تحويل أقفال ومفصلات

الابواب الى ذهب... بل تكون المعجزة هي ما حدث فعلاً... أي عودة أورسولا!...

بيد أن أورسولا لم تشاطره انفعاله... فقد منحته قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب أكثر من ساعة، وقالت له :
- أنظر الى خارج الباب...

والحق أن جوزيه لبث فترة مديدة نهب حيرته قبلما خرج إلى الشارع وشاهد الجمع المحتشد...

لم يكونوا من (الفجر)، بل كانوا رجالا ونساء مثلهم، ذوي شعور مستقيمة وبشرة سمراء، يتكلمون نفس اللغة ويشكون من نفس الآلام،... وكانت معهم بغال محملة بمأكولات، وعربات تجرها الثيران تحمل أثاثاً وأدوات منزلية، وأخرى معدة للبيع يعرضها أناس ببساطة دون ما جلبة ولا ضجيج...

لقد جاءوا مما وراء اقليم المستنقعات الشاسعة، على مبعده يومين لا أكثر، حيث كانت هناك بلدان تتلقى البريد كل شهر من شهور السنة، وحيث يعرفون وسائل العيش التي تجعل الحياة طيبة ميسرة...

إن أورسولا لم تستطع ان تلحق (بالفجر) لكنها وجدت الطريق الى الحضارة الذي عجز زوجها عن اكتشافه في بحثه الحابط عن المكتشفات الكبرى...

الفصل الثالث

جاء بابن بيلار تيرنيرا الى بيت جديه بعد اسبوعين من مولده. وقد تقبلته أورسولا كارهة، مغلوبة على أمرها مرة أخرى ازاء عناد زوجها، الذي لم يحتمل فكرة تشرد سليل من دمه، ولكنه اشترط الا يعرف الطفل بأي حال هويته الحقيقية. . . وعلى الرغم من أنهم سموه (جوزيه اركاديو) الا أنهم انتهوا الى تسميته باسم اركاديو فقط، تجنباً للمخلط والالتباس. . .

وفي ذلك الحين حدث نشاط كبير في البلدة ومشاغل كثيرة في البيت الى حد ان رعاية الاطفال عهد بها الى امرأة هندية من قبيلة جواجيرو كانت قد وفدت على البلدة مع اخ لها هرباً من مرض وبائي هو الأرق الدلهم كان قد تفشى في القبيلة منذ سنوات عديدة. . . وقد عرف الاثنان بالوداعة والدمائة حتى لقد استعانت بهما أورسولا في المساعدة في الاعمال المنزلية. . . وكان ذلك هو السبب في ان اركاديو وأماراتنا الصغيرين قد عرفا كيف يتكلمان لغة جواجيرو قبل اللغة الاسبانية، وتعلما شرب حساء السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تعرف أورسولا هذا، اذ أنها أصبحت مشغولة الى حد كبير بعملية ناجحة تبشر بالربح هي صنع الحيوانات من الحلوى. . .

ذلك ان بلدة ماكوندو قد تغيرت. . . فان الوافدين الجدد مع أورسولا راحوا يعلنون انباء سارة عن خصوبة ارضها وعن موقعها الممتاز بالنسبة لمناطق المستنقعات المجاورة، وهكذا تحولت القرية الضيقة الى بلدة ناشطة قامت فيها المتاجر والمصانع الصغيرة، وامتد منها طريق تجاري أصبح يفد منه التجار العرب بشتى السلع. . . وفي خلال ذلك لم يجد (جوزيه اركاديو

بوينديا) مجالا للراحة والدعة . . . فعندما بهره الواقع الملموس كف عن تخيلاته الواسعة ونفض يديه من ترهات المعمل الكيميائي ، وعاد مرة اخرى الى طبيعته السالفة كمخطط للعمران في البلدة ، وأصبح حجة لدى القادمين الجدد بحيث لا توضع أسس ولا تقام جدران الا بمشورته ، وتقرر في النهاية أن يكون المشرف على توزيع الاراضي . . .

وفيما كان الأب منصرفا الى تنظيم البلدة والام منهمكة في زيادة دخل الاسرة عن طريق صنع الحيوانات والاسماك من الحلوى ، كان اوريليانو يمضي الساعات الطوال في المعمل المهجور يتعلم صناعة طلاء المعادن بتجاربه الخاصة حتى برع في ذلك . . . ومع أن انتقاله الى طور المرافقة أكسبه صلابة ورصانة وانحيازاً الى الصمت والاعتكاف والعزلة ، الا أنه شحذ فيه تلك الخاصة التي ولد بها وهي حدة البصر التي بلغت درجة البصيرة والقدرة على التنبؤ . . . وذات يوم أذهل أمه بقوله على غير انتظار :

- هناك قادم جديد سيأتي إلينا . . .

وفعلا لم يحل يوم الا واحد الا وقد جاءت ريبيكا . . .

لم يكن سنها يجاوز احد عشر عاما . . . وقد جاء بها بعد رحلة طويلة شاقة من بلدة مانور بعض تجار الجلود الذين عهد اليهم بتسليمها الى (جوزيه اركاديو بوينديا) مصحوبة برسالة قال فيها مرسلها إنه لا يزال يكن له المحبة رغم تباعد المسافة والظروف ، وإنه أخذ على عاتقه هذا الواجب الخيري الانساني وهو تسليم الطفلة اليتيمة المسكينة التي هي من سلالة أسرتي اورسولا وجوزيه اليهما ، اكراما للذكرى والديها المرحومين (نيكانور اولوس) و (ريبيكا مونتيل) ، اللذين وضعت عظامهما في الصندوق المرافق للطفلة ، توطئة لدفنها في مثنى قريب من مقامها الجديد . . .

وفي الحق أنه ما من أحد من الزوجين جوزيه وأورسولا عرف مرسل

الرسالة ولا أبوي الطفلة، تلك التي انزوت منذ مقدمها في كرسيها الهزاز الصغير تمتص اصبعها وتتفرس فيهم جميعا بعينيها الواسعتين المجفلتين دون أن تبدي أدنى اشارة تنم عن فهم لما يقال لها... وكانت تبدو معتلة الصحة وعليها علائم جوع اقدم من سنها... وعندما قدموا اليها طعاما تركت الطبق فوق ركبتيها دون ان تذوق منه شيئا... بل بدا لهم انها ربما كانت صماء بكماء، الى أن جاءت الهندية وسألتها بلغتها ان كانت تريد ماء، فحركت عينيها كأنما عرفتھا، وأجابت نعم برأسها...

لقد احتفظوا بالطفلة، اذ لم يكن هناك ما يفعلونه غير ذلك... وأطلقوا عليها اسم ريكسا أخذا باسم أمها... ومضت فترة طويلة قبلما اندمجت ريكسا في حياة الاسرة... ولم يستطيعوا ان يحملوها على الاكل أياماً متعاقبة، حتى عجبوا كيف لم تمت من الجوع وهي كذلك الى أن فاجأها الهنديان وهي تأكل التربة الرطبة ومصيص الحوائط الابيض تحتفره بأظافرها...

لقد أثارت هذه الظاهرة الشاذة فزع الاسرة، بيد ان اوزسولا لم تخلد الى اليأس، ولم تزل بالطفلة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب الى حد الضرب حتى حملتها على العدول عن ذلك، وأصبحت في النهاية تأكل الطعام العادي مع الصغيرين امارانتا واركاديو، وتشاطرهما النوم في نفس الحجرة... وتبين بعد ذلك انها تتكلم الاسبانية بنفس الطلاقة التي تتكلم بها الهندية...

وتتعاقب الشهور... الاعوام والاسرة ماضية في حياتها... الاب لا يكف عن نشاطه الدائب في التخطيط والابتكار... والام منهمكة في صنع تماثيل الحلوى التي تدر على الأسرة دخلا وفيرا... والابن اوريليانو يزد براعة في فن طلاء المعادن وصنع المشغولات الفضية والذهبية مستهدفا لعناء المراهقة ماراً بتجارب أليمة زادت انطواء واعتزالا لما يهفو اليه اضرابه في مثل هذا الطور...

وتفتح أورسولا عينيها ذات يوم وهي تصنع تماثيلها المحلاة، فيسترعي نظرها مشهد فتاتين جميلتين في سن المراهقة جالستين في الفناء منهنمكتين في شغل الإبرة حتى بدا لها لأول وهلة أنها لا تعرفهما . . .

كأت أحدهما ربيكا وهي أحلاهما على غير ما كان يتوقع، نضرة البشرة، واسعة العينين المفعمتين بالسكينة، بارعة اليدين في التطريز. أما أصغرهما فكانت أمارانتا، رشيقة إلى حد ما، متميزة بملامح أسرتها. . وعن كئيب منهما جلس أركاديو الصغير، الذي وإن كان ينحو إلى سرعة النمو مثل أبيه الأبق، إلا أنه بدا كطفل بجانب الفتاتين. . . وكان قد بدأ يتعلم فن المشغولات الفضية على يد عمه أوريليانو، الذي علمه القراءة والكتابة أيضا. . .

وهنا أدركت أورسولا فجأة أن البيت قد أصبح مملوءً بالأبناء، وأن هؤلاء الأبناء سوف يتزوجون حتماً وينجبون أطفالاً، وأنهم سوف يضطرون إلى التفرق لضيق البيت. . . وهكذا عمدت إلى نقودها التي تراكت على مدار سني العمل الدائب، فأخرجتها للعمل على توسيع البيت، وتولت بنفسها الإشراف على هذه العملية. . .

وفي النهاية قام في مكان البيت البدائي أكبر بيت في البلدة كلها، بل وفي منطقة المستنقعات بأسرها، مشتملاً على تسع غرف نوم، وحجرة استقبال كبرى للزائرين، وقاعة للطعام تسع اثني عشر مقعداً صفت حول المائدة الكبيرة، ومدخل مسقوف يقي من حرارة الشمس وتحف به أصص الأزهار، و (كرار) كبير تحتزن فيه المؤونة الكافية، وحمامين في الفناء أحدهما للرجال والثاني للنساء، واسطبل كبير، وحظيرة للدجاج وأخرى لبقر حلب اللبن. . .

وقد أوشك بناء هذا الصرح على التمام عندما استدرجت أورسولا

زوجها من عالمه التخيلي لكي تبلغه انها تلقت أمرا بطلاء الواجهة باللون الازرق بدلا من الابيض كما كانوا يريدون، وأطلعتة على الوثيقة الرسمية التي جاءت... وقبل ان يفهم (جوزيه اركاديو بوينديا) ما قالته زوجته فك طلاس التوقيع وسألها :

- من يكون هذا الشخص ؟ ..

فأجابت اورسولا في مضض :

- ... يقولون إنه من رجال السلطة وموفد من الحكومة ...

كان دون ابولينار موسكوت، القاضي، قد وصل الى ماكوندو بهدوء، ونزل في فندق يعقوب الذي بناه احد العرب الوافدين للتجارة، وفي اليوم التالي استأجر غرفة صغيرة ذات باب يطل على الشارع على بعد مربعين سكنيين من بيت بوينديا... وقد وضع منضدة، ومقعدا جاء بهما من عند يعقوب، وثبت على الحائط شعار الجمهورية الذي جاء به معه، وطلّى على الباب كلمة (القاضي)... وكان أول أمر اصدّره هو وجوب طلاء جميع البيوت باللون الازرق احتفالا بالذكرى السنوية للاستقلال الوطني...

ولما ذهب اليه «جوزيه اركاديو بوينديا» ويده صورة من الأمر، وجده ناعساً في ارجوحة نصبها في المكتب الصغير... فبادره قائلا :

- هل كتبت هذه الورقة ؟ ..

كان دون ابولينار موسكوت رجلا مكتملا حياء، مورد الوجه، وقد رد بالاجاب... فسأله جوزيه :

- بأي حق ؟ ..

فالتقط دون ابولينار موسكوت ورقة من درج المنضدة وأراه اياها قائلا :

- انني عينت قاضيا لهذه البلدة . . .

فلم ينظر «جوزيه اركاديو بوينديا» حتى الى أمر التعيين، وقال دون أن يفقد هدوءه :

- نحن في هذه البلدة لا نعطي أوامر بقطع من الورق . . . ولكي نعرف للمرة الأولى والأخيرة، نحن هنا لا نحتاج الى أي قضاة؛ اذ لا يوجد ما يحوجنا الى التقاضي ! . . .

ووقف جوزيه في مواجهة دون ابولينار موسكوت وأنشأ يشيح له بالتفصيل ودون أن يرفع صوته حتى الآن كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا وشقوا الطرق وأدخلوا التحسينات التي اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاج الحكومة ودون أن يعمل أحد على ازعاجهم . . . واستطرد يقول :

- نحن اناس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيتنا احد ولو موتا طبيعيا، ولك ان ترى أنه ليست عندنا حتى الآن مدافن . . . ولم يتذمر احد يوما ما لأن الحكومة لم تساعدنا . . . بل بالعكس، كنا جميعا سعداء لأنها تركتنا نتقدم في سلام . . . والأمل معقود على ان نتركنا هكذا، لأننا لم نؤسس هذه البلدة لكي يأتي أي مدع ويقول لنا ماذا نفعل ! . . .

وفي خلال ذلك ارتدى دون ابولينار سترته البيضاء مثل بنطلونه دون أن يفقد في أية لحظة رشاقة حركاته . . . بينما اختتم «جوزيه اركاديو بوينديا» كلامه قائلا :

- وهكذا ان أردت ان تبقى هنا مثل أي مواطن عادي فعلى الرحب والسعة . . . لكن اذا كنت جئت لكي تثير المتاعب، بإجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الازرق، فلك ان تأخذ «عزالك» وتعود الى حيث جئت . . . ذلك لأن بيتي سوف يطلى باللون الأبيض، مثل الحمام ! . . .

والحق ان دون ابولينار موسكوت شحب وجهه . . . وتراجع خطوة الى

الوراء، وقال وهو يضغط على فكيه بشيء من الأسى :

- لا بد أن أحذرك أنني مسلح . . .

لم يدر (جوزيه اركاديو بوينديا) متى استردت يدها القوة التي كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضاً . فقد جذب دون ابولينار موسكوت من طيبي صدر السترة ورفعها الى مستوى عينيه، قائلاً :

- انني افعل هذا لأنني افضل ان أحملك هكذا حياً بدلاً من أن اطوف بك ميتاً، فيلازمني شبحك طول حياتي . . .

وعلى هذه الصورة حمله الى وسط الشارع، معلقاً من طيبي السترة، الى أن انزله على قدميه في الطريق المؤدي الى المستنقعات . . .

وبعد اسبوع عاد دون ابولينار موسكوت برفقه ستة جنود حفاة مهلهلين ومسلحين ببنادق مزدوجة قصيرة، تصحبهم مركبة تجرها الثيران حملت زوجته وسبع بنات . . . وجاءت في ما بعد مركبتان أخريان تحملان الاثاث والامتعة والادوات المنزلية . . . وقد انزل اسره في فندق يعقوب ريثما يجد مسكناً للأسرة، وعاد لفتح مكتبه تحت حماية الجنود . . .

إن مؤسسي ماكوندرو الذين عقدوا العزم على طرد الغزاة ذهبوا مع أبنائهم الكبار لكي يضعوا أنفسهم تحت امرة «جوزيه اركاديو بوينديا» . . . بيد أنه كان ضد هذا الاتجاه . . . فقد بين لهم أنه ليس من الرجولة ان يثيروا المتاعب لأي شخص أمام أسرته، بعد أن عاد دون ابولينار موسكوت مع زوجته وبناته . . . وهكذا حسم الموقف بهذا الاسلوب الحميد . . .

وذهب معهم اوريليانو . . . وفي ذلك الحين كان قد بدأ يقتل شاربه الاسود بالشمع، وغدا له صوت جهوري كان مقدراً ان يكون طابعه المميز في الحرب . . . ودخلوا الى مكتب القاضى بغير سلاح غير عابئين

بالحرس . . . فلم يفقد دون ابولينار موسكوت رباطته وهذومه . . . وقدمهم الى اثنتين من بناته كانتا موجودتين آنذاك : أمبارو البالغة من العمر ستة عشر عاما، السمراء مثل أمها، وريميديوس التي لم تزدد عن التاسعة من عمرها، وكانت صبية وافرة الملاحظة، ذات بشرة زئبقية وعينين خضراوين . . . وكانت كلتا هما موفورة الادب . . . وحالما دخل الرجال، وقبل التعارف، قدمتا اليهم مقاعد للجلوس، ولزمتا هما الوقوف . . .

وقال (جوزيه اركاديو بوينديا) :

- حسن جدا صديقي . . . لك أن تبقى هنا، لا لأن معك قطاع الطرق هؤلاء الواقفين بالباب مسلحين بالبنادق، ولكن مراعاة لزوجتك وبناتك . . .
لقد بدا دون ابولينار موسكوت منزعجا، بيد أن (جوزيه اركاديو بوينديا) لم يدع له وقتا للرد، واستطرد قائلا :

- هناك شرطان لنا فقط : الأول أن يكون لكل واحد أن يطلي بيته باللون الذي يفضله . . . والثاني أن يرحل الجنود في الحال . . . إننا سنضمن لك استتاب النظام والامن . . .

فرفع القاضي يمينه مبسوطة اصابعه الخمس، قائلا :

- بكلمة شرف منك ؟ . . .

فأجاب (جوزيه اركاديو بوينديا) :

- كلمة شرف، من عدوك . . .

وأردف بلهجة المرارة :

- لأنني لا بد ان اقول لك شيئا واحدا : فأنت وأنا ما زلنا عدوين . . .

وارتحل الجنود في نفس اليوم . . . وبعد أيام قلائل وجد (جوزيه

اركاڊيو بوينڊيا (بيتاً للقاضي وأسرته . . . وسادت السكينة كل انسان فيما عدا
اوريليانو. . . فإن صورة ريميدوس صغرى بنات القاضي ظلت تطالعه وتثير
ألمه على نحو ما، رغم صغر سنّها بالنسبة اليه. . . كان أماً حسياً يضايقه
كمن يمشي وفي حدائه حصاة. . .

الفصل الرابع

أقيمت في البيت الكبير المجدد حفلة راقصة كبرى على نغمات البيانولا دعي اليها مؤسسو مأكونيدو وابناؤهم، وكان نجمها هو الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسي مندوب المتجر مورد الآلة الموسيقية الجديدة، الذي أوفد للإشراف على ادارتها وتدريب الراقصين، وكانت رفيقته في الرقص ربيكا التي ابدت براعة اثارت اعجابه، حتى وعد أن يلقنها مزيداً من فنون الرقص في زيارته القادمة للبلدة . . .

وذاث يوم جاءت امبارو كبرى بنات القاضي لزيارة البيت الكبير ومشاهدة ما ازدان به من أثاث وتحف، فاستقبلتها أورسولا بالترحاب، ثم عهدت الم. أماراتا وربىكا بالطواف معها في أرجاء البيت . . . وعند انتهاء الزيارة انتهزت امبارو فرصة انشغال اماراتا، ودست في يد ربيكا رسالة سارعت الفتاة بإخفائها في صدرها الى أن صارت وجدها، فوجدتها من بترو كريسي الوسيم يثبها فيها مشاعر الإعجاب ويشي على براعتها في الرقص، ويعد بزيارة قريبة . . .

والواقع ان هـ، الصداقة المفاجئة بين امبارو وربىكا انعشت آمال اوريليانو. . . فإن ذكرى ريميديوس الصغيرة ما فتئت تعذبه، بيد أنه لم يجد الفرصة المناسبة لرؤيتها. . . وهكذا كان ظهور اختها امبارو في البيت مقدمة طيبة لحضورها معها في زيارة اخرى، واستقر في نفسه خاطر يقيني بذلك ظل يراوده حيناً، الى أن سمع صوتها الطفولي عصر يوم لدى باب المعمل الكيميائي، وعندما رفع نظره شعر بقلبه يتجمد حين أبصرها في فستان وردي

وحذاء مرتفع أبيض وأختها امبارو تقول لها :

- لا يمكنك الدخول الى المعمل يا ريميدوس . . انهم يشتغلون . .
لكن أوريليانو لم يدع لها وقتاً للرد، فقد نهض ويده سلسلة تدلت منها سمكة
ذهبية وقال لها :

- تفضلي بالدخول . . .

فدخلت ريميدوس ووجهت اليه بعض الاسئلة عن السمكة الذهبية،
بيد أن لسانه انعقد فجأة عن الرد . . وكل ما استطاع أن يقوله في النهاية هو
أنه سيهديها السمكة الصغيرة، لكن الصبية أجفلت لهذا العرض، وأسرعت
بالانسحاب من المعمل .

في نفس هذا اليوم فقد أوريليانو صبره الدفين وأهمل عمله وراح
يبحث عنها في كل مكان ترتاده ولر في نافذة بيتها، لكن مساعيه ذهبت
سدى، ولم تطالعه صورتها الا في خياله ووحدته الأليمة . . . وأصبح يمضي
ساعات كاملة مع ربيكا يستمعان الى عزف البيانولا . . . هي لأن الموسيقى
تذكرها بالشاب الايطالي بترو كريسي الذي علمها الرقص . . . وأوريليانو
لأن كل شيء ، حتى الموسيقى ، كان يذكره بريميدوس . . .

فأما ربيكا فقد أمرضها طول انتظار الحبيب الذي تأخر عن مواعده،
حتى رقدت طريحة الفراش . . . وكان أوريليانو وحده هو الذي فهم سرها
الحقيقي اذ يكابد تباريح الهوى . . . وفي غمرة حيرته ذهب مع بعض
اصحابه الى مشرب كاتارينو . . . وكان يضم ملحفاً من غرف خشبية تقيم به
نساء وحيدات وتعزف فيه الموسيقى . . . وشرب الرفاق عصير قصب مخمراً
بصحبة النساء . . . وداعبت احداهن وكانت عجفاء مذهبة الاسنان
أوريليانو . . . ولكن مداعبتها جعلته يرتعد حتى صد عنا . . . وما لبث أن
اكتشف انه كلما شرب زاد تفكيره في ريميدوس، وإن صار أقدر على

احتمال عذاب ذكرياته . . . ولم يدر بالضبط متى بدأ رأسه يدور . . . ورأى أصحابه والنساء يسبحون جميعاً في ضياء باهر، دون وزن لهم ولا كتلة مرسلين. كلاماً لا يخرج من أفواههم، ومبدين إشارات خفية لا تتطابق مع كلامهم . . . وعندئذ وضع كاتارينويده على كتفه وقال له :

- الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً . . .

فأدار أوريليانو رأسه، فرأى وجه كاتارينو ضخماً مشوهاً، وقد رشق ورودة صناعية خلف أذنه . . . وعندئذ فقد ذاكرته تماماً . . . ولما استعادها، وجد نفسه في غرفة غريبة عنه، وفيها وقفت بيلار تيرنيرا أمامه بقميص نومها وهي جافية القدمين مرسله الشعر، رافعة مصباحاً فوق رأسه، تبدو عليها إشارات الانزعاج وعدم التصديق، وهتفت : أوريليانو ! . . .

ضبط أوريليانو قدميه ورفع رأسه . . . انه لم يدر كيف جاء الى هنا . . . ولكنه عرف مقصده، وهو مقصد كان مخبوء في داخله منذ الصغر . . . وقد رد عليها قائلاً :

- جئت لأنني أريدك . . .

كانت ملابسه ملطخة بالوحل والقيء، فجعلت تنظفه وهي تغغم قائلة :

- يا طفلي المسكين ! . . .

وعندما أفاق من غمرات نشوته وجد نفسه يبكي . . . فانتظرت المرأة المجربة حتى فرغ من ذلك النحيب الذي هز وجدانه، وقالت له بهلوه :

- من هي ؟ . . .

فأخبرها أوريليانو . . . فأطلقت ضحكة خافتة، وقالت متهمكة :

- لا بد أن تربيها أولاً الى أن تكبر . . .

ولكن من ثنايا الضحكة استشف أوريليانو فهما عميقا . . . وعندما انصرف من غرفتها بعد أن انزاح من صدره ذلك الهم المرير الذي أثقله طيلة الأشهر الماضية، وعدته بيلار تيرنيرا قائلة :

- سأتكلم مع البنية، وستعرف ماذا يمكنني ان أفعل . . .

وقد برت بوعدها . . . ولكنها اختارت وقتا عصيبا . . . إذ كان البيت قد فقد ما كان يرفرف عليه من سكينه في الأيام الماضية . . . ذلك أن أمارانتا عندما اكتشفت سر ريكا العاطفي وكان محالا ان يبقى طي الكتمان، أصيبت هي الأخرى بنوبة حمى نتيجة غرام لا عزاء فيه . . . وأصبحت أورسولا لا تكاد تجد القوة لرعاية الفتاتين العليلتين . . . ولم تستطع رغم طول الاستجواب أن تتحقق من أسباب علة أمارانتا . . . وفي النهاية، وبما يشبه الإلهام، عثرت في صندوق امتعة ريكا على حفنة رسائل بللتها ريكا بدموعها وعطرتها بالورود ولكنها لم ترسلها الى الإيطالي بترو كريسي . . . فلم تتمالك أورسولا وهي تبكي غضباً ان لعنت اليوم الذي بدا لها فيه أن تطلب شراء البيانولا، وأصدرت أمرها بمنع دروس التطايز، وأعلنت لونا من الحداد في البيت الى ان تتبخر آمال الفتاتين . . . ولم تفلح وساطة (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب الذي أعجب ببراعة بترو كريسي في ادارة البيانولا في تخفيف التأزم . . . وهكذا رأى أوريليانو عندما أخبرته بيلار تيرنيرا ان ريميدوس قبلته زوجاً لها أن هذا النبأ سيؤدي الى زيادة متاعب والديه . . . والواقع أن الاب ما كاد يسمع باسم الخطيبة المرشحة حتى احمر وجهه احتياجاً وصاح هادراً :

- الحب مرض . . . ورغم وجود كثير من البنات الجميلات

والمهذبات حوالينا، فالشيء الوحيد الذي يخطر لك هو الزواج من ابنة عدونا . . .

بيد أن أورسولا وافقت على هذا الاختيار، وراحت تغلب في امتداح شمائل بنات القاضي موسكوت السبع، وأطرت سداد رأي ابنها... فلم يجد (جوزيه اركاديو بوينديا) ازاء تحمس زوجته سوى النزول عند رأيها، بشرط واحد، هو أن تتزوج ربيكا بترو كريسي، وان تصحب أورسولا ابنتها امارانتا في رحلة الى عاصمة المقاطعة عندما يسمح الوقت، لكي يؤدي الاختلاط بالناس الى التخفيف من خيبة أملها... ولم تلبث ربيكا أن استردت صحتها حالما علمت بهذا الاتفاق، وسطرت الى خطيبها رسالة حارة بعد موافقة والديها وأرسلتها بالبريد دون حاجة الى وسطاء... وقد تظاهرت امارانتا بقبول القرار، وتمثلت للشفاء من الحمى رويدا رويدا، ولكنها نذرت في نفسها الا يتم زواج ربيكا الا على جثتها.

وفي يوم السبت التالي ارتدى (جوزيه اركاديو بوينديا) احسن ملابسه وذهب لطلب يد ريميديوس موسكوت... فاستقبله القاضي وزوجته بترحاب وقلق معا، اذ لم يكونا يعرفان سبب الزيارة المفاجئة، ثم بدا لهما بعد ذلك أنه ربما كان مخطئاً في اسم العروس المطلوبة... وإزالة لكل لبس ذهبت الأم لإيقاظ ريميديوس من نومها وأتت بها الى غرفة الجلوس وأثار النوم لم تفارقها... وقد سألاها إن كان صحيحاً أنها قررت الزواج، فردت متحبة بأنها لا تريد سوى أن يتركوها تنام... ولما أدرك (جوزيه اركاديو بوينديا) حالة الاضطراب التي بدت له من الابوين، عاد أدراجه لاستجلاء الحقيقة من أوريليانو... وعند رجوعه وجد الابوين قد ارتدبا ملابس رسمية ورتبا الأثاث وغيرا الزهور في أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الأكبر... ورغم إحساس (جوزيه اركاديو بوينديا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هي التي وقع عليها الاختيار حقاً... وعندئذ قال ابولينار موسكوت بلهجة الجزع:

- هذا شيء غير معقول!... عندنا ست بنات اخريات، وكلهن غير

تزوجات، وسنهن تؤهلهن لذلك تماماً، ويشرف كل واحدة منهن ان تكون زوجة لسيد محترم مجد مثل إبنك، ومع ذلك فإن أوريليانو لا يضع نظره الا على البنت التي لا تزال تبلل فراشها . . .

بيد أن زوجته سارعت بالاعتذار عن هفوته . . وبعد أن فرغوا من تناول الفاكهة اعربوا عن قبول قرار أوريليانو عن طيب خاطر، مصحوباً برجاء من الام أن يجتمع مع أورسولا على انفراد . . فلم تمنع أورسولا، وذهبت الى بيت القاضي في اليوم التالي . . وبعد نصف ساعة عادت لكي تقول إن ريميدوس لم تبلغ الحلم بعد . . . بيد أن أوريليانو لم يجد في هذا عائناً خطيراً . . . فقد انتظر أمداً طويلاً، الى حد أنه يستطيع الانتظار الى أن تبلغ عروسه مرحلة القدرة على الإنجاب . . .

ونعود الى امارانتا . . . فقد وجدت أخيراً فرصتها التي كانت تتحينها لمكاشفة الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسي بحبها الدفين، الذي بر بوعده لرييكا وحل بالبلدة حيث افتتح محلاً لبيع الآلات الموسيقية واللعب الميكانيكية في حي التجار الشرقيين . . . والواقع أن الشاب الوسيم الذي كان مرآة يثير تنهدات النساء تلقى اعتراف امارانتا على أنه نزوة عابرة لصبية لا يؤخذ كلامها مأخذ الجد، حتى قال لها :

- لي أخ أصغر . . وسيحضر لمساعدتي في المحل . . .

لقد شعرت امارانتا بالمهانة، وقالت لبetro كريسي في غضب شديد إنها على استعداد لمنع زواج اختها حتى لو كان الثمن هو ارتداء جثتها على الباب . . . والواقع أن الشاب الايطالي تأثر بهذا التهديد الدرامي الى حد أنه لم يستطع مقاومة إغراء ذكر الواقعة لرييكا . . . ونتيجة لهذا فإن رحلة امارانتا التي كانت أورسولا تعمل على تأجيلها تم ترتيب أمرها في أقل من أسبوع . . . ولم تبد امارانتا أية مقاومة، بيد أنها عندما ودعت رييكا مقبلة

همست في أذنها قائلة :

- لا تطلقي العنان لأمالك . . حتى لو ابعدوني إلى أطراف الدنيا، فسوف اجد طريقة لمنع زواجك، حتى لو كان لا بد لي من قتلك . . . وبغياب اورسولا عن البيت، بدا وكأنه خاوع على عروشه . . وقد تكفلت ربيكا بالإشراف على تصريف الشؤون المنزلية، بينما تولت المرأة الهندية اعمال المخبز . . وعندما كان بترو كريسي يأتي لزيارة خطيبته عند الغروب، كانت ربيكا تستقبله في الصالون الرئيسي مع فتح الأبواب والنوافذ دفعا لكل الظنون . . ولم يكن هذا التحوط لازما، لأن الشاب الايطالي كان يسلك مسلك الاحترام في تصرفاته الى حد أنه لم يكن يلمس يد المرأة التي ستغدو زوجته في غضون العام . .

والواقع ان هذه الزيارات ملأت البيت بكثير من اللعب الميكانيكية المتنوعة الاشكال والغريبة التصميمات الى حد أن (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب وجد فيها تسلية كبرى، اذ عاد الى أيامه الاولى في المعمل الكيميائي عاكفاً على فكها وتركيبها لكي يضيف اليها نظاما جديداً يجعلها في حركة دائمة على نسق (بندول) الساعة . . .

وقد امتد التأثير الى أوريليانو الذي أهمل عمله في المشغولات المعدنية وتفرغ لتعليم ريميديوس القراءة والكتابة . . وكانت الصبية تقابل هذا بالنفور أول الامر مفضلة التفرغ لألعابها، بيد أن صبر أوريليانو ومشايرته اكتسبها آخر الامر الى جانبه، حتى أصبحت في النهاية أطوع له من بنانه . .

وكانت ربيكا وحدها هي التي تعاني القلق والتوجس بسبب نقمة أمارانتا عليها وتهديداتها الغريبة . . والتماساً منها لما يخفف معاناتها، فقد سعت الى بيلار تيرنيرا لكي تقرأ لها الطالع . . فتنبأت لها بعد سلسلة من المقدمات التقليدية قائلة :

- لن تعرفي السعادة طالما أن عظام أبويك لم تدفن . .

ارتعدت ربيكا، وقالت :

- لست أفهم . .

فبدت بيلار تيرنيرا غير مبالية وقالت :

- ولا أنا . . ولكن هذا ما تقوله الاوراق . . .

لقد انشغل بال ربيكا واشتد انشغالها بهذا اللغز حتى اطلعت «جوزيه اركاديو بوينديا» على الخبر، فما كان منه إلا أن زجرها لتصديق مثل هذه النبوءات، ولكنه مع ذلك انهمك صامتاً في البحث في كل موضع عن كيس العظام الذي جيء به مع ربيكا وهي بعد طفلة لا تدرك شيئاً . وتذكر أنه لم يره منذ أن اضطلموا بتجديد البيت . فاتفصل بالبنائين، فأخبره احدهم أنه وضع الكيس داخل احد الحوائط، تخلصاً من مضايقة وجوده عشرة في عمليات الترميم والبناء . وبعد أيام من التسمع والدق على الجدران أمكن في النهاية تحديد المكان، ففتحوا الحائط واستخرجوا كيس العظام ودفنوها في نفس اليوم في قبر بلا شاهد . وعاد (جوزيه اركاديو بوينديا) في نفس اليوم وقد انزاح عنه عبء شديد أثقل ضميره، ودخل على ربيكا في المطبخ مبتهجاً وقبلها قائلاً :

- اطردي تلك الأفكار السيئة من رأسك . . سوف تكونين من أهل

السعادة . .

إن الصداقة التي نشأت بين ربيكا وبيلار تيرنيرا قد فتحت لهذه الأخيرة باب البيت الذي أغلقته أورسولا بسبب مولد اركاديو وقبوله في عداد الاسرة كما تقدم . . وهكذا أصبحت تتردد على البيت في أية ساعة وتطلق نساطها المحموم في أشق الاعمال . . وأحياناً كانت تدخل المعمل وتساعد اركاديو

(إبنها) في (تحميض) الصور المطبوعة على المعادن بمقدرة وحنو كانا يثيران ارتباكاً وعجبه من مسلكها حياله . . بل إن أنفاسها عن كذب وضحكاتها الغريبة في الغرفة المظلمة كانت تشتت باله وتنال من ضبطه للعمل . . .

وفي إحدى المناسبات كان أوريليانو في العمل لإتمام بعض المشغولات الفضية ، فاتكأت بيلار تيرنيرا على المنضدة مبدية إعجابها بدأبه وصبره . . وفجأة لمع في خاطره ذلك الوميض الذي ينهى بشيء قريب . . . وقبل أن يرفع عينيه لملاقاة عيني بيلار تيرنيرا استوثق من وجود اركاديو في الغرفة المظلمة للتحميض ، تأجباً لاستقراء الخاطرة التي لمحها في عيني تيرنيرا واضحة كالشمس في رائعة النهار ، ثم سألها :

- حسن . . قولي ما عندك . .

فعضبت بيلار تيرنيرا على شفتها بابتسامة محزنة ، وقالت :

- انك ستكون مبرزاً في الحرب . . اينما تلقي نظرك ، تصيب رصاصتك مقتلاً . .

ارتاح أوريليانو لهذه النبوءة ، وركز من جديد على عمله وكأنه لم يحدث شيء ، ثم قال بصوت مشجع :

- سوف اعترف (به) . . سوف يحمل اسمي . . .

وأخيراً توصل (جوزيه اركاديو بونديا) الى ما كان يبتغيه . . فقد أوصل جهاز الساعة بلعبة راقصة ميكانيكية ، وأخذت اللعبة ترقص بلا انقطاع على ايقاع موسيقاها مدى ثلاثة أيام كاملة . . والواقع أن هذا الاكتشاف اثاره الى ابعد حد حتى كف عن الأكل وعن النوم . . ولولا سهر ربيكا على رعايته لأفضت به تخيلاتهِ الى حالة من الهذيان لا شفاء له منها . . ومع ذلك فقد كان يمضي الليالي وهو يدور في أرجاء غرفته مخاطباً نفسه ، بحثاً عن طريقة

تمكنه من تطبيق نظرية (البندول) على مركبات الثيران وعربات اليد وعلى كل أداة أخرى تغدو ذات نفع اذا وضعت في حالة حركية . .

واستحال عليه النوم بطول الأرق والسهر . . وفي أحد الايام خرج من غرفته والجميع نيام ، وعمد الى عضادة الباب فانتزعها ، وبقوته الهرقلية أخذ يهشم أدوات المعمل الكيميائي وأدوات المسبك وهو يصرخ ويهذي بكلام غير مفهوم . . وكاد ينتقل الى باقي غرف البيت يعمل فيها تهشيماً لولا أن استنجد أوريليانو بالجيران . . فاحتاج الأمر الى عشرة رجال لطرحه أرضاً ، والى أربعة عشر لتقييده ، وعشرين لجره الى شجرة الكستناء في الفناء حيث تركوه مربوطاً بها وهو ينبج بكلامه المبهم ويرسل زبداً أخضر من شذقيه . . وحينما عادت اورسولا واماراتنا من الرحلة كان لا يزال مربوطاً الى جذع شجرة الكستناء من قدميه ويديه ، غارقاً في المطر ، وفي حالة شرود تام . . ولما كلمته نظر اليهما دون أن يعرفهما ويقول اشياء لم تفهما منها شيئاً . . ولكن اورسولا فكت قيد معصميه وكاحليه التي تسلخت من ضغط الحبال ، وتركته مربوطاً من وسطه فقط . . وفي ما بعد أقاموا له وقاء من سعف النخل لكي يحميه من الشمس والمطر . . .

الفصل الخامس

عقد زواج أوريليانو بوينديا وريميديوس موسكوت يوم أحد من شهر مارس أمام الهيكل الذي اقامه الاب (نيكانور رينا) في قاعة الاستقبال بالبيت الكبير . . . وقد بذلت أسرة العروس جهوداً مضنية في نقلها من المرحلة الصبيانية وسلوكياتها اللامسؤولة الى مرحلة النضج والاتزان وتقدير الحياة الزوجية . . . ومنذ ذلك اليوم كان إحساسها بالمسؤولية باهراً ، كما تجلى ذلك في الظروف العصيبة التي طرأت في المستقبل . . . وعلى سبيل المثال فهي التي تطوعت من تلقاء نفسها باقتطاع قطعة كبيرة من (تورتيه الزفاف) وحملتها في طبق مع شوكية الى (جوزية اركاديو بوينديا) . . . وقد تلقى العجوز المربوط في جذع شجرة الكستناء والمكوم فوق مقعد خشبي صغير في مأواه المؤلف من سعف النخل والذي سفعت وجهه الأمطار وأشعة الشمس تلقى هذه الهدية بابتسامة امتنان شاردة وأكل القطعة بأصابعه وهو يهمهم بكلام غير مبين ولا مفهوم . . . وكان الشخص المتعجب الوحيد في ذلك الحفل هو ريبكا المنكودة . . . فقد كان مقررأ بترتيب من أورسولا أن يعقد زواجها هي أيضاً في نفس اليوم . . . ولكن حدث قبله بيومين ان تلقى بترو كريسي رسالة تنبئه بأن أمه في حالة احتضار . . . وهكذا أجل زواجهما بعد أن اضطر بترو للسفر الى عاصمة المقاطعة بعد ساعة من تلقى الرسالة . . . وكانت المفاجأة أن أمه وصلت ليلة زفاف أوريليانو وريميديوس وغنت في الحفل اغنية كانت أعدها لزفاف ولدها . . . ولما عاد بترو كرسبي مسرعاً بعد رحلة شاقة كان الحفل قد انقضى ولم يعرف قط من هو كاتب تلك الرسالة . . . نعم إن أورسولا حملت على امارانتا حملة شعواء ، ولكن هذه بكت وأقسمت على براءتها أمام الهيكل المؤقت ! . . .

ومهما يكن فإن هذا الزفاف كان حافزاً لـ «الاب نيكانور رينا» على التفكير في بناء كنيسة خاصة للبلدة لإتمام الطقوس الدينية على وجهها الكامل . . ولم يمض وقت طويل حتى جمعت التبرعات من أهل البلدة وبدى في اقامة المبنى . . . وبينما كان الاب نيكانور يتناول الغداء ذات يوم في بيت الاسرة وهو يحدثهم عما ستكون عليه حفلات الزفاف المقبلة من الروعة والقداسة في الكنيسة الجديدة، اذ قالت امارانتا :

- إن العروس التي سوف تسعد بهذا هي ربيكا . .

ولما لم تفهم ربيكا ما تعنيه، شرحت امارانتا مرادها بابتسامة بريئة قائلة :

- سوف تكونين أنت العروس التي يقام أول حفل زفاف في الكنيسة لها . .

حاولت ربيكا أن تتجاهل هذا النذير . . فإن معدل العمل الحالي في بناء الكنيسة سوف يستغرق عشر سنوات على الأقل بسبب عدم كثرة التبرعات . . ولكن اورسولا التي فطنت الى خبث نوايا امارانتا تبرعت بمبلغ كبير للإسراع في عمليات البناء، مما جعل الاب نيكانور يقدر أنه بمثل هذه التبرعات يمكن اختصار المدة الى ثلاث سنوات . . ومنذ هذه الجلسة اعرضت ربيكا عن امارانتا بعد أن تجلى لها سوء طويتها . . وفي المشاحنة الحامية التي جرت بين الاثنتين في تلك الليلة قالت لها امارانتا :

- هذا أقل شيء كان يمكن أن أوعز به . . فبتأثير ابحاثي لن اضطر الى قتلك قبل ثلاث سنوات ! . .

ولكن ربيكا قبلت التحدي وأضمرت في نفسها امورا . . فعندما رأت ما انتاب بـ «كريسبي» من خيبة الأمل بسبب هذا التأجيل الجديد بادرت قائلة :

- يمكننا ان نهرب معاً في أي وقت نشاء . .

بيد أن بترو كريسي كان ينقصه عنصر المجازفة الذي انطوى عليه طبع خطيبته، وقال إن الاحترام يمنعه من خيانة الثقة التي وضعتها الاسرة فيه . .

وهكذا فكرت ربيكا في وسائل أجراً . .

ف ذات ليلة هبت ريح خفيفة أطفأت أنوار البيت، وفاجأت أورسولا العاشقين يتبادلان القبلات في الظلام . . .

وفي مناسبة أخرى نفذ الوقود من المصابيح وفاجأتها أورسولا متعانقين . .

وعندئذ لم تجد أورسولا بداً من التخلي عن واجباتها المنزلية للمرأة الهندية وأخذت تجلس في كرسيها الهزاز عن كذب من الخطيبين اثناء الزيارات التي يقوم بها بترو كريسي، حتى لم تتمالك ربيكا أن قالت منتهكة من شدة الغيظ :

- مسكينة امي . . عندما تموت ستذهب الى الآخرة وهي في هذا الكرسي ! . .

وبعد ثلاثة اشهر من هذا الحب تحت الحراسة، وبعد أن تعب بترو كريسي من استمرار البطء في بناء الكنيسة، قرر أن يذهب الى الاب نيكانور ويقدم له المال الذي ينقصه لإتمام هذه العملية . .

بيد أن امارانتا لم تفقد صبرها، وأخذت تفكر في مكائد اخرى لتأخير زواج غريمتهما قدر ما تستطيع . . فقد عملت نجلسة على رفع (النفثالين) من فستان الزفاف، وكان ذلك قبل شهرين من اتمام بناء الكنيسة . . وكانت ربيكا

قد زادت لهفتها باقتراب موعد الزفاف وبدا لها أن تجرب الفستان، وشد ما كان ارتياحها عندما وجدته مثقوباً بفعل العث بحيث لا يصلح لهذه المناسبة الكبرى. . . ومع أنها كانت واثقة أنها وضعت (النفثالين) بيديها، إلا أنها لم نجسر على إلقاء التبعة على امارانتا. . . ذلك ولم يبق سوى شهر واحد على موعد الزفاف. . . ولكن امارو موسكوت وعدت أن تخطط لها ثوباً جديداً في مدى اسبوع. . . وعندما جاءت امارو بالثوب لتجربته على العروس، شعرت امارانتا بآس مطبق، وأضمرت في نفسها أن تنفذ وعيدها يوم الجمعة الأخير قبل الزفاف، بدس جرعة من السم في القهوة التي ستقدم إلى ربيكا. . .

ورغم هذا كله فقد جدت عقبة لم تكن في الحسبان أدت إلى إرجاء هذا الزفاف المنكود إلى أجل غير مسمى. . . فقبل اسبوع من موعد الزفاف استيقظت ريميدوس الصغيرة في منتصف الليل غارقة في دمها إثر نزيف حاد في أحشائها، وقضت المسكينة نحبها بعد ثلاثة أيام، مع جنين لتوأمين. . .

كانت الفجيرة شديدة الوقع في نفوس أفراد الأسرة، لما استأثرت به العروس الفتية المنكودة من محبة الجميع، وأما أشدهم تفجعاً فكان زوجها أوريليانو الذي أحبها منذ اللحظة الأولى حباً يقرب من العبادة، وربكا السيئة الحظ التي حطم هذا المصاب الجلل كل أمل لديها في اتمام الزفاف في مواعده المحدد، بل في أي موعد آخر خصوصاً بعد أن أعلنت أورسولا الحداد في البيت كله على نحو صارم لا هوادة فيه. . . لقد بلغ اليأس من نفس ربيكا مداه، حتى عادت إلى بلواها السابقة، تأكل تراب الأرض من جديد

ثم فجأة - عندما طالت فترة الحداد إلى مدى بعيد وبدأت نساء الأسرة موسم التطريز التالي - دفع أحدهم باب البيت الخارجي في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشتد الحر دفعة عنيفة رجّت البيت من أساسه، حتى

لقد ظنت امارانتا وهي تشتغل مع صاحباتها لدى المدخل ، وظنت ربيكا وهي تمتص
أصبعها كمعادتها القديمة كلما استبد بها اليأس ، وظن أوريليانو وهو عاكف في مسبك
المعادن ، بل ظن (جوزيه اركاديو بوينديا) ذاته أن زلزالا حدث ويوشك أن يقوض
البيت . . .

لقد وصل رجل ضخم كالمارد . . لا يكاد منكباه العريضان ينفذان من
المدخل . . . وكانت تتدلى من عنقه ايقونة . . . وبدا ذراعاه وصدره مكسورين تماماً
بالوشم . . . وكانت بشرته مصبوغة بملح الهواء السطوق ، وشعره قصيراً ورأسياً مثل
معرفة بغل ، وفكاه من حديد ، وعلى شفته ابتسامة محزونة . . . وكان يتمنطق بحزام
غليظ ، ويلبس حذاء (بتزلك) ومهماز ، وحديد في العقبين . . . كان مشهده كله
يوحي بزلزال متحرك . . .

واجتاز قاعة الاستقبال وحجرة الجلوس حاملاً خرج الدابة البالي بيده ، وبدا
لأعين امارانتا وصواحبها كقصف الرعد حتى جمدت مشدوهات رافعات ابر التطريز
في الهواء ؛ ولكنه ألقى الخرج فوق طاولة قريبة دون أن يزيد على كلمة (هالو) قالها
بلهجة المكودو ، وكرر مثلها لربيكا التي انتفضت لدى مروره ببابها ، ولأوريليانو
المستغرق بكل حواسه في المسبك . . . لكنه لم يعرج على أحد منهم ، بل تقدم الى
المطبخ رأساً حيث توقف لأول مرة في نهاية رحلة بدأت من طرف العالم الآخر . . .
وعندما كرر كلمة (هالو) وقفت اورسولا مدى ثانية وهي فاغرة الفم ، ونظرت في
عينيه ، وإذا صرخة تبدر منها ، ثم إذا هي تقذف بذراعيها حول عنقه صارخة باكية
من الفرح . . .

كان ابنها البكر جوزيه اركاديو . . . ولقد عاد اليها فقيراً مفلساً كما ارتحل عنها ،
الى حد انها اضطرت الى اعطائه قيمة أجر حصانه . . . وكان يتكلم لغة اسبانية
خالطتها لهجة بحارة عامية . . . وقد سأله أين كان ، فرد بقوله : « في
الخارج » . . .

وقد علق أرجوحه نومه في الغرفة التي أفردوها له ، ونام ثلاثة أيام . . .
وعندما استيقظ أكل ست عشرة بيضة نيئة . وذهب مباشرة الى حانة كاتارينو ،
حيث أثار هيكله الضخم روع النساء ممزوجاً بالفضول . . . ثم طلب موسيقى
وأمر بشراب القصب المخمر للجميع على حسابه . . . ولما عرض مصارعة
خمسة رجال معاً على الطريقة الهندية قالوا له ان هذا غير ممكن . . . وعندئذ
انبرى له كاتارينو الذي لم يكن يؤمن بالشعوذة في ألعاب القوى وراهنه على
اثني عشر بيزو اذا استطاع تحريك منصة الشراب من موضعها . . . واذا
جوزيه اركاديو يرفع المنصة فوق رأسه ويضعها في الشارع . . . وتطلب الأمر
أحد عشر رجلاً لإعادتها الى مكانها . . . ولما ألقى نساء الحانة يحاصرنه
حصاراً لا مهرب منه ، قدم نفسه لهن في مزاد علني ، فلم يترددن في
الدفع . . .

على هذه الصورة اصبح يكسب قوت يومه . . . لقد طاف حول العالم
خمساً وستين مرة ، في زمرة بحارة ممن لا وطن لهم . . . وفي ليلته الاولى
تلك ونساء حانة كاتارينو ، اخرجنه عارياً الى صالة الرقص ، لكي يرى الناس
انه ليس في جسده بوصة مربعة واحدة خلت من الوشم ، أماماً وخلفاً . ومن
عنقه الى أصابع قدميه . . .

ولم يفلح في أن يدمج نفسه في حياة الأسرة . . . كان ينام
طول بهاره ، ويقضي الليل في الحي الذي يعلوه الضوء الأحمر ،
مراهنأ على قوته بمختلف الصور . . . وفي المناسبات النادرة التي استطاعت
فيها اورسولا حمله على الجلوس معهم الى مائدة الطعام ، كان يتصنع
التبسط والفكاهة ، ولا سيما في حديثه عن مغامراته في البلاد النائية . . . فقد
تحطمت به السفينة مرة في بحر اليابان وقضى أسبوعين تتقاذفه الامواج بين
الحطام ، فكان يأكل لحم رفيق له مات بضربة شمس ، فوجد لحمه المالح
جداً بعد انضاج الشمس له لذيذاً شهياً ! . . . وفي مرة اخرى قتلت سفينته في

بحر البنغال وحشاً بحرياً هائلاً ، فعثروا في معدته على خوذة واسلحة وحزام محارب من العصور الماضية . . . وكانت اورسولا تسمع هذا والكثير من مثله وهي تبكي ، كما لو كانت تقرأ الرسائل التي لم تصل ابداً والتي كان جوزيه اركاديو يحدثها فيها عن فعالة ومغامرته ومأزق اسفاره . . . وفي ذلك كانت تقول هنا كان بيع واسع ينتظرك يا ولدي ، وطعام كثير كان يرمي الخنازير ولكن من وراء هذا كله لم تكن تتصور ان ابنها الذي اصطلحه « الفجر » ومعهم هو نفسه هذا الشاب الخليع الرقيق ، الذي يأكل نصف خنزير صغير في غدائه والذي كانت غازات بطنه تبدل الأزهار ولم تكن امارتنا تستطيع إخفاء اشمئزازها لدى المائدة وهي تسراه يتجشأ بهذه الصورة الحيوانية . . . وكان اركاديو الذي تكتمت الأسرة سر علاقة الابوة والنبوة بينهما لا يكاد يرد على الأسئلة التي كان يوجهها اليه اكتساب لمودته . . . وحاول اخوه اوريليانو ان يتبعث ذكرى العهد الخوالي حين كانا ينامان في غرفة واحدة وأحاديث الطفولة وفعالها المتواطئة لكن جوزيه اركاديو نمت كل هذا ، لأن الحياة في عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز الاستيعاب والذاكرة . .

الاربيكا وحدها التي انهارت تحت تأثيره منذ اللحظة الاولى . . .

فمنذ اليوم الذي شاهدته يمر فيه بباب غرفة نومها ، بدا لها بترو كريسي مثل قطعة حلوى مزخرفة بالقياس الى هذا الفحل الذي كان تنفسه البركاني يتردد صدها في كل ارجاء البيت . . . وذهبت تحاول الإقتراب متحلة اي عذراً . . وفي احدى المناسبات قطع جوزيه اركاديو الى جسدها باهتمام وقح وقال لها (أنت امرأة فتاتي الصغيرة . . وهنا فقدت كل ما في السيطرة على نفسها وفي مخذعها عادت تأكل من تراب الأرض ومصيص الحوائط بتراة الأيام السالفة وامضت ليالي ساهرة مسهدة ترتعد من الحمى وهي تنتظر حتى يهتز البيت بعودة جوزيه اركاديو في الفجر .

وفي أصيل يوم والكل نيام وقت القيلولة، لم تستطع مغالبة نفسها،
وقصدت الى غرفة نومه... فوجدته مستلقياً في الأرجوحة التي علقها في
العوارض الخشبية بحبال سفينة... ولقد اشتد تأثرها بجسامة الوشم الذي
يكسو كل جسده العاري الى حد أنها فكرت في التراجع، قائلة :
«معذرة... لم أكن اعرف أنك هنا»... ولكنه قال لها : «تعالى»...
فأطاعت... ووقفت قرب الأرجوحة وقد شعرت بالعرق البارد يغمرها...
أما هو فقد راح يربت عليها قائلاً : «آه يا صغيرتي... ستكونين
زوجتي !»...

وبعد ثلاثة أيام عقد زواجهما... وفي اليوم السابق ذهب جوزيه
اركاديو الى محل بترو كريسي حيث وجده يلقي درساً في الموسيقى، فلم
ينتج به جانباً وإنما قال له :
- سأزوج ربيكا...

لقد امتنع ونجّه الشاب الايطالي، وبادر بصرف تلاميذه، وما أن صارا
وحدهما في الحجرة المكتظة بالادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية حتى
قال له :

- إنها أختك...

فرد جوزيه اركاديو قائلاً :

- لا بهمني...

فجفف بترو كريسي جبينه بالمنديل الذي كان مبللاً بالعطر، وقال له :
- ولكن هذا ضد الطبيعة... والى جانب ذلك فهو ضد القانون...

تضجر جوزيه اركاديو، لا من مجادلة بترو كريسي، ولكن لما بدا من
شحوبه، وقال :

- كل هذا لا قيمة له عندي . . . وما جئت الا لأقول لك أن تبتعد عن طريق ربيكا . . .

ومع ذلك فإن فظاظته تحطمت عندما رأى عيني بترو كريسي تتنديان، وقال له بلهجة مختلفة :

- والآن، اذا كنت تحب العائلة حقيقة، فأمامك امارانتا . . .

لقد كشف الاب نيكانور في عظة يوم الاحد أن جوزيه اركاديو ورييكا ليسا أخاً وأختاً . . . بيد أن اورسولا لم تغتفر قط ما عدته انتهاكا لواجب الحشمة في الاسرة، وعندما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة حرمت عليهما دخول البيت، وعدتهما من الأموات . . . وهكذا استأجرا بيتاً في ما وراء المدافن وأقاما به دون ان يكون فيه من الأثاث أكثر من أرجوحة نوم جوزيه اركاديو . . . وفي ليلة الزفاف تسلل عقرب الى (ششب) ربيكا ولدغ قدمها، حتى تورم لسانها . . . غير أن هذا لم يمنع أن يستمتعا بشهر غسل صاحب ترامت أصداؤه الى الجيران الذين اشفقوا أن تقض مضاجع الموتى في قبورهم . . .

وكان اوريليانو هو الوحيد الذي اقلقه حال العروسين . . . فابتاع لهما بعض الأثاث وأعطاهما بعض المال الى أن ارتد اخوه جوزيه اركاديو الى عالم الواقع وأخذ يعمل في اصلاح رقعة الارض المجاورة لفناء البيت لزراعتها . . . أما امارانتا فلم تبرا قط من حقدما على ربيكا، رغم ان الظروف أتاحت لها ترضية لم تكن تحلم بها . . . ولكن اورسولا سعت الى إزالة ما لحق بالاسرة من مهانة بمسلك جوزيه اركاديو ورييكا، وفي هذا اخذت ترحب بالشاب الايطالي بترو كريسي في زيارته للاسرة التي واظب عليها مودة منه واستجابة لطبعه الدمث . . . وهكذا توطدت الأواصر بينه وبين امارانتا . . . ومع أنه كان يعاملها من قبل كطفلة، إلا أن الأيام كشفت في

طباعها أشياء محببة ، وهكذا فاجأها ذات يوم بطلب يدها زوجة له . . . أما هي فلم تتوقف عن التطريز الذي كانت آخذة به ، وانتظرت برهة الى أن زالت الحمرة التي صبغت اذنيها ، وقالت وقد أكسبت صوتها رنة النضج :

- طبعا يا كريسي . . . ولكن بعد ان يعرف أحدنا الآخر أكثر . . . ليس من الخير ابدأ ان يتسرع الانسان في مثل هذه المسائل . . .

والواقع أن هذا اربك اورسولا . . . فعلى الرغم من التقدير الذي كانت تكنه للشاب الايطالي ، الا أنها لم تستطع ان تجزم إن كان هذا القرار طيباً او سيئاً من الناحية الأدبية بسبب الخطبة الطويلة المشهورة بينه وبين ربيكا . . . ولكن اوريليانو الذي أصبح رب الاسرة زاد من ارتباكها برأيه الفاصل الغامض عندما قال لها :

- ليست هذه الاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج ! . . .

إن هذا الرأي الذي لم تفهمه اورسولا الا بعد مضي بعض الاشهر، كان هو الرأي الوحيد الصادق الذي كان بوسع اوريليانو أن يديه في تلك الآونة، ليس فقط بالنسبة للزواج، ولكن بالنسبة لأي شيء لا يتصل بالحرب . . . إنه هو نفسه، وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، لم يستطع ان يفهم حق الفهم ذلك الترابط الغريب لسلسلة الأحداث الرهيبة الغامضة التي أفضت به الى هذا الموقف . . . ان وفاة ريميديوس لم يولد في نفسه ذلك اليأس الذي كان يخافه . . . كان شعوره أقرب الى تبلد حسي غاضب استحال تدريجياً الى لون من الإحباط شبيه بما كان يطبع شعوره وهو مستسلم لحياته كإنسان يعيش بغير امرأة . . . وقد عاد الى الاستغراق في عمله من جديد، بيد أنه حافظ على عاداته في التردد على بيت صهره القاضي دون أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو» . . . وفي هذا البيت الذي كان يلفه

الحداد؛ تكفل الحديث الليلي بدعم أواصر الصداقة بين الرجلين . . . وذات مرة قال له صهره :

- تزوج مرة ثانية يا أوريليانو. . . عندي ست بنات، لك أن تختار احدهن. . .

وفي احدى المناسبات، قرب اجراء الانتخابات العامة، عاد دون أبو لينار موسكوت من احدى رحلاته المتكررة الى عاصمة الإقليم يساوره القلق بصدد الموقف السياسي في البلاد. . . فإن الليبراليين المعارضين للحكومة كانوا مصممين على محاربتها. . . ولما كان أوريليانو في ذلك الحين ليست لديه سوى افكار مشوشة عن الفوارق بين الليبراليين والمحافظين، فقد تكفل صهره بتوضيح ما غمض عليه من هذه الناحية، خصوصاً تمسك حكومة المحافظين بالحفاظ على سلطة الدولة والوحدة الوطنية ودعم روابط الدين والاسرة ومناهضة تقسيم البلاد الى كيانات ذاتية الحكم. . . ولكن مهما يكن من تعاطف أوريليانو مع الليبراليين في بعض النواحي الانسانية مثل الاعتراف بحقوق الاطفال الطبيعية، فإنه لم يفهم قط كيف يتطرف بعض الناس الى حد اشهار الحرب الاهلية بسبب معتقدات قابلة للصواب والخطأ. . . ومن هذا القبيل بدا له انها مبالغة من صهره أن يسعى الى استقدام ستة جنود مسلحين بالبنادق تحت امرة رئيس لهم في مناسبة اجراء الانتخابات. . . وقد قام الجنود فور حضورهم بالطواف ببيوت البلدة بيتاً بيتاً يصادرون كل ما بها من أسلحة صيد ومحشيات زراعة، حتى سكاكين المطابح، ويوزعون على الذكور فوق الحادية والعشرين بطاقات بأسماء المرشحين، زرقاء للمحافظين وحمراء لليبراليين. . .

وبعد اجراء الانتخابات وفوز المحافظين لجأ الليبراليون بعد ما شاع من تزوير نتائج الانتخابات الى التطرف، الى حد أنهم قرروا اغتيال دون أبولينار وبناته الست فيمن دبروا اغتيالهم من أعوان المحافظين. . . وعندما نمي هذا

التدبير الى اوريليانو الذي كان حتى ذلك الحين يقف موقف الحياد دون أن ينحاز الى احد الفريقين، ثارت ثائرتة، وواجه زعيم المتآمرين قائلاً : «لا أنت ليبرالي ولا أي شيء... ما أنت الا جزار!...»

وعلى الأثر لزم اوريليانو بيت دون موسكوت كل ليلة... وقد رأى المتآمرون من عزمه ما جعلهم يرجئون تنفيذ المؤامرة الى أجل غير مسمى..

كانت هذه هي الظروف التي جاءت فيها أورسولا تسأله الرأي في زواج بترو كريسي واماراتا، والتي رد فيها بقوله إنه ليست هذه بالاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج... وقد ظل مدى اسبوع يحمل طبنجة عتيقة تحت قميصه وهو لا يغفل عن مراقبة حركات الليبراليين وفيهم كثير من اصحابه... وكان يذهب في فترات الظهر لشرب القهوة مع اخيه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، اللذين بدأ ينظمان بينهما.. فاذا كانت الساعة السابعة قصد الى دار صهره للعب «الدومينو» في الظاهر والسهر على سلامته في الواقع... أما وقت الغداء فكان يذهب الى اركاديو في المدرسة التي اختار أن يقيمها لتعليم الصغار، والكبار، وكان قد ترعرع وأصبح فتى قوياً مثل أبيه جوزيه اركاديو، ولكن اوريليانو وجده متحمساً للحرب الاهلية التي كانت نذرها تلوح في الأفق، بعد أن أعدته حمى الليبرالية... وعندئذ عمل اوريليانو على تهدئته والحد من تطرفه، وأوصاه بالتزام جانب الحكمة والاتزان، وإن كان ابن الأخ هذا قد تمادى في اندفاعه الى حد أنه غير اوريليانو علناً ذات مرة بالضعف والاستكانة...

وفي النهاية، وفي بداية شهر ديسمبر، اندفعت أورسولا الى داخل مسبك المعادن حيث كان اوريليانو منهمكا في العمل، صائحة :
- لقد بدأت الحرب!

والواقع ان الحرب بدأت قبل ذلك بثلاثة اشهر... فقد أعلنت

الاحكام العرفية في البلاد كلها . . . وكان الشخص الوحيد الذي عرف بأمرها مباشرة في البلدة هو دون ابولينار موسكوت، بيد أنه لم يبلغ النبأ حتى لزوجته بينما كانت السرية التي كان عليها ان تحتل البلدة مباغثة في طريقها لتنفيذ هذه المهمة . . . وفعلا دخلت السرية البلدة في سكون قبل الفجر، مصحوبة بقطعتين من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال، واتخذت مقرها في المدرسة . . . وفي الساعة السادسة مساء أعلن حظر التجول . . . وقد قاموا بتفتيش صارم من بيت الى بيت، مصادرين حتى أدوات الزراعة . . . وقبضوا على زعيم المؤامرة وربطوه في شجرة في الميدان وأعدموه رميا بالرصاص . . . وحاول الاب نيكاتور أن يتدخل، ولكن أحد الجنود شج رأسه بكعب بندقيته . . . وهكذا اخمدت النزعة الليبرالية في البلدة بهذا الارهاب . . . ومضى أوريليانو في انطوائه وغموضه يلعب (الدومينو) مع صهره، وقد ادرك أنه على الرغم من صفته الرسمية كزعيم مدني وعسكري للبلدة، الا أنه أصبح مجرد واجهة، بعد أن صارت القرارات في يد قائد السرية، الذي درج كل صباح على جباية ضريبة غير عادية للدفاع عن الامن العام . . . وقام أربعة جنود تحت امرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور من احضان اسرتها وقتلوا بكعوب بنادقهم . . . وبعد مضي اربعة أسابيع على الاحتلال ذهب أوريليانو يوم أحد الى دار صديقه جيريلدو ماركيز وكان من أبرز الليبراليين، وفاجأه بعد شرب القهوة بلهجة أمرة لم تعهد فيه من قبل، قائلاً :

- إجمع الفتيان واستعدوا . . . سندخل الحرب . . .

لم يصدقه جيريلدو ماركيز، وقال له :

- وبأية اسلحة ؟ . .

فأجاب أوريليانو :

- بأسلحتهم . . .

وفي يوم الثلاثاء عند منتصف الليل، وبعملية جنونية، باغت واحد وعشرون رجلاً دون سن الثلاثين وبقيادة أوريليانو بوينديا وهم مسلحون بسكاكين المطبخ والادوات الحادة... باغتوا أفراد الحامية، وانتزعوا أسلحتهم، وفي الفناء أعدموا قائدهم مع الجنود الأربعة الذين قتلوا المرأة...

وفي نفس الليلة، بينما كان صوت فريق الرماة بالرصاص يتردد، عين أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً للبلدة... ولم يكن المتزوجون من المتمردين يجدون وقتاً لتوديع زوجاتهم وتركهن لتدبير شؤونهن وحدهن... ثم ارتحلوا في الفجر مشيعين بالهتاف من أهل البلدة بعد أن خلصوهم من الإرهاب، لكي ينضموا إلى قوات القائد الثوري فكتوريو مدينا، الذي تواتر أنه في طريقه إلى مدينة مانور... وقبل الرحيل أخرج أوريليانو القاضي دون أبولينار موسكوت من داخل دولاب الملابس وقال له :

- لك أن تطمئن يا صهري... أن الحكومة الجديدة تضمن بشرفها سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك...

لقد كاد يتعذر على دون أبولينار موسكوت أن يتعرف في هذا المتآمر ذي الحذاء العالي والبندقية المعلقة على كتفه ذلك الشاب الذي كان يلاعبه «الدومينو» حتى الساعة التاسعة كل ليلة، ولم يتمالك أن هتف باسم التذلي الذي كان يناديه به :

- هذا جنون، يا أوريليتو!...

فرد عليه أوريليانو قائلاً :

- ليس جنوناً... إنها الحرب... ولا تنادني باسم أوريليتو بعد ذلك... أنا الآن الكولونيل أوريليانو بوينديا...

الفصل السادس

نظم الكولونيل اوريليانو بوينديا اثنين وثلاثين تمرداً مسلحاً وخسرهما جميعاً . . . وقد انجب سبعة عشر طفلاً من سبع عشرة امرأة، ولكنهم هلكوا جميعاً واحداً بعد الآخر في ليلة واحدة قبل أن يبلغ اكبرهم سن الخامسة والثلاثين . . . واستهدف لأربع عشرة محاولة لاغتياله، وثلاثة وسبعين كميناً، ومرة لإعدامه بالرصاص أمام فريق الرماة . . . ولكنه نجا منها جميعاً . . . كما نجا من الموت بجرعة من السم تكفي لقتل جواد . . . وقد رفض قبول وسام الجدارة الذي انعمت به عليه الدولة بعد الحرب الاهلية . . . وارتقى الى مرتبة القائد العام لقوات المتمردين، مع تقلده سلطات التشريع والقيادة، حتى غدا أكثر رجل تخشاه حكومة المحافظين . . . بيد أنه لم يسمح قط بأخذ صورته الفوتوغرافية . . . ورفض قبول المعاش لمدى الحياة الذي قدم له بعد الحرب . . . والى أن أدركته الشيخوخة كان يكسب قوته اليومي من تماثيل الاسماك المذهبة الصغيرة التي كان يصنعها في معمله ببلدة ماكوندو . . . وعلى الرغم من أنه كان يقاتل دائماً على رأس رجاله، فإن الجرح الوحيد الذي تلقاه كان الجرح الذي أصاب نفسه به بعد توقيع (معاهدة نيرلانديا) التي وضعت نهاية لقرابة عشرين سنة من الحرب الاهلية . . . فقد اطلق رصاصة على صدره من طبنجة، وخرجت الرصاصة من ظهره دون أن تعطب أي عضو من أعضائه الحيوية . . . وكان الاثر الوحيد الذي بقي من كل هذا هو اطلاق اسمه على شارع ببلدة ماكوندو . . . ومع ذلك، وطبقاً لما صرح به قبل سنوات قلائل من وفاته بالشيخوخة، فإنه لم يكن يتوقع أي شيء من هذا كله، في فجر ذلك اليوم الذي خرج فيه مع رجاله الواحد والعشرين

للاضمام الى قوات الجنرال فكتوريو مدينا . .

كان كل ما قاله لابن اخيه اركاديو عند الرحيل :

- إننا نترك ماكوندو تحت رعايتكم . . إننا نتركها في خير حال . . .
فلتحاول أن تجعلها في أحسن حال عندما نعود . .

لقد ترجم اركاديو هذه الوصية ترجمة ذاتية منبعثة من شخصه . . . فقد ابتكر كسوة مارشال مزخرفة، وتمنطق بحزام عريض تدلى منه سيف ذو خصلات ذهبية كان يحمله قائد السرية الذي أعدموه . . . ونصب قطعتي المدفعية عند مدخل البلدة، وألبس تلاميذه السابقين كسى عسكرية. اولئك الذين ألهب خيالهم بتصريحاته النارية، وجعلهم يجولون في الشوارع مسلحين لكي يوحوا الى الغرباء بمنعتهم . . . وكان هذا التمويه سلاحاً ذا حدين، لأن الحكومة، لم تجسر على مهاجمة البلدة مدى عشرة اشهر، ولكنها عندما فعلت اطلقت عليهم قوة كبرى جائحة تكفلت بتصفية المقاومة في خلال نصف ساعة . . . ومنذ اليوم الاول لحكم اركاديو، كشف عن هيامه بإصدار الاوامر العسكرية المتلاحقة، التي كانت تصل الى اربعة في اليوم الواحد وتتناول كل ما يطراً على باله . . . ومن ذلك أنه فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الرجال فوق سن الثامنة عشرة، وأعلن الاستيلاء على الحيوانات التي تمشي في الشوارع بعد السادسة مساء واعتبارها من الممتلكات العامة، وأمر أن يضع الرجال المسنون اشرطة حمراء حول اذرعهم . . . وفرض الحراسة على الاب نيكانور في بيت الابرشية وحظر اقامة القسداً ودق الأجراس الا اذا كانت من أجل اعلان انتصار لليبراليين . . . وأول الأمر لم يأخذ أحد أوامره مأخذ الجد، واعتبر الناس هذا من قبيل لعب تلامذة مدارس يتقمصون دور الكبار . . . ولكن حدث ذات ليلة عندما ذهب اركاديو الى حانة كاتارينو ان حياه «نافخ البروجي» وكان بين

الموجودين بنفخ بوقه مما جعل رواد الحانة يضجون بالضحك، فأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص بتهمة الإخلال بواجب الاحترام للسلطات . . . وكانت اورسولا في كل مرة تسمع فيها بعمل من أعماله التعسفية تصرخ في وجهه قائلة :

- يا قاتل ! يا سفاك ! . . . عندما يعرف اوريليانو سوف يرميك بالرصاص، وسأكون أول من يفرح بذلك ! . . .

ولكن اركاديو تمادى في أعمال القمع حتى غدا أفسى حاكم عرفته ماكوندو . . . وفي هذا قال دون ابولينار موسكوت ذات مرة :

- فلندعهم الان يعرفون الفرق ويتحملون ! . . . هذا هو الفردوس الليبرالي ! . . .

وعندما ترامى هذا الكلام الى سمع اركاديو قام على رأس قوة من رجاله بمهاجمة البيت حيث دمروا اثاثه وجلدوا بناته وسحبوا دون ابولينار موسكوت الى خارج البيت . . .

ولما اندفعت اورسولا الى مقر القيادة بعد أن طافت بالبلدة تندد بهذا العار وتلوح في غضبتها بكرباج ملطخ بالقار، وجدت اركاديو ذاته في فناء المبنى يستعد لإصدار الأمر الى فريق الرماة بإطلاق النار، فصرخت قائلة :

- إنني اتحداك يا ابن الزنا ! . . .

وقبل أن يجد اركاديو وقتاً لرد الفعل هوت عليه بأول ضربة من السوط صارخة :

- إنني اتحداك يا قاتل ! . . . اقتلني أنا ايضاً، يا ابن المرأة الموبوءة ! . . . بهذه الطريقة لن تبقى لي عينا أبكي بهما معرفتي لأنني ربيت وحشاً ! . . .

وجعلت تجلده بلا رحمة وتطارده الى خلف الفناء حيث انكمش
اركاديو على نفسه مثل قوقعة . . . وكان دون ابولينار موسكوت مقيداً الى
عمود مغمى عليه . . . وفي هذه الاثناء تفرق فتيان فريق الرماة خوفاً من أن
تحمل عليهم أورسولا ايضاً . . . بيد أنها لم تكلف نفسها حتى عناء النظر
اليهم ، وتركت اركاديو ممزق الكسوة وهو يضج بالألم محنقاً ، وفكت رباط
دون ابولينار موسكوت وصحبته الى بيته . . . وقبل أن تغادر مقر القيادة اطلقت
سراح المعتقلين الذين زج بهم اركاديو في الحبس تعسفاً . . .

ومنذ ذلك الحين أصبحت هي التي تتولى زمام الحكم في
البلدة ، فأعادت شعائر القداس ، وألغت كافة الاوامر التعسفية المخبولة التي
اصدرها اركاديو . . . ولكن بالرغم من قوتها ، فإنها كانت تبكي حظها العاثر . .
وقد شعرت بوحدة مطبقة الى حد انها كانت تسعى الى صحبة زوجها غير
المجدية وهو منسي منبوذ تحت شجرة الكستناء ، وكانت تقول له في غمرة
امطار يونيو التي كانت تهدد بتقويض عشه الواهي :

- انظر الى ما صار اليه حالنا . . انظر الى بيتنا الخاوي ، واطفالنا الذين
تفرقوا في العالم ، ونحن الاثنين وحدنا مرة اخرى ، مثلما كنا في البداية . . .
ان اوريليانو خرج الى الحرب منذ أكثر من أربعة اشهر ولم نسمع عنه شيئاً
حتى الان ! . . وجوزيه اركاديو ابنا عاد الينا رجلاً ضخماً ، وأطول منك ،
وجسمه كله مغطى بإبر الوشم ، ولكنه لم يفعل أكثر من أنه جلب العار على
البيت ! . .

وعندما بدا لها أن زوجها لا يسته مسحة حزن في لحظات الوعي العابرة
التي كانت تلم به ، للاخبار المكدره ، رأت أن تلون كلامها بالكذب ، فمضت
تقول في اختلاقتها :

- لقد شاءت ارادة الله ان يتزوج جوزيه اركاديو وربيكاً ، وهما الان

سعيدان . . وأركاديو هو الآن رجل جاد، وباسل جدا، وشاب جميل الصورة
بكسوته العسكرية وسيفه . . هل تصدق ان الحظ بدأ يحالفنا من جديد . .
فإن اماراتنا وعازف البيانولا الايطالي سوف يتزوجان . .

والواقع أن اماراتنا وبترو كريسي قد وطدا صداقتهما، بحماية من
اورسولا، حتى لم يعد أحد يشك في أنهما سيكونان زوجين موفقين . . ثم إن
مدة الحداد على ريميديوس بدأت تتلاشى في ظل أثقال الحرب، وغياب
اوريليانو، ووحشية اركاديو، واقصاء جوزيه اركاديو وربيكما من البيت . .

وهكذا جاء اليوم الذي بلغ فيه حب وصبر بترو كريسي منتهاهما . . .
وتصادف أن اقترن هذا اليوم بأمطار اكتوبر المنحوسة . . وقد قال بترو
كريسي لآماراتنا أخيراً وهو ينحي سلة التطريز من يدها :

- سوف نتزوج في الشهر المقبل . .

لم ترتعد اماراتنا لملمس يديه المثلجتين، وجذبت يدها مثل حيوان
صغير وجل وعادت الى التطريز قائلة :

- لا تكن سليم النية يا كريسي . . لن اتزوجك حتى لو كنت من
الأموات . .

عندئذ فقد بترو كريسي كل سيطرة على اعصابه . . وأجهش بالبكاء
في غير استحياء وهو يكاد يقصف أصابعه يأساً، بيد أنه لم يستطع ان
يشيها . . وكان كل ما قالته اماراتنا له :

- لا تضيع وقتك . . إن كنت تحبني الى هذا الحد، فلا تضع قدمك
في هذا البيت بعد الآن . . .

ولقد شعرت اورسولا أنها ستفقد عقلها خجلاً وخزياً . . وعلى الرغم

من أن بترو كريسي لم يدخر وسيلة الا استعان بها لاسترضاء امارانتا، الا أن كل محاولاته ذهبت ادراج الرياح، وظلت امارانتا على ابائها لا تلين لها قناة ولا يرق لها قلب . . .

و ذات صباح من شهر نوفمبر فتح شقيق بترو كريسي الاصغر متجر الادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية الذي كان يديره نيابة عن أخيه، فوجد جميع الانوار مضاءة، وكل الادوات الموسيقية تعزف، وكل الساعات تدق دقات الساعة متواصلة . . وفي إبان هذا العزف المجنون عثر على بترو كريسي لدى المكتب في اقصى المتجر وقد قطع معصميه بموسى والدم مصبوب في إناء تحت يديه . .

أصرت اورسولا ان تنقل جثة المتوفى الى بيتها للسهر عليه حتى يتم تشييع الجنازة . . وقد خرجت البلدة كلها في اليوم المحدد تودعه الى مثواه الاخير في موكب مهيب بالغ الأسى . . وكانت امارانتا في فراشها تسمع بكاء اورسولا وخطى وهمسات جموع المعزين ونحيب الناديين دون ان تغادر مخدعها . . ولكن كان لديها من القوة والاحتمال ما نأى بها عن الوقوع فريسة الحمى . . ولقد تجنبتها اورسولا وصدت عنها . . بل إنها لم ترفع حتى عينيها نحوها رثاء ومشاطرة عندما رأتها تدخل الى المطبخ عصر ذات يوم وتدس يدها داخل الفحم المتوهج في الموقد وتبقيها كذلك الى الحد الذي لم تعد تشعر فيه بألم حتى سرت الى أنفها رائحة اللحم المحترق . . وظلت أياماً كثيرة وهي تنتقل في أرجاء البيت ويدها مغموسة في إناء به بياض البيض، وعندما التأمت الحروق، بدا وكأن حروق قلبها لن تلتئم أبداً . . وكانت الآثار الوحيدة التي تخلقت عن الفاجعة هي ضمادة من شاش اسود لفتها حول يدها المحترقة وظلت تحملها حتى مماتها . .

وقد أبدى اركاديو كرما نادرا بإعلان الحداد الرسمي على بترو

كريسي . . وفسرت اورسولا هذا على أنه بمثابة عودة الحمل الشارد . . بيد أنها كانت مخطئة . . فقد فقدت أركاديو، لا منذ أن ألبس نفسه الكسوة العسكرية، ولكن منذ البداية . . كانت تظن انها أنشأته وربته كابن، كما انشأت وربت ربيكا، دون ما أي تمييز أو تفرقة . . وعلى الرغم من ذلك فإن أركاديو كان طفلاً انعزالياً مرتعياً في كافة التقلبات التي مرت بالأسرة، في خلال سيطرة اورسولا وتحكمها كربة للبيت مطلقة السلطان والتصرف، وفي خلال أطوار الهوس التي طبعت حياة «جوزيه أركاديو بوينديا»، وفي ظل اعتزال أوريليانو لمبازل الشباب، وفي ظل المنافسة الحامية بين أمارانتا وربيكا . . نعم إن أوريليانو علمه القراءة والكتابة، ولكن كما يفعل حيال أي شخص غريب، انصرفاً منه إلى شؤون أخرى . . وكان يعطيه ملابس المستعملة، حتى كان أركاديو يقاسي من الاحذية المتسعة عليه، ومن البنطلونات المرقعة . . وهو لم ينجح في التفاهم مع أحد بأحسن مما كان يتفاهم مع التابعين الهندين بلغتهما . . ومن ثم كانت المدرسة، حيث كانوا يعيرونه الاهتمام ويحترمونه، وحيث استمد منها القوة والصلوة في ما بعد، مقرونتين بالكسوة العسكرية والأوامر النافذة . . كانت المدرسة هي التي حررتهم من أثقال المرارة القديمة التي طالما اعتملت في صدره . . وذات ليلة تجاسر أحدهم في مشرب كاتارينو وقال له :

- أنت لا تستحق اللقب الذي تحمله . .

ونخلاقاً لما توقعه الجميع، لم يأمر أركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص وإنما رد قائلاً :

- من دواعي عظيم شرفي انني لست من أسرة بوينديا . .

وقد ظن أولئك الذين يعرفون سر أبويه ان رده يعني إنه عليم أيضاً بهذا السر، بيد أنه لم يعلمه قط . . وكانت «بيلا رتيرو» - أمه - تلك التي كانت

تضرم النيران حامية في عروقه كلما اشرفت عليه في غرفة التحميص المظلمة بالمعمل . . كانت امرأة تذكي مشاعره بقوة عارمة مثلما كانت بالنسبة لجوزيه اركاديو «أبيه» ، ومن بعده اوريليانو، على الرغم من أنها فقدت مفاتيحها وضحكتها الصادحة . . . وكان يتعقبها ويستدل على اثرها من ذلك الأريج الدخان الذي يفوح منها . . وقد حدث قبل الحرب بفترة قصيرة عندما تأخرت في الحضور الى المدرسة ظهراً لاصطحاب طفلها الاصغر «من أب مجهول» ، ان راح اركاديو ينتظرها في الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها قيلولته . . وفيما كان الطفل يلعب في فناء المدرسة، كان اركاديو ينتظر في أرجوحته وهو يرتعد قلقاً وتشوقاً، عارفاً أن بيلار تيرنيرا لا بد أن تمر من الغرفة . . وجاءت فعلاً . . واذا اركاديو يجذبها من معصمها محاولاً حملها الى الأرجوحة . . فقالت بيلار تيرنيرا في هلع :

- لا يمكنني . . . لا يمكنني . . . لا يمكنك ان تتصور الى أي حد أود أن اسعدك، ولكن يشهد الله أن هذا ليس في امكاني . . .

فأمسك اركاديو بخصرها بقوة الهائلة الوراثة وقد شعر بالدنيا تغيب عنه من ملمس بشرتها، وقال لها :

- لا تمثلي دور القديسة . . . على أي حال فالكل يعرفون أنك بغي . . .

تغلبت بيلار على التقزز الذي ابتعته في نفسها علمها بحظها السيء، وغمغمت قائلة

- إن الأطفال سيكتشفون الموقف . . . الافضل ان نترك الباب بغير مزلاج هذه الليلة . . .

وفي تلك الليلة انتظرها اركاديو في أرجوحته وهو يرتعد ارتعاد المحموم . . انتظر دون أن ينام والليل يمر بطيئاً مثاقلاً حتى أشفى على

الفجر، مما أقنعه بأنه كان مخدوعاً . . وفجأة، عندما استحال الانتظار والقلق الى غضب، فتح الباب أخيراً . .

كانت الخطى متخبطة في الظلام وبين «تخت» القصر . . ولما مد يده وجد يداً أخرى متخمة بخاتمين في أصبع واحد، علي غير ما عرف في بيلار تيرنيرا . . وإذا لم ينفذ الى أنفه الأريج الدخاني واشتم رائحة عطر عادي، فقد أيقن أن هذه ليست المرأة التي كان ينتظرها . .

كانت فتاة تدعى «سانتا صوفيا بيدال» وقد نقدتها بيلار تيرنيرا خمسين بيزو وهي نصف ما ادخرته في حياتها، لكي تذهب مكانها . . وكان اركاديو قد شاهدها مرارا كثيرة في محل البقالة الصغير الذي يملكه أبواها ولكنه لم يكن يهتم بها . . ولكن منذ تلك الليلة درجت على أن تذهب اليه في المدرسة في فترة القيلولة، بموافقة أبويها، اللذين منحتهما بيلار تيرنيرا النصف الباقي من مدخراتها . . وظل الحال كذلك الى أن أصبح اركاديو قائداً عسكرياً مدنياً، وله منها بنت . .

وكان الاقرباء الوحيدون الذين يعرفون ذلك هما أبوه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، بعد أن وطد اركاديو صلاته بهما في ذلك الحين، لا لصلة القرابة، ولكن لمصلحة خاصة جعلت منه ومن أبيه شريكين متواطئين . . فلإن الزواج جعل من جوزيه اركاديو انساناً طيعاً عاملاً، يخرج الى الغابة كل يوم محتقياً بندقية الصيد المزودة بصحبة كلاب الصيد المدربة، ويعود الى البيت الذي جملة ربيكا، بحصيلته من الارانب والبط البري، والغزلان أحياناً . . وذات يوم زاره اركاديو في مستهل حكمه للبلدة زيارة مفاجئة دعي فيها للغداء . . واثناء شرب القهوة كشف اركاديو عن الغرض من الزيارة، وهو شكوى قدمت اليه ضد جوزيه اركاديو . . فقد قيل إنه لم يكتف برقعة الارض التي كان يفلحها، بل عمل على زيادتها باغتصاب الاراضي المجاورة بالقوة الجبرية، وتمادى في هذا الى حد فرض اتاوة على جيرانه يحصلها كل يوم

سبت تحت ارهاب كلابه وبندقيته المزدوجة . . . ثم تبين ان اركاديو لم يأت لتصحيح الاوضاع ورفع الظلم ، بل لإدراج الأرض كلها، ما لأخيه وما ليس له ، في سجل رسمي ، بشرط ان يترك للحكومة تحصيل الاتاوات . . . وعلى هذا تم الاتفاق بين الاثنين . . . وفي السنوات التالية، عندما قام الكولونيل اوريليانو بوينديا بفحص سجل الممتلكات العقارية، تبين أنه قد سجلت باسم اخيه جوزيه اركاديو كافة الاراضي الممتدة بين التل حيث كانت رقعته الصغيرة وبين الأفق، بما فيها أرض المدافن . . . كما اكتشفت أن اركاديو لم يكن يحصل فقط الاتاوات، بل كان يتقاضى كذلك رسوماً من الافراد نظير دفن موتاهم في أرض جوزيه اركاديو . . .

وكان حتما أن تفوح رائحة الفساد الى أنف اورسولا وأن تسمع بأن اركاديو ابنتى لنفسه بيتا واستجلب أثاثاً فاخراً من الخارج، ولكنها لم تعلم علم اليقين الا بعد أن زارته في بيته الجديد ذات يوم وهو يلعب الورق مع ضباطه . . . عندها ايقنت أنه يستغل الاموال العامة لحسابه، ولم تتمالك أن صرخت فيه قائلة :

- أنت عار على اسم اسرتنا وسمعتها . . .

أما اركاديو فلم يعبأ بها . . . ويومها فقط عرفت أن له طفلة عمرها ستة اشهر، وأن «سانتا صوفيا بيدال» التي كان يعاشرها بغير زواج، حامل مرة اخرى . . . فاستقر عزمها على مكاتبة الكولونيل اوريليانو بوينديا، حيثما يكون، لإطلاعه على أحدث مجريات الامور . . . بيد أن الأحداث المتلاحقة بسرعة في تلك الأيام حالت دون تنفيذ عزمها . . . ذلك أن الحرب التي كانت حتى ذلك الحين مجرد كلمة لوصف ظرف بعيد غامض، قد استحالت الى واقع محسوس درامي . . . فقد حدث قرب نهاية شهر فبراير أن وصلت الى ماكوندو امرأة عجوز كالحة الوجه راكبة حماراً محملاً بالمكانس . . . وكانت علائم المسالمة بادية على المرأة الى حد أن الحرس تركوها تمر دون سؤال

باعتبارها بائعة متجولة مثل غيرها من الباعة الوافدين من منطقة
المستنقعات . . وقد اتجهت المرأة العجوز الى الشكنات مباشرة . . فاستقبلها
اركاديو في فصل المدرسة الذي كان قد تحول الى معسكر خلفي للحرس
علقت على جدرانها اراجيح النوم وتناثرت على ارضه البنادق والطبنجات
وحتى بنادق الصيد القصيرة . . وإذا المرأة العجوز تتفحص في وقفة انتباه
وتحيي تحية عسكرية معرفة نفسها قائلة :

- أنا الكولونيل جريجوريو ستفنسون . .

ولقد جاء معه بأنباء سيئة . . فإن آخر مراكز المقاومة لليبراليين بدأت
تتصدع وتسقط تباعا . . وقد عهد اليه الكولونيل اوريليانو بوينديا، الذي تركه
يقاتل متقهقراً قرب بلدة ريوهاشا، برسالة لإبلاغها الى أركاديو . . وكان عليه
ان يسلم ماكوندو دون مقاومة، بشرط احترام حياة وممتلكات الليبراليين . .
وقال اركاديو للرسول وهو يتفحصه بنظرة في عجب ورثاء معا :

- طبعاً احضرت معك رسالة خطية . . .

فرد المبعوث قائلاً :

- بالطبع لم احضر معي شيئاً من هذا القبيل . . فالمفهوم في مثل
الظروف الحاضرة الا يحمل الانسان شيئاً يمكن أن يدينه . .

وشفع هذا الكلام بأن دس يده في « مشده » النسائي وأخرج سمكة
مذهبة صغيرة قائلاً :

- أظن ان هذا سيكون . .

أيقن اركاديو أنها حقاً من تلك الحلوى الصغيرة التي كان يصنعها
الكولونيل اوريليانو بوينديا . . لكن كان من الممكن لأي انسان أن يتناع مثلها
قبل الحرب او يسرقها فلا يمكن الاعتماد عليها كجواز مرور عسكري . .

وعندئذ لجأ الرسول لكي يصدقوا هويته الى افشاء سر حربي ، فقال إنه موفد في مهمة الى بلدة كوراكاو، حيث يؤمل في تجنيد المهاجرين المنفيين من كل انحاء البحر الكاريبي وجمع اسلحة وامدادات تكفي لمحاولة النزول الى البر عند نهاية العام . . ونظراً لإيمان الكولونيل اوريليانو بوينديا بهذه الخطة، فإنه غير ميال الى بذل توضيحات لا جدوى منها في ذلك الحين . . ورغم هذا كله فإن اركاديو لم ينزل عن إصراره، فأمر بوضع الاسير تحت التحفظ الى أن يمكنه اثبات هويته، وصمم على الدفاع عن البلدة حتى الموت . . .

ولم يكن له ان يطول انتظاره . . فإن اخبار هزيمة الليبراليين غدت حقيقة واقعة . . فقرب نهاية شهر مارس في فجر يوم هطلت امطاره على غير انتظار، بدد سكون الاسابيع السابقة فجأة أصوات نفيير ملعلع وطلقة مدفع اطاحت برج الكنيسة الأمامي . . وفي واقع الأمر كان قرار اركاديو بالمقاومة جنونا لا شك فيه . . فلم يكن تحت إمرته أكثر من خمسين رجلاً مسلحين سلاحاً هزيباً، وما معهم من الذخيرة لا يزيد على عشرين طلقة لكل مقاتل . . ولكن التلاميذ السابقين بين الجنود هبوا للدفاع والاستبسال حتى الموت، مشحونين بالبيانات الحماسية التي كان اركاديو يشهها في صدورهم . . . وفي غمار هذا الوطيس الحامي افلح الكولونيل ستفنسون المزعوم في الاتصال بأركاديو وقال له :

- لا تدعني أتحمل مذلة الموت في الحبس وأنا في ملابس النساء
هذه . . . ان كان لا بد لي من الموت، فدعني أموت مقاتلاً . . .

واستطاع اقناع أركاديو الذي أمر بإعطائه سلاحاً وعشرين طلقة ، ومضى مع خمسة رجال للدفاع عن مقر القيادة ، بينما انطلق أركاديو على رأس أركان حربه للإشراف على المقاومة . . .

ولم يتقدم بعيداً . . . فقد تحطمت الاستحكامات ، وأصبح

المدافعون يقاتلون مكشوفين في الشوارع حتى نفدت ذخيرتهم وغدوا يشتبكون بالأيدي . . ومع اقتراب الهزيمة خرجت بعض النساء الى الشوارع مسلحات بالعصي وسكاكين المطابخ . . وفي غمرة الفوضى عثر أركاديو على أمارانتا التي كانت تبحث عنه كمجنونة وهي في جلاب نومها ومعها طبنجتان قديمتان مملوكتان لجوزيه أركاديو بوينديا . . . فأعطى أركاديو بندقيته لضابط فقد سلاحه وتسلل مع أمارانتا من شارع قريب لإعادتها الى البيت . . وكانت أورسولا لدى الباب تنتظر ، غير عابثة بطلقات المدفع التي أحدثت ثغرة في واجهة البيت المجاور . . وترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا وحاول مواجهة جنديين فتحا نيرانا ثقيلة لدى الناصية . . . لكن الطبنجتين العتيقتين لم تعمل . . وفي هذه اللحظة عمدت أورسولا الى حماية أركاديو بجسدها محاولة جذبه الى ناحية المنزل صائحة :

- تعال معي ناشدتك الله ! . . يكفي ما كان من جنون ! . .

فصاح أحد الجنديين بدوره :

- دعي هذا الرجل يا سيده ، والا فلن نكون مسؤولين ! . . .

فدفع أركاديو أورسولا في اتجاه البيت واستسلم . . وبعد فترة قصيرة توقف إطلاق النار ، وبدأت الاجراس تدق . . فقد أبيدت المقاومة عن آخرها في أقل من نصف ساعة . . ولم ينج رجل واحد من رجال أركاديو في هذه المعركة ، ولكنهم قتلوا ثلاثمائة من الجنود المهاجمين قبل مصرعهم . . وكان المعقل الاخير الباقي هو الشكنات . . وقبل مهاجمته أطلق الكولونيل جريجوريو ستفنسون المزعوم سراح الأسرى وأمر رجاله بالخروج والقتال في الشارع . . وقد أعطت سرعة الحركة ودقة التصويب اللتان استفد بهما العشرين طلقة التي أعطيت له . . أعطت الانطباع بأن الشكنات تحت دفاع قوي ، حتى عمل المهاجمون على نسفها بنيران المدافع . . ولقد

روح الضابط الذي قاد العملية اذ وجد أنقاض الشكنات خاوية الا من رجل واحد صريع في ملابسه الداخلية وما زالت يده المبتورة ممسكة ببندقية فارغة . . . وكان للرجل الصريع شعر امرأة معقود خلف الرقبة بمشط وحول عنقه سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية صغيرة . . . وعندما أداره بطرف حذائه وسلط الضوء على وجهه، لم يتمالك أن هتف متحيراً :

- يا إلهي ! . . .

ولما اقترب منه الضباط الآخرون أضاف قائلاً :

- أنظروا من وجدنا في هذا القتل ! . . إنه جريجوري ستفنسون ! . .

وعند الفجر، وبعد محاكمة عسكرية قصيرة، أعدم أركاديورمياً بالرصاص عند حائط المدافن . . .

وعندما سئل قبيل تنفيذ الأعدام عن رغبته الأخيرة قال بصوت متموج النبرات :

- قولوا لزوجتي أن تسمي طفلتنا باسم أورسولا . . . أورسولا، جدتها . . . وقولوا لها أيضاً إن المولود الذي سيولد، إن جاء ذكراً ، فليسموه جوزيه أركاديو، لا اسم عمه، بل اسم جده ! . . .

الفصل السابع

انتهت الحرب في شهر مايو. . وقبل اسبوعين من البيان الرسمي الذي اذاعته الحكومة بلهجة طنانة والذي توعدت فيه بإنزال عقاب صارم لا رحمة فيه لأولئك الذين بدأوا التمرد، وقع الكولونيل اوريليانو بوينديا اسيراً في الوقت الذي كان فيه موشكاً على الوصول الى الحدود الغربية متنكراً في شخصية طبيب ساحر هندي. . ومن بين الواحد والعشرين رجلاً الذين خرجوا معه الى الحرب، لقي اربعة عشر حتفهم في القتال، وجرح ستة، ورافقه واحد فقط لحظة الهزيمة النهائية. . هو الكولونيل جيريلدو ماركيز. . وقد أذيع نبأ أسره في ماكوندو ببيان خاص. . وعندها قالت أورسولا لزوجها :
- إنه على قيد الحياة ! . . لنبتهل الى الله أن يجعل أعداءه يرأفون به ! . . .

وبعد ثلاثة أيام في بكاء متصل، سمعت وهي تصنع حلوى باللبن في المطبخ صوت ولدها يتردد واضحاً في سمعها. . فصرخت وهي تهوول الى زوجها تحت شجرة الكستناء لإبلاغه ما سمعت.

- هو صوت اوريليانو ! . . لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة، لكنه حي يرزق، وسنراه قريباً ! . .

لقد سلمت بما بدا لها أنها سمعته تسليماً. . وعكفت على كنس غرف البيت وتغيير وضع الأثاث. . وبعد أسبوع سرت شائعة من مصدر ما، دون أن يصاحبها أي بيان، كانت بمثابة تحقيق درامي لنبوءة أورسولا. . مؤداها أن الكولونيل اوريليانو بوينديا قد حكم عليه بالإعدام وأن الحكم سوف ينفذ في

ماكوندو ليكون درساً للناس . . . وصباح يوم اثنين، بينما كانت امارانتا تلبس أوريليانو جوزيه الصغير «ابن أوريليانو وبيلاير تيرنيرا» ملابسه، اذ سمعت اصوات مقدم جنود على البعد ودوي نفير عسكري، حين اندفعت اورسولا، الى الغرفة صائحة :

- انهم آتون به الآن . . ١ .

وكان الجنود يجاهدون للتغلب على الجمهور المتدفق بكعوب بنادقهم . . فأسرعت اورسولا وأمارانتا الى الناحية تشقان طريقهما بين الناس، وإذا هما تبصرانه . . لقد بدا كمتسول . . كان ممزق الثياب، أشعث شعر الرأس واللحية، حافي القدمين . . وكان يمشي دون أن يشعر بتراب الارض الملتهب، مقيد اليدين خلف ظهره بحبل شده ضابط من الفرسان الى رأس جواده . . وعلى نفس الصورة من الرثاثة والهزيمة جاء الكولونيل جيريلدو ماركيز . . ولم يبد على الاثنين أي حزن . . وإنما كانا أكثر قلقاً من أجل الجمهور الذي كان يصرخ بكل ألوان السباب في وجوه الجنود . .

لم تتمالك اورسولا ان صاحت في خضم هذا الجمع الهادر :

- يا ولدي . . ١١ .

وصفعت الجندي الذي حاول صدها . . وارتفع جواد الضابط على قائمته الخلفيتين . . وما لبث الكولونيل اوريليانو بوينديا أن توقف مشفقاً، متفادياً ذراعي أمه، وسلط نظرة صارمة على عينيها، قائلاً :

- إرجعي الى البيت يا امي . . خذي إذنأ من السلطات لزيارتي في

السجن . . .

ونظر الى أمارانتا، وابتسم قائلاً :

- ماذا حدث لديك . . ٢ .

فرفعت أمارانتا يدها المعصوبة بالضمادة السوداء وأجابت :

.. مجرد حرق ..

وعملت على إبعاد أورسولا لئلا تدوسها الخيل .. واستأنف الجنود سيرهم بعد أن أحيط الأسيران بحرس خاص، متجهين إلى السجن ..

وعند الغروب زارت أورسولا الكولونيل أوريليانو في السجن وهي لها لفافة بما أرادت أن تقدمه إليه .. وقد لقيت في الحصول على الإذن عناء شديداً بسبب حظر زيارة المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام، ولكن الضابط كان رقيقاً بها ومنحها ربع ساعة للزيارة بعد أن فحص اللفافة وكان بها ملابس نظيفة والحذاء الذي لبسه يوم زفاته والحلوى باللبن التي احتفظت بها له يوم أن جاءها هاتف بقرب عودته .. وقد وجدته في الزنزانة ممدداً على سرير صغير وقد دلى ذراعيه بسبب جروح تحت ابطيه .. وكانوا قد سمحوا له بحلاقة ذقنه .. وبدأت عظام خدييه بارزة بجانب شاربه الكثيف المفتول الطرفين .. ووجدته على علم بكل أحوال الأسيرة : انتحار بترو كريسي، وأفعال اركاديو العدوانية التي انتهت بإعدامه، وبقاء أبيه «جوزيه اركاديو بوينديا» تحت شجرة الكستناء .. كما كان يعرف أن أمارانتا في ترميلها العذري قد كرست نفسها لتربية أوريليانو- جوزيه الصغير «ابن أوريليانو من بيلار تيرنيرا» وأنه أبدى نجابة مكنته من تعلم القراءة والكتابة في نفس الوقت الذي بدأ فيه يتعلم الكلام .. ومنذ اللحظة التي دخلت فيها أورسولا الزنزانة طالعتها علائم النضج في ابنها، وهالة الأمر والسلطان التي كانت تشع منه .. وقد أدهشها علمه بكل أحوال الأسيرة، وفي هذا قال لها مداعباً مازحاً :

.. كنت تعرفين دائماً أنني ساحر أتنبأ بالأحداث ! ..

فتنهدت أورسولا قائلة :

.. وماذا كنت تتوقع غير هذا .. ؟ الأيام تمر ..

فقال اوريليانو مؤيداً :

- هذه هي سنة الحياة . .

وعلى هذا النحو مضت الزيارة التي طال انتظارها في حديث عادي غير الذي أعده كلاهما في ذهنه مسبقاً . . وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة نهضت أورسولا لكي تقبله مودعة، وغمغمت قائلة :

- أحضرت لك مسدساً معي . .

ولما رأى الكولونيل أوريليانو بوينديا أن الحارس ساء عنهما قال لها بصوت خافت :

- لن يكون له أي فائدة . . لكن هاتيه لئلا يفتشوك وأنت خارجة .

فأخرجت أورسولا المسدس من مشدّها ودسته تحت مرتبة السرير . . فقال لها بهدوء واعتداد :

- لا تقولي وداعاً . . لا تستعطفي احداً ولا تنحني أمام انسان . .
تصوري انهم اعدموني منذ مدة . .

فعضت أورسولا شفتها حتى لا تبكي . . وقالت قبل أن تستدير خارجة :

- ضع بعض أحجار ساخنة على تلك الجراح . .

ووقف الكولونيل اوريليانو بوينديا ينتظر ساهماً حتى أغلق الباب، فاستلقى ثانية على السرير مدلى الذراعين . . وكان منذ صباه، عندما بدأ يلبس تلك النذر السابقة التي تتجلى له كنوع من الإلهام ينبثه بما سيقع، يتصور أن الموت عندما يحين حينه يقترن بإشارة مدهمة نقض لها، لكن لم تبق الآن سوى ساعات على موته ولم تطالعه تلك الإشارة بعد . . نعم إنهم

عندما أصدروا الحكم بإعدامه سألوه أن يقول رغبته الأخيرة، ولحظتها لم يجد أدنى صعوبة في انتهاز ما هبط عليه من إلهام جعله يقول :
- أطلب أن يكون تنفيذ الحكم في بلدتي ماكوندو... .

ولقد استاء رئيس المحكمة العسكرية من هذا الرد وقال له :
- دعك من هذا المكر يا بوينديا... هذه مجرد خدعة لكسب وقت
أكثر... .

فرد عليه الكولونيل قائلا :
- ان كنت لا تريد تحقيق هذا، فهو شأنك... لكن هذه هي رغبتي
الأخيرة... .

ومنذ تلك الآونة هجره الإلهام وتراءى له أن الموت ربما لا تسبقه إشارة
هذه المرة لأنه لا يعتمد على الحظ او المصادفة، بل هو منوط بمشيئة
جلاديه... .

وأمضى يومين على هذه الحال... وفي يوم الخميس تشاطر الحلوى
باللبن مع حراسه، وارتدى الملابس النظيفة والحذاء اللامع... وحتى يوم
الجمعة لم ينفذوا فيه الحكم بعد... .

أما الواقع فهو أنهم لم يجسروا على تنفيذ الحكم... فإن روح التمرد
الفاشية في البلدة جعلت المسؤولين يرون أن اعدام الكولونيل أوريليانو
بوينديا قد يجر نتائج سياسية خطيرة لا في ماكوندو فقط بل في كافة أرجاء
إقليم المستنقعات... وهكذا لجأوا الى استشارة السلطات العليا في عاصمة
المقاطعة... وفي يوم السبت ليلا قصد الكابتن روك كارنيرو المنوط بتنفيذ
احكام الإعدام والملقب «بالجزار» قصد مع بعض زملائه الى حانة
كاتارينو... فلم تقبل سوى امرأة واحدة، وتحت التهديد، مصاحبته الى

غرفتها. . . وفي هذا اعترفت له قائلة :

- إن زميلاتي لا يرغبن في مصاحبة رجل يعرفن أنه سيموت. . . ولا أحد يعرف كيف سيحدث هذا. لكن الجميع يقولون إن الضابط الذي سيطلق الرصاص على الكولونيل أوريليانو بوينديا سوف يقتل هو وكل أفراد فريق الرماة، دون مهرب، وعاجلا أو آجلا، حتى ولو اختفوا في أطراف الدنيا. . .

لقد نقل الكابتن روك كارنيرو هذا الكلام الى زملائه، فنقلوه بدورهم الى الرؤساء. . . فلما حل يوم الجمعة كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط كانوا على استعداد للتوسل بكافة المعاذير لتفادي مسؤولية تنفيذ الإعدام. . . ثم جاء الأمر الرسمي يوم الاثنين يقول : لا بد من تنفيذ الإعدام في خلال أربع وعشرين ساعة. . . وفي تلك الليلة وضع الضباط سبع قصاصات ورق في «كاب»، وبان مصير الكابتن روك كارنيرو الانكد في القصاصة التي سحبت وبها اسمه، وإذا هو يقول بمرارة :

- ان الحظ المنحوس لا تنفذ منه ثغرة أمل. . . لقد ولدت «ابن حرام»، وسأمت «ابن حرام»! . . .

وعند الساعة الخامسة صباحا اختار فريق الرماة بالقرعة، وشكل الصف في الفناء، ثم ايقظ المحكوم عليه قائلا بلهجة الأمر :
- هيا بنا يا بوينديا. . . لقد جاءت «ساعتنا»! . . .

فرد الكولونيل قائلا :

- هذا اذن تفسير الحلم. . . فقد رأيت في منامي أن جروحي تفجرت. . .

وفي نفس هذا الموعد كان أخوه جوزيه اركاديو قد استيقظ من نومه وشرب قهوته، ولم تلبث ربيكا التي كانت تراقب من نافذة غرفة النوم

الاستعدادات الاخيرة لتنفيذ حكم الإعدام ان تنهدت قائلة :

- إنهم آتون به للتنفيذ . . . كم هو جميل ! . .

فنظر جوزيه اركاديو من النافذة ورأى أخاه وقد وقف بظهره الى الحائط ويداه في خاصرته بسبب جروح ابطيه . . وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا يقول وقتها :

- يظل الانسان يكد ويجهد في حياته، ثم يأتي في النهاية ستة رجال ضعاف فيقتلونه دون أن يستطيع شيئا . . .

وجعل يردد هذا الكلام في غضب واحتدام شديدين حتى تأثر الكابتن روك كارنيرو اذ ظنه يصلي ويبتهل . . وعندما سدد الرماة بنادقهم استحال الغضب الى مرارة عقدت لسانه وأطبقت عينيه . . واذاك تلاشى في وعيه وضح الفجر ورأى نفسه مرة اخرى في بنطلونه القصير ووالده يقوده الى داخل خيمة الفجر عصر ذلك اليوم الصحولي يريه الثلج . . . وعندما سمع الصبيحة الآمرة ظن أنها الأمر النهائي لفريق الرماة . . ففتح عينيه وقد سرت فيه رعدة فضول، متوقعا ان يرى وهج الرصاص المنطلق . . بيد أنه لم يبصر سوى الكابتن روك كارنيرو وقد رفع ذراعيه في الهواء، وجوزيه اركاديو يجتاز الشارع وبندقيته المرهوبة على أهبة الانطلاق . . وقال الضابط لجوزيه اركاديو :

- لا تطلق النار ! . . إن العناية الالهية هي التي أرسلتك ! . .

وعلى الأثر نشبت حرب اخرى . . فقد ارتحل الكابتن روك كارنيرو ورجاله الستة مع الكولونيل أوريليانو بوينديا لإطلاق سراح الجنرال فكتوريو مدينا الذي حكم عليه بالإعدام في بلدة ريوهاشا . . ولكن وعورة الطريق حالت دون وصولهم قبل فوات الاوان، اذ تم إعدام الجنرال فكتوريو مدينا فعلا . . . وعندها أعلن رجال الكولونيل أوريليانو بوينديا الذين تضاعفت

أعدادهم بمن انضم اليهم من الليبراليين في المناطق التي مروا بها ، أعلنوا الكولونيل أوريليانو بوينديا قائداً للقوات المتمردة في إقليم الساحل الكاريبي مع منحه مرتبة الجنرال . . فقبل منهم المنصب ولم يقبل اللقب، طالما بقي المحافظون في الحكم . . وفي نهاية أشهر ثلاثة نجحوا في تسليح أكثر من ألف رجل، ولكنهم أيدلوا عن آخرهم . . وأذاعت الحكومة بيانا تناقلته جميع مكاتب البريد بأن الكولونيل أوريليانو بوينديا لقي مصرعه . . ثم أذيعت بعد يومين برقية أخرى تنبئ بقيام تمرد جديد في أقاليم الجنوب . . . وفي ظل هذا التضارب نشأت وتضخمت أسطورة وجود الكولونيل أوريليانو بوينديا في كل مكان . . . ووقتها كان زعماء الليبراليين يفاوضون الحكومة للمشاركة في الكونجرس، فما كان منهم الا أن وصموه بالمغامر الذي لا يمثل الحزب . . ووضعت الحكومة في قائمة قطاع الطرق، وجعلت ثمناً لرأسه خمسة آلاف بيزو . . وبعد سلسلة من الهزائم بلغ عددها ست عشرة، استولى الكولونيل أوريليانو بوينديا على ريوهاشا وجعل فيها مقر قيادته، معلناً الحرب ضد نظام الحكم القائم . . . وكانت أول رسالة تلقاها من الحكومة هي التهديد بإعدام صديقه الحميم الكولونيل جيريلدو ماركيز في غضون ثمان وأربعين ساعة اذا لم ينسحب مع قواته الى الحدود الشرقية . . فكان رده قاطعاً . . قال إنه يتوقع جعل مقر قيادته في ماكوندو في مدى ثلاثة أشهر، فإذا لم يجد الكولونيل جيريلدو ماركيز على قيد الحياة، فسوف يعدم على الفور جميع الصباط الأسرى لديه، بدءاً بالجنرالات، وسيأمر رجاله أن يفعلوا المثل الى نهاية الحرب . . وبعد ثلاثة اشهر، عندما دخل ماكوندو مظفراً، كان أول عناق تلقاه في طريق المستنقعات خارج ماكوندو هو من ذراعي الكولونيل جيريلدو ماركيز . . .

وبوصوله بيت الأسرة وجده مليئاً بالأطفال . . فقد آوت اورسولا عندها «سانتا صوفيا بيدال» ارملة اركاديو مع طفلتها الكبرى وأخوين توأمين ولدا

بعد خمسة اشهر من إعدام أبيهما اركاديو. . وخلافاً لرغبته الاخيرة سمت
الطفلة باسم ريميديوس الجميلة، وفي هذا قالت : «أنا متأكدة أن هذا هو ما
كان يقصده اركاديو، ولن نسميها أورسولا لأن الانسان يعاني كثيراً من
التسمية» . . . وسمي التوأمان «جوزيه اركاديو الثاني» و «أوريليانو
الثاني» . . . وقد تولت أمارانتا تربيتهما جميعاً، ووضعت لهما كراسي خشبية
صغيرة في غرفة المعيشة وأقامت شبه دار حضانة ضمت اليها أطفال الأسر
المجاورة. . . وعندما عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا وسط إطلاق الصواريخ
المدوية والأجراس الرناتة، رحب بمقدمه «كورس» من الاطفال. . . وحياء
ابنه «أوريليانو جوزيه»، وكان فارعاً مثل جده، تحية عسكرية. . .

ولم تكن الانباء كلها سارة. . . فبعد سنة من فرار الكولونيل أوريليانو
بوينديا، انتقل أخوه جوزيه اركاديو مع ربيكا للإقامة في البيت الذي ابتناه
اركاديو. . . ولم يعرف احد بدور هذا الاخ في الحيلولة دون إعدام
أوريليانو. . . وفي هذا المقر الجديد الذي غدا أشبه بدار للضيافة استأنفت
ربيكا جلساتها مع صواحبها السابقات للاشتغال بالتطريز، وكان بينهن أربع من
بنات دون أبولينار موسكوت اللاتي ما زلن رهن العزوبة. . . واستمر جوزيه
اركاديو في الانتفاع بالاراضي التي اغتصبها والتي اعترفت حكومة المحافظين
بمستندات ملكية لها. . . وكان يرى عصر كل يوم راجعاً على ظهر جواده مع
كلاب الصيد والبندقية المزدوجة وقد تدلى من سرج الجواد حصيلته من
الارانب التي صادها. . . وذات يوم من سبتمبر لاحت فيه نذر عاصفة قريبة عاد
الى البيت أبكر من المعتاد. . . فحيا ربيكا في غرفة الطعام وربط الكلاب في
الفناء، وعلق الارانب في المطبخ توطئة لتعليقها في ما بعد، ثم دلف الى
غرفة النوم لتغيير ملابسه. . . وقد روت ربيكا في ما بعد أنه عندما دخل زوجها
الى غرفة النوم كانت هي في الحمام ولم تسمع أي شيء. . . وكانت روايتها
يصعب تصديقها. ولكن لم يكن ثمة رواية اخرى اقرب الى المعقول، ولم

يخطر ببال أحد أن يكون لديها أي دافع لقتل الرجل الذي جعلها سعيدة في حياتها. . . ولعل ذلك كان اللغز الوحيد الغامض الذي لم يكشف النقاب عنه قط، في ماكوندو. . . ذلك انه حالما أغلق جوزيه اركاديو باب غرفة النوم عليه، تردد في أرجاء البيت صوت عيار ناري من طبنجته. . . وسال خيط من الدم اخترق كثيرا من الغرف والردهات حتى انتهى الى المطبخ في بيت الاسرة الكبير، حيث كانت اورسولا تستعد لصنع كعك بالبيض. . . فلم تتمالك أن صرخت :

- رحماك يا ربي ! . .

وهرعت تتبع خيط الدم حتى انتهى بها الى بيت جوزيه اركاديو الذي لم تدخله من قبل، ثم الى غرفة النوم التي دفعت بابها وكادت تختنق برائحة بارود محترق، وعثرت على ابنها البكر منبطحاً على الأرض على وجهه فوق «التزلج» الذي كان قد خلعه، وعنده كانت بداية خيط الدم المترامي الذي كان قد توقف مسيله من الأذن. . . هذا، ولم يعثروا على أي جرح في جسده، ولا على أي سلاح بقربه. . . كما لم يستطيعوا إزالة أثر رائحة البارود من الجثة رغم المحاولات التي بذلت بالماء والصابون والخل وما إليها. . . وعندما بدا لهم ان يضعوا الجثة في ماء مغلي لإزالة رائحة البارود، بدأت تتحلل، ولم يكن بد من دفنها على وجه السرعة. . . فجاءوا له بتابوت طوله سبع أقدام ونصف، وعرضه أربع ، ودعموه من الداخل بأطواق من الفولاذ، وعلى الرغم من هذا فإن الرائحة كانت بادية في الشارع الذي سار فيه موكب الجنازة. . . ومع أنهم في الشهور التالية دعموا القبر بحوائط من حوله تخللها ر. . . مضغوط ونشارة الخشب والجير، الا أن المقبرة ظلت لسنوات عديدة تفوح منها رائحة البارود، الى أن جاء مهندسو شركة انتاج الموز التي أنشئت بعد ذلك وكسوا القبر بطبقة من الاسمنت المسلح. . .

وأما ربيكا فقد أغلقت أبواب بيتها و«دفنت» نفسها فيه حية، مسرلة

بحجاب كثيف من الإعراض عن الدنيا واحتقارها لا تستطيع أية مغريات أرضية ان تنفذ منه أو تقوضه . . . وآخر مرة رآها الناس على قيد الحياة كانت عندما اطلقت النار على لص حاول اقتحام باب البيت . . وفي ما عدا خادمتها المقربة لم يعد لأي انسان أدنى اتصال بها بعد ذلك حتى كهولتها ومماتها . . ونسيت البلدة كلها أمرها . .

وعلى الرغم من عودة الكولونيل اوريليانو بوينديا المظفرة، فإنه لم يكن متحمساً لمجريات الامور . . لقد أخلت القوات الحكومية مواقعها دون مقاومة مما أثار إحساساً وهمياً بالانتصار بين السكان الليبراليين لم يكن يجمل تبديده . . لكن المتمردين منهم كانوا يعرفون الحقيقة، وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا أكثرهم معرفة بها . . ومع أنه كان لديه في ذلك الحين خمسة آلاف رجل تحت إمرته وأصبح مسيطراً على ولايتين ساحليتين، إلا أنه كان يشعر بأنه يساق في اتجاه البحر حيث يغدو في موقف عسير . . وبحثاً عن منفذ للإفلات من هذا الموقف، كان يمضي ساعات بأكملها في مكتب التلغراف للتشاور مع قادة البلدان الاخرى، وفي كل مرة كان يخرج بانطباع قوي هو أن حربهم خاسرة لا محالة . . وكان يشكو لضباطه قائلاً :

- إننا نضيع الوقت، بينما الاندال من اعضاء الحزب الليبرالي يستجدون مقاعد لهم في الكونجرس ! . .

وفي احدى ليالي البلبلة التي كانت تعتريه وهو مستلق في أرجوحته يفكر في منفذ للخلاص من هذا المأزق، طلب من بيلار تيرنيرا التي كانت تغني مع الجنود في الفناء ان تقرأ له المستقبل في الورق الطالع . . فكان كل ما قالته بعد تقليب الورق ثلاث مرات هو :

- خل بالك من فمك ! . . أنا لا اعرف ما معنى هذا، لكن الإشارة واضحة جداً . . خل بالك من فمك ! . .

وبعد يومين أعطى احدى ابريق قهوة لجندي مراسلة، أعطاه هذا بدوره لآخر، وظل ينتقل من يد الى يد حتى وصل الإبريق الى مكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا... ولم يكن قد طلب قهوة، ولكن ما دامت قد جاءت فقد شربها الكولونيل... كان بها جرعة من سم زعاف تكفي لقتل جواد... وعندما حملوه الى البيت كان متصلباً ومقوساً وقد برز لسانه بين أسنانه...

لقد راحت أورسولا تصارع الموت لإنقاذه... وبعد تفريغ معدته بالمقيئات لفته باغطية ساخنة وأطعمته بياض البيض يومين كاملين الى أن استعاد جسمه المضطرب حرارته العادية... وفي اليوم الرابع خرج من مرحلة الخطر... واضطر تحت ضغط أورسولا وضباطه الى ملازمة الفراش اسبوعاً آخر... وفي فترات الصفاء الذهني التي كان يفكر فيها في الحال والمآل، قال ذات ليلة لصديقه القديم الكولونيل جيريلدو ماركيز:

- قل لي يا صديقي الحميم... لماذا تحارب؟...

فأجاب الكولونيل جيريلدو ماركيز:

- ولاي سبب آخر غير الرغبة في انتصار الحزب الليبرالي؟...

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا:

- أنت محظوظ، لأنك تعرف سبب ما تحارب من أجله... أما في ما

يختص بي شخصياً، فقد تأكدت الان فقط اني احارب من اجل كبريائي وكرامتي...

- هذا شيء سيء...

فبدأ الكولونيل أوريليانو بوينديا متفكها من انزعاج صاحبه، وقال:

- لك حق... لكن على أي حال، فهذا افضل من الا تعرف لماذا

تحارب؟...

ثم تفرس في عينيه وأضاف بابتسامة :

- أو أفضل من المحاربة، كما تفعل انت، من أجل شيء ليس له أي معنى عند أي احد . . .

والواقع ان كبرياءه هي التي منعت من الاتصال مع الجماعات المسلحة في داخلية البلاد الى أن يصحح زعماء الحزب الليبرالي علانية تصريحهم بأنه من قطاع الطرق . . ومهما يكن فقد كان يعرف انه ما إن يطرح جانباً هواجسه تلك، فسيكون بوسعه أن يضرب ضربته المؤثرة في تطورات الحرب . . وبعد طول تفكير وتدبر أثناء فترة النقاهة، استطاع حمل اورسولا على أن تعطيه ما بقي من ميراثها الذهبي المخبوء وكذلك مدخراتها الكبيرة . . وأخيراً عين الكولونيل جيريلدو ماركيز قائداً عسكرياً ومدنياً في ماكوندو، وانطلق بقواته للاتصال بجماعات المتمردين في داخلية البلاد . .

وفي خلال ذلك كان الكولونيل اوريليانو بوينديا يقطع من وقته جزءاً لإرسال تقارير مفصلة الى ماكوندو عن تطورات الحرب كل أسبوعين . . بيد أنه لم يكتب سوى مرة واحدة، وبعد ثمانية أشهر من رحيله مع قواته، جاء رسول خاص الى بيت الأسرة يحمل مظروفاً مغلقاً بالشمع ويدخله ورقة بخط الكولونيل قال فيها : «اعتنوا جداً بأبي، لأنه سيموت» . . فانزعجت اورسولا قائلة : «إذا كان اوريليانو يقول هذا فذلك لأن اوريليانو يتنبأ ويعرف ! . . » وطلبت من أهل البيت مساعدتها في نقل «جوزيه اركاديو بوينديا» الى غرفة نومه في الداخل . . وكان قد زاد امتلاء تحت شجرة الكستناء طوال تلك الاعوام حتى عجز سبعة رجال عن رفعه من مكانه واضطروا الى جره جراً . . وفي اليوم التالي لم يكن في فراشه . وإذا كان قد عاد الى شجرة الكستناء فذلك بحكم عادة الجسد . . ولكنهم اعادوه مرة اخرى الى غرفته . . وكانت اورسولا تطعمه وتبلغه اخبار اوريليانو . . وبعد انقضاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا في أذنه ووضعوا مرآة أمام

خياشيمه ، بيد أنهم لم يستطيعوا ايقاظه . . وبينما كان النجار يأخذ مقاسات
التابوت ، رأوا من خلال النافذة مطراً خفيفاً من زهور صفراء صغيرة يتساقط . .
وظلت تسقط على البلدة طوال الليل في عاصفة ساكنة حتى غطت الاسقف
وسدت الابواب وخنقت انفاس الحيوانات التي كانت تبيت في الخارج . .
بلغ من كثرة الزهور التي تساقطت انها غطت الشوارع ببساط سميك حتى
اضطروا الى جرفها لكي يمكن أن يسير موكب الجنازة . .

الفصل الثامن

جعلت امارانتا تراقب من مقعدها الهزاز اثناء فترة الراحة من التطريز، أوريليانو- جوزيه وهو يكسو ذقنه برغوة الصابون توطئة لحلاقتها لأول مرة . . فما كان منه إلا أن ادنى شفته العليا وهو يحاول تنميق الشارب الصغير الاشقر، ولم تتمالك امارانتا ان شعرت بأنها بدأت تشيخ منذ تلك الاونة . . وقالت له :

- إنك تشبه أباك أوريليانو عندما كان في سنك . . انت الآن رجل . . .

والواقع انه كان يافعاً منذ اليوم الذي عهدت به أمه بيلار تيرنيرا الى أمارانتا لتربيته . . كان اول الامر يزحف الى فراش امارانتا لينام الى جانبها خوفاً من وحدة الطفولة . . ثم تطور هذا الى مشاعر غريبة بدأت تلابسه في مدارج العمر الى ان تحولت الى افتتان، مما جعلها تصده بعد ان فاجأتهما أورسولا ذات يوم في «الكوار» وهما يتبادلان القبلات، ولكنها قالت له ببراعة : «هل تحب عمك الى هذا الحد ؟» . . وعندما رد بالايجاب قالت له : «هذا شيء طيب» . . وتركتهما بعد أن اخذت الدقيق الذي جاءت في طلبه . . منذ تلك الاونة أفاق كلاهما من غمرة الحمى التي انتابته، وانتقل أوريليانو- جوزيه للإقامة في الشكنات اذ كان في فترة التدريب العسكري . . .

وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتوارد أنباء متناقضة عن سير الحرب . . ففي حين اعترفت الحكومة ذاتها بتقدم حركة التمرد تلقى الضباط الموجودون في ماكوندو أنباء خاصة عن مفاوضات للصلح وقرب عقد هدنة . . وحرالى اول ابريل جاء رسول خاص الى الكولونيل جيريلدو ماركيز وأكد له ان زعماء

الحزب الليبرالي قد اتصلوا فعلا بقيادة التمرد في داخلية البلاد وأنهم بسبيل عقد هدنة في مقابل الحصول على ثلاثة مقاعد وزارية لليبراليين مع تمثيل محدود في الكونجرس، وعفو عام عن المتمردين الذين يضعون اسلحتهم . . وقد نقل الرسول امرا سريا من الكولونيل اوريليانو بوينديا الذي لم يقبل شروط الهدنة مؤداه ان يختار الكولونيل جيريلدو ماركيز خمسة من أفضل رجاله ويستعد لمغادرة البلاد معهم . . وقبل اعلان الاتفاق بأسبوع، وفي إبان عاصفة من الشائعات المتناقضة، وصل الكولونيل اوريليانو بوينديا الى ماكوندو سراً بعد منتصف الليل مع عشرة من ضباطه الموثوق بهم وفي عدادهم الكولونيل روك كارنيرو وصرفوا الحامية ودفنوا اسلحتهم ودمروا سجلاتهم . . وما ان اقبل الفجر حتى ارتحلوا عن البلدة، يرافقهم الكولونيل جيريلدو ماركيز وضباطه الخمسة المختارون . . ولقد بلغ من تكتم هذه العملية أن أورسولا لم تعلم بها إلا في اليوم التالي . . كما اكتشفت أن أوريليانو - جوزيه قد اوتحل مع أبيه . .

وبعد عشرة ايام صدر بلاغ مشترك من الحكومة والمعارضة يعلن انتهاء الحرب، مقترنا بنبا حركة التمرد الاولى من جانب الكولونيل أوريليانو بوينديا عند الحدود الغربية . . ولم تحتمل قوته الصغيرة المحدودة التسليح اكثر من اسبوع لتفريقها . . ولكن في خلال تلك السنة، بينما كان الليبراليون والمحافظون يحاولون اقناع البلاد بالمصالحة الوطنية، قام الكولونيل أوريليانو بوينديا بسبع محاولات أخرى للتمرد . . وفي احدى المناسبات اقترب من ماكوندو الى أقل من خمسة عشر ميلا، ثم اضطر الى الاختفاء في الجبال تحت ضغط الدوريات الحكومية . .

وانقطعت اخباره عن أورسولا مدى سنوات، تردد فيها أنه كف عن مناوأة حكومة بلاده، وانضم الى حركة الفيدراليين في الجمهوريات الأخرى بهدف توحيد الحركات الفيدرالية في امريكا الوسطى سعياً للقضاء على

أنظمة حكم المحافظين من الاسكا في الشمال الى بتاجونيا في الجنوب . . .
وكانت اول رسالة تلقتها اورسولا منه بعد سنوات عديدة من ارتحاله مثنية
وباهتة لتبادلها بين أيد متعددة، حتى لم تتمالك بعد أن علمت بمضمونها ان
هتفت :

- لقد فقدناه الى الابد . . . اذا واصل هذا الطريق فسوف يبقى مشرداً
في أرجاء الدنيا الواسعة . . .

كان الذي قالت له هذا الكلام، وهو أول شخص أطلعتة على
الرسالة، هو الجنرال راكيل موكادا عمدة ماكوندو المحافظ الذي عين في هذا
المنصب منذ نهاية الحرب . . . وقد رد عليها بقوله :

- من المؤسف ان اوريليانو هذا ليس من حزب المحافظين . . .

والواقع ان هذا الرجل كان معجباً بأوريليانو رغم اختلاف
انتماءاتهما . . . وكان شخصية دثة استطاعت ان تكتسب قلوب أهل البلدة
بعد أن طرح حزبته جانباً وقام فيها بإصلاحات واسعة أدت الى ازدهارها . . .
وقد حدث ذات مرة عندما اضطرته المناورات الحربية الى التخلي عن أحد
المواقع الحصينة للكولونيل أوريليانو بوينديا أن ترك له رسالتين : تضمنت
الاولى دعوة له الى مشاركته في القيام بحملة واسعة لجعل الحرب اكثر
انسانية، وكانت الرسالة الثانية موجهة الى زوجته التي كانت باقية في منطقة
تحت سيطرة الليبراليين، وشفعها برجاء منه لتوصيل الرسالة اليها . . . ومنذ
ذلك الحين درج القائدان العدوان، حتى في اشد مراحل الحرب ضراوة،
على ترتيب هدايا لتبادل الاسرى . . . وقد ادى ذلك الى توثيق عرى الصداقة
بين الاثنين . . . بل انهما فكرا في التنسيق بين المعطيات الأساسية للحزبين
بهدف تجاوز تأثيرات السياسيين المحترفين والعسكريين واستخلاص نظام
حكم إنساني يجمع أفضل ما في مبادئ كل من الفريقين . . .

وفي خلال ذلك كانت اورسولا رغم ضربات الزمن ترفض بعناد وإصرار الاستسلام للشيخوخة.. ومضت في توسيع صناعة الحلوى التي بدأتها منذ حين، واستطاعت بمساعدة سانتا صوفيا بيدال أرملة اركاديو، أن تجعل منها صناعة مزدهرة ضاعفت من مدخراتها.. وكان ذلك هو الموقف عندما هجر أوريليانو- جوزيه «ابن أوريليانو وتيريسرا» صفوف القوات الفيدرالية في نيكاراجوا وظهر أمام أورسولا في المطبخ قوياً كحصان، اسمر مرسل الشعر كالهناد، مصمماً بعزم على الزواج من أمارانتا..

وحالما رآته أمارانتا عرفت في الحال سبب قدومه، بيد أنها تحاشت الاجتماع به على انفراد.. غير أنه بعد شهرين من اعتكافها عنه، تسلل ليلاً الى مخدعها، فصدمته عنها قائلة :

- اخرج.. اخرج والا صرخت.. أنا عمتك!.. إنني كأملك، لا بسبب السن، ولكن لأنني ربيتك!..

وفي مناسبة أخرى قالت له بعد أن أرهقها بإلحاحه :

- انت وحش!.. لا يمكنك ان تتزوجني الا بتصريح خاص من روما..

ولما وعد أوريليانو- جوزيه ان يذهب الى روما ولو سعياً على ركبتيه خلال أوربا كلها لتقديم التماسه تحقيقاً لأمنيته المضطربة، ردت عليه أمارانتا بقولها :

- ليس هذا فقط.. ان زواجاً كهذا سوف يثمر أطفالاً لهم ذيول خنازير..

بيد أنه صم أذنيه عن كافة الحجج، قائلاً :

- لا يهمني حتى لو ولدوا خنازير كاملة!..

ولكن رفض أمارانتا كان قاطعاً . .

وبعد شهرين من عودة أوريليانو - جوزيه، جاءت إلى البيت الكبير امرأة وافرة النمو والقوة معطرة بالياسمين ومعها طفل في الخامسة من عمره وقالت إنه ابن الكولونيل أوريليانو بوينديا وأنها جاءت به إلى أورسولا لتتولى تربيته . . ولم يشك أحد لحظة في منبته، إذ كان صورة مطابقة للكولونيل وهو في طفولته . . وقد عمدوه باسم أوريليانو، مشفوعاً بلقب أمه، نظراً لأن القانون لا يسمح بحمل اسم الأب إلا بعد اعترافه بأبوة للإبن . .

كانت أورسولا في ذلك العهد لم تسمع بالعادة السارية وهي إرسال العذارى إلى مخادع مشاهير القادة لإنجاب ذرية ممتازة . . ولكنها لم تلبث في خلال هذا العام أن سمعت وعرفت . . وفي أقل من اثنتي عشرة سنة تولت التعميد، باسم أوريليانو ولقب الأم، لكافة الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل أوريليانو بوينديا في مختلف ميادين الحروب التي خاضها، وعددهم سبعة عشر . . وأول الأمر كانت أورسولا تملأ جيوب هؤلاء الصغار بالنقود وتحاول أمارانتا استبقاءهم لتربيتهم . . ولكنهم كانوا ينصرفون تباعاً مع مهاتهم، اكتفاء بالتعميد وما نالوا من نقود . . وكانت أورسولا تدون أسماء الأبناء وعناوين الأمهات في سجل خاص أعدته لهذا الغرض، قائلة :

- ان أوريليانو في حاجة إلى وثائق منظمة حتى يمكنه أن يبت في الأمور عندما يعود إلينا . .

وفي هذا قالت يوماً للعمدة موكادا أثناء دعوة للغداء وهي تعقب على هذا الخصب الفريد أنها تتمنى أن يعود الكولونيل أوريليانو بوينديا يوماً ما لكي يجمع كل هؤلاء الأبناء في البيت الكبير . . فرد عليها العمدة قائلاً بأسلوب غامض :

- لا تقلقي يا صديقتي العزيزة . . إنه سيعود بأسرع مما تتصورين . .

ان ما كان الجنرال موكادا يعرفه ولم يكن يرغب في اماطة اللثام عنه على مائدة الغداء، هو أن الكولونيل اوريليانو بوينديا كان فعلا في طريقه للقيام بأطول وأعنف حركة في سلسلة حركات التمرد التي قام بها حتى الان..

لقد عاد الموقف الى التأزم مثلما كان اثناء الشهور التي سبقت الحرب الاولى.. وتولى الكابتن اكويل ريكاردو قائد الحامية في ماكوندو تدريب قوات الاحتياط.. وكان الليبراليون يعدونه رجلا استفزازيا، حتى قالت اورسولا تحذر أوريليانو- جوزيه منه :

- سوف تقع هنا احداث رهيبه.. نصيحتي لك ألا تخرج الى الشارع بعد الساعة السادسة..

بيد أن نصائحها ذهبت ادراج الرياح، اذ كان أوريليانو- جوزيه، مثل اركاديو من قبل، قد شق عصا الطاعة عليها، ودفعه يأسه من حب أمارانتا الى التمرد على كل شيء.. وبعكس اركاديو الذي لم يعرف قط أبويه، اكتشف هو أنه ابن بيلار تيرنيرا، تلك التي اعدت له ارجوحة في بيتها لكي يقضي ساعة القيلولة كل يوم.. وكما فعلت أورسولا من قبل قالت له بيلار ناصحة :

- لاتخرج هذه الليلة.. ابق معي واقض ليلتك هنا.. ان صديقتك كارميليئا مونثيل تعبت من كثرة ما سألتني ان ادعها تقابلك عندي..

فلم يعد أن قال لها :

- قللي لها أن تنتظري عند منتصف الليل..

وذهب الى المسرح لمشاهدة مسرحية «خنجر الثعلب» ولم يعرف الا بعد أن قدم تذكرة الدخول ان الكابتن اكويل ريكاردو كان يقوم مع اثنين من الجنود المسلحين بتفتيش رواد المسرح، فقال له أوريليانو- جوزيه محذرا :

- احذر يا كابتن.. لم يولد بعد الرجل الذي يمكنه ان يضع يده عليّ..

فحاول الكابتن تفتيشه بالقوة، واذا لم يكن أوريليانو- جوزيه مسلحاً فقد لجأ الى الفرار.. وقد عصى الجنديان الامر بإطلاق النار عليه، حتى قال احدهما :

- إنه من أسرة بوينديا..

فما كان من الضابط الذي اعماه الغضب الا أن التزع منه البندقية وخرج الى وسط الشارع وسدد البندقية صائحا :

- يا جبناء !.. ليت كان الكولونيل أوريليانو بوينديا !..

كانت كارميليتا مونتييل بنت العشرين قد أتمت زيتها وتعطرها في بيت بيلار تيرنيرا عندما دوى صوت العيار الناري.. لقد تنبأت بيلار تيرنيرا ذات مرة بعد قراءة الطالع أن أوريليانو- جوزيه سوف يجد عند كارميليتا السعادة التي ضنت بها عليه أمارانتا، وأنه سوف يرزق منها بسبعة ابناء، وأنه سوف يموت بين ذراعيها ميتة الشيخوخة.. لكن الرصاصة التي دخلت ظهره وحطمت صدره قد ضلت طريقها بتأويل خاطيء لأوراق الطالع.. وأما الكابتن اكويل ريكاردو الذي كان مقدراً له أن يموت حقاً في تلك الليلة، فقد مات فعلاً، قبل أن يلفظ أوريليانو- جوزيه انفاسه الاخيرة.. فحالما دوى العيار الناري الذي صرع الشاب، خر الضابط صريعاً برصاصتين في لحظة واحدة لم يعرف أبداً مصدرهما، ودوت في سكون الليل صيحة من أفواه عديدة :

- يحيا الحزب الليبرالي !.. يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا !..

وعند منتصف الليل، بعد أن فاضت روح أوريليانو- جوزيه، تقاطر اكثر

من اربعمائة شخص أمام المسرح وأفرغوا مسدساتهم في جسد الكابتن
اكويل ريكاردو الطريح في الشارع . . واضطرت إحدى الدوريات الى نقل
جثمانه فوق عربة يد لشدة ثقلها بما استقر فيها من رصاص . .

وبحلول شهر سبتمبر كانت الانباء متضاربة . . فبينما اعلنت حكومة
المحافظين أنها وطدت سلطاتها في كافة أرجاء البلاد، كانت الانباء السرية
تتوارد على الليبراليين عن قيام حركات تمرد مسلحة في الداخل . . ولم
تعترف الحكومة بقيام حالة الحرب الا بعد صدور مرسوم بهذا اعقبه اجراء
محاكمة عسكرية صدر فيها الحكم بإعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا غيبيا . .
وصدر الأمر بأن أول وحدة عسكرية تتمكن من أسره عليها تنفيذ الحكم
فوراً . . وفي هذا قالت أورسولا للجنرال موكادا بلهجة الفرح :
- يعني هذا أنه عاد ! . .

والواقع ان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد عاد الى البلاد منذ أكثر من
شهر . . ولم يسلم الجنرال موكادا بعودته الى بعد أن أعلن رسمياً انه استولى
على ولايتين على الساحل . . وفي هذا قال لأورسولا وهو يريها البرقية التي
تلقها :
- تهاني يا صديقتي العزيزة . . قريباً سيكون عندك ! . .

ولأول مرة شعرت أورسولا بالقلق، وقالت :

- وما الذي ستفعله ؟ . .

إن الجنرال موكادا سأل نفسه هذا السؤال عديد المرات، وما لبث ان
رد عليها قائلاً :

- نفس ما سوف يفعله هو . . يا صديقتي . . سأقوم بواجبي . .

وفي فجر اليوم الاول من شهر اكتوبر هاجم الكولونيل أوريليانو بوينديا

ماكوندو بألف رجل مسلحين تسليحا قويا ، وتلقت الحامية أوامر بأن تقاوم حتى النهاية . . وعند الظهر ، بينما كان الجنرال موكادا يتناول طعام الغداء مع أورسولا ، انطلق مدفع للمتمردين دوى صدهاء في البلدة كلها ونسف الواجهة الامامية لدار الخزانة نسفا . . فتنهد الجنرال موكادا قائلا :

- إنهم مسلحون تسليحا جيدا مثلنا . . لكن الى جانب هذا فإنهم يحاربون لأنهم يريدون الحرب . .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر والأرض ترتج ارتجاجاً بنيران المدفعية من الجانبين ، استأذن من أورسولا وهو على يقين من أنه يقاتل في معركة خاسرة . . وقال لها :

- أدعو الله ألا يجيئك أوريليانو في البيت هذه الليلة . . . فإذا حدث هذا فلتقبله عني ، لأنني لا أتوقع أن ألتقي به أبداً مرة أخرى . . .

وفي تلك الليلة وقع أسيراً أثناء محاولته للفرار من ماكوندو بعد أن كتب رسالة للكولونيل أوريليانو بوينديا ذكره فيها بهدفهما المشترك لجعل الحرب انسانية ، وتمنى له الانتصار على فساد دعاة الحرب ومطامع السياسيين في كلا الحزبين . . . وفي اليوم التالي تناول الكولونيل أوريليانو بوينديا الغداء معه في بيت أورسولا حيث جرى احتجازه إلى أن تبت محكمة عسكرية في مصيره . . . وكان في الحق اجتماعا وديا . . . ولكن في الوقت الذي نسي فيه الغريمان الحرب لتذكر أحداث الماضي ، أحست أورسولا بالوجوم لما طالعها من تبدل أطوار ولدها واتجاهاته العدوانية . . . لقد شعرت بهذا منذ أن شاهده يدخل مصحوبا بحاشية عسكرية كبيرة عمدت إلى تفتيش غرف النوم وقلبها رأسا على عقب حتى اطمأنوا إلى عدم وجود أي خطر . . ولم يتقبل الكولونيل أوريليانو بوينديا هذا فقط ، بل إنه أصدر أوامر مشددة بعدم السماح لأحد بالاقتراب إلى أكثر من عشر أقدام حتى أورسولا ذاتها ، في

حين راح أفراد حرسه الخاص يكملون وضع الحراس حول البيت . . . وكان يرتدي كسوة عسكرية عادية بغير أية شارات ، وحذاء مرتفعاً بمهماز لطحه السطين والدم الجاف ، وتمنطق بحزام تدلى منه حامل مسدس مفتوح اللسان ، وكشفت يده التي كانت دائماً على مقبض المسدس مدى اليقظة والتحضر اللذين شفت عنهما نظراته . . حتى لم تتمالك أورشولا أن قالت لنفسها حين لمحت كل هذا وأكثر منه :

- رحماك يا ربي ! . . إنه يبدو الآن رجلاً لا يتردد عن شيء . . .

وحالما تم تنفيذ الأمر بدفن الموتى في قبر جماعي ، عهد إلى الكولونيل روك كارنيرو بمهمة تشكيل محكمة عسكرية ، وانهمك هو على الأثر في مهمة شاقة ، هي فرض اصلاحات راديكالية لا تدع حجراً في نظام حكم المحافظين في مكانه . . . وقال لمساعديه في هذا الصدد :

- علينا أن نسبق السياسيين في الحرب . . . فعندما يفتحون أعينهم على الواقع سوف يجدون أمامهم حقائق قائمة . . .

وكان من قراراته مراجعة عقود تملك الأراضي التي يرجع تاريخها إلى مائة سنة ، فاكشف المظالم الصارخة التي ألبسها أخوه جوزيه أركاديو ثوب القانون ، وسرعان ما ألغى تسجيلاتها بجرة قلم . . . ولكي يقوم بلفتة ودية ترك مهامه ساعة من زمن وزار أرملته ربيكا ليطلعهما على نواياه . . .

والحق أنه وجد هذه الأرملة التي كانت موضع سره في غرامياته المسكينة والتي كان لها الفضل في انقاذه من كثير من المآزق وهي في عزلتها في ظلال بيتها أقرب إلى شبح من أشباح الماضي وقد بدأ ينصحها أن تخفف من صرامة أحزانها ، وأن تدع الهواء يتجدد في المنزل ، وأن تغفر للدنيا ما نالها من قتل جوزيه أركاديو . . . بيد أن ربيكا كانت بمنأى عن هذا كله ، وقبعت في مقعدها الهزاز تنظر إليه وكأنه هو ذلك الشبح من أشباح

الماضي . . . بل إنها لم تنزعج بالنبأ الذي ساقه إليها عن الأراضي التي
إغتصبها جوزيه أركاديو وقرب أعادتها إلى ملاكها الشرعيين ، وإنما تنهدت
قائلة :

- إن كل ما تقرر يا أوريليانو سيكون أمراً نافذاً . . . كان رأيي فيك
دائماً ، وقد لمستّه الآن بالدليل ، إنك شخص مرتد عن كل معتقد كان لك . . .

وقد تمت مراجعة وتعديل عقود التمليك في نفس الوقت الذي انعقدت
فيه المحكمة العسكرية برئاسة الكولونيل جيريلدو ماركيز ، وانتهت بإعدام
كل الضباط الذين أسرتهم قوات المتمردين . . . وكان آخر من حوكم هو
الجنرال راكيل موكادا . . . وقد بادرت أورسولا بالتوسط من أجله ، وفي هذا
قالت للكولونيل أوريليانو بوينديا :

- إن حكمه كان من أفضل ما رأينا في ماكوندو . . . ولن أحدثك عن
طيبة قلبه ، وعن مودته لنا ، لأنك تعرف هذا أكثر من أي أحد آخر . .
فما كان من الكولونيل أوريليانو بوينديا إلا أن نظر إليها مستنكراً ، ورد
عليها قائلاً :

- لا يمكنني أن آخذ على عاتقي مهمة تصريف العدالة . . . إن كان
عندك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية . . .

وفي الحق أن أورسولا لم تفعل هذا فقط ، بل انها جمعت كل أمهات
الضباط المتمردين المقيمات في ماكوندو للشهادة . . . فأقبلن كلهن واحدة
واحدة ، وبينهن كثيرات ممن اشتركن في تأسيس البلدة غسر الجبال
والمستنقعات ، على أداء الشهادة وامتداح فضائل الجنرال موكادا ، وكانت
آخرهن أورسولا . . . وقد أدت حراسة دفاعها وقوة اقناعها وما تهيأ لها من
مهابة واعتبار بين الجميع ، إلى جعل ميزان العدالة يتأرجح فترة . . . إذ
راحت تقول لهم :

- إنكم أخذتم هذه العملية مأخذ الجد الخطير ، وخيرا فعلتم لأنكم تقومون
بواجبكم . . . لكن لا تنسوا أنه طالما أنعم الله علينا بالحياة فسوف ننظر نحن
أمهات ، ومهما كنتم ثوريين فإن لنا الحق في خلع بنطلوناتكم وتأديبكم بالعصا لأول
بادرة عدم احترام لنا نحن أمهاتكم ! . . .

وقد انسحبت المحكمة للمداولة وما زالت هذه الكلمات تتردد في
الأسماع . . . وعند منتصف الليل صدر الحكم بإعدام الجنرال موكادا . . . وقد
رفض الكولونيل أوريليانو بوينديا تعديل الحكم على الرغم من مهاترات
أورسولا . . . وقبل الفجر بقليل زار المحكوم عليه في زنزانة السجن ، وقال له :

- تذكر أيها الصديق القديم أنني لا أعدمك ، وإنما الثورة التي تعدمك . . .

لم يكلف الجنرال موكادا نفسه عناء النهوض من السرير الصغير عندما رآه
داخلاً ، ورد عليه قائلاً :

- اذهب إلى جهنم يا صاحبي . . .

لم يكن الكولونيل أوريليانو بوينديا قد منح نفسه حتى هذه اللحظة فرصة لقاء
الرجل قلبياً . . . وقد روعه الآن ما رآه من تقدمه في السن ورعشة يديه وانتظاره
للموت بالامثال المأثور عمن في موقفه ، وإذا هو يشعر بتقزز بالغ من نفسه ، مشوب
ببوادر الرثاء . . . ومهما يكن فإنه قال :

- أنت تعرف خيراً مني أن المحاكمات مهازل ، وأنت في الواقع تدفع ثمن
جرائم غيرك ، ذلك لأننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأي ثمن . . . أما
كنت تفعل نفس الشيء وأنت في مكاني ؟ . . .

نهض الجنرال موكادا لكي يمسخ نظارته السميكة في ذيل قميصه ، ورد قائلاً ؟

- جائز . . . لكن ما يقلقني ليس هو إعدامك الي ، لأن هذا بالنسبة
لأناس مثلنا هو موت طبيعي . . .

ووضع نظارته على الفراش ونزع ساعته وسلسلته ، واستطرد يقول :
- إن ما يقلقني هو أنه بعد كل أحقادك علينا ومحاربتنا بكل هذا
العنف ، قد انتهيت إلى صيرورتك أسوأ منا . . . ولم يعد في الحياة شيء
يوازي هذه الوضاعة . . .

ونزع خاتم زواجه وأيقونة العذراء ووضعهما بجانب النظارة والساعة ،
ثم اختتم قائلاً :

- وبهذا المعدل لن تكون فقط أشد دكتاتور طغياناً ودموية في تاريخنا ،
بل سوف تعدم صديقتي أورسولا في محاولة تهدئة ضميرك . . .

وقف الكولونيل أوريليانو بوينديا مكانه جامدا . . . وما لبث الجنرال
موكادا أن أعطاه النظارة والايقونة والساعة والخاتم ، ثم غير نبراته قائلاً :

- لكنني لم أبعث إليك لتأنيبك . . . إنما أردت أن أطلب منك معروفاً
. . . إن ترسل هذه الأشياء إلى زوجتي . . .

وضع الكولونيل أوريليانو بوينديا الأشياء في جيوبه قائلاً :

- أهى لا تزال في بلدة مانور ؟ . . .

فأبده الجنرال موكادا قائلاً :

- لا تزال في مانور . . . في نفس البيت القائم خلف الكنيسة . . .

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

- يسرني أن أفعل هذا . . .

وعندما خرج الى الهواء المشبع بالضباب شعر بالرطوبة تلفح وجهه . .
واستقبله فريق الرماة بالرصاص المصطفين تجاه الباب محيينه بتحية رئيس
الدولة فامرهم قائلاً :
- ليخرجوا به الان . .

الفصل التاسع

كان الكولونيل جيريلدو ماركيز هو أول من أدرك عقم هذه الحرب وخواءها.. وفي وضعه الأخير كقائد عسكري ومدني في ماكوندو، كان يتبادل الاتصال البرقي مرتين في الأسبوع مع الكولونيل أوريليانو بوينديا للاطلاع على آخر تطورات الاشتباكات والبت في اتجاهاتها المستقبلية.. وعلى الرغم من طول المحادثات البرقية بينهما، فقط لاحظ الكولونيل جيريلدو ماركيز في الآونة الأخيرة فتوراً غريباً في حماس الكولونيل أوريليانو بوينديا للخوض في تفاصيل المعارك الدائرة، حتى انتهى به الأمر إلى هذا الإحساس بعقم الحرب وخواتمها، وأصبح ملاذه الأخير لقتل الوقت والتخلص من أثقال الوحدة هو قضاء فترات بعد الظهر عند أمارانتا التي أحبها حبا عميقاً لم تقابله إلا بالفتور المهدب، ورغم ذلك ظل يتابعها بزياراته اليومية على أمل أن يلين قلبها يوماً ما..

ثم كانت المفاجأة بعد شهرين عندما ظهر الكولونيل أوريليانو بوينديا في ماكوندو على غير انتظار، تلك المفاجأة التي أذهلت صديقه الحميم وأذهلت حتى أورسولا، لما رأوه من تبدل أحواله.. فقد جاء هذه المرة بلا ضجيج، ولا حرس، ملتقاً بعباءة رغم شدة الحر، بصحبة ثلاث محظيات أسكنهن في نفس البيت، وأخذ يمضي معظم وقته ممدداً في أرجوحته.. وقلما كان يطلع على البرقيات التي كانت ترد عن العمليات العسكرية العادية..

وفي إحدى المناسبات زاره الكولونيل جيريلدو ماركيز يسأله عن

تعليماته بصدد اخلاء موقع على الحدود حيث كان ثمة خطر من تحول الصراع الى مشكلة دولية، فكان الرد هو :
- تضايقتني بالتفاهات... سل السماء... .

في ذلك الحين كانت الحرب تمر بمرحلة عصبية... فإن ملاك الاراضي الليبراليين الذين ساندوا الثورة في البداية قد تحالفوا سرّاً مع ملاك الاراضي المحافظين بهدف وقف عملية مراجعة وتعديل عقود الملكية... وعمد السياسيون الذين كانوا يزودون الثورة بالاموال وهم في المنفى الى التبرؤ علانية من أهداف الكولونيل أوريليانو بوينديا المبالغة في الشدة والتطرف... هكذا انتابه ضيق بالغ جعله ينصرف عن كل شيء ويخلد الى الاسترخاء واللامبالاة بعد أن بلغت الحرب مرحلة ركود شامل... وقد ظل على هذه الحال الى ان جاءت لجنة من الحزب الليبرالي كانت مخولة لدراسة اسباب هذا الركود الذي انتهت اليه الحرب... وفي مجلسه بين مستشاريه السياسيين راح يستمع في صمت الى مقترحات المبعوثين... فطلبوا أولاً نبذ مراجعة وتعديل عقود الملكية عملاً على استعادة تأييد ملاك الاراضي الليبراليين... وطلبوا ثانياً ان يتخلى عن محاربة النفوذ الكليريكي لكي يحصلوا على تأييد الجماهير التي تدين بالمذهب الكاثوليكي... ثم طلبوا اخيراً ان يعدل عن هدفه الخاص بالحقوق المتساوية للاطلاق الشرعيين وغير الشرعيين حفاظاً على تماسك البيت... .

وهنا قال، الكولونيل أوريليانو بوينديا باسمأ بعد أن فرغوا من قراءة المطالب... .

- معنى هذا أن كل ما نحارب من أجله هو السلطة... .

فرد أحد اعضاء اللجنة قائلاً :

- هذه مجرد تغييرات تكتيكية... المسألة الاساسية في المرحلة الراهنة

هي توسيع القاعدة الشعبية للحرب . . وبعد ذلك سوف تكون لنا نظرة
اخرى . .

وعندئذ سارع احد مستشاري الكولونيل اوريليانو بوينديا الى التدخل،
قائلا :

- هذه تناقضات، ومعناها أننا كنا نحارب مدى عشرين عاماً ضد
مشاعر الامة . . إن . .

بيد أن الكولونيل اوريليانو بوينديا أوقفه عن الاسترسال بإشارة من يده،
قائلا :

- لا تضيق وقتك يا دكتور . . الشيء المهم هو أننا منذ الآن فصاعداً،
سنحارب من أجل السلطة فقط . .

وتناول الوثائق التي جاء بها المبعوثون ونأهب للتوقيع عليها وما زال
يبتسم، قائلاً :

- لما كان هذا هو الموقف، فلا اعتراض عندنا للقبول . .

جعل رجاله يتبادلون النظر بعضهم الى بعض في جزع، وقال
الكولونيل جيريلدو ماركيز بصوت خافت :

- معذرة يا كولونيل . . لكن هذا يعتبر خيانة . .

فرفع الكولونيل اوريليانو بوينديا القلم في الهواء، وأفرغ جماع سلطته
عليه آمراً :

- سلم سلاحك . .

فنهض الكولونيل جيريلدو ماركيز ووضع سلاحه على المنضدة، بينما
مضى الكولونيل اوريليانو بوينديا في أوامره قائلاً :

- إرجع الى الشكنات، وضع نفسك تحت تصرف المحكمة الثورية . .

وما لبث ان وقع الوثائق وأعطاهما الى المبعوثين قائلاً :

- اليكم اوراقكم أيها السادة . . وأرجو أن تحصلوا منها على المزايا المطلوبة . .

وبعد يومين حوكم الكولونيل جيريلدو ماركيز بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام . .

وقد أعار الكولونيل أوريليانو بوينديا أذاناً صماء لكل طلبات الاسترحام التي قدمت اليه . . وفي ليلة التنفيذ خالفت أورسولا كافة الأوامر الصادرة بعدم إزعاجه، ودخلت عليه في مخدعه متشحة بالسواد بالغة الرصانة وابتدرته قائلة وهي واقفة طيلة الدقائق الثلاث التي حددت للمقابلة :

- أنا اعرف انك ستعدم جيريلدو، وليس في قدرتي ان أفعل أي شيء لمنع إعدامه . . لكنني أوجه اليك تحذيراً واحداً : في اللحظة التي أرى فيها جثته، فأقسم لك بعظام أبي وأمي، وأقسم لك بذكرى جوزيه اركاديو بوينديا، وأقسم لك أمام الله أنني سوف أجرك جراً من حيثما تكون مختبئاً، وأقتلك بيدي هاتين ! . .

وقبل أن تبرح الغرفة، ودون انتظار لأي رد، إختتمت قائلة :

- إن هذا يساوي عندي كما لو كنت ولدتك بذيل خنزير ! . .

وبعد ليلة عصبية أمضاها في التأمل واستعراض الماضي والحاضر، ظهر عند الفجر في زنزانه الكولونيل جيريلدو ماركيز قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ حكم الإعدام، وقال له :

- انتهت المهزلة ايها الصديق القديم . . هلم بنا من هنا قبل أن يتكفل البعض بتنفيذ الإعدام ! . .

فلم يستطع الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يكتف رنة الارتواء التي ابتعتها فيه هذا المسلك، ورد قائلا :

- لا يا أوريليانو. . خير عندي ان أموت من أن أراك تتحول الى طاغية دموي. . .

فقال له الكولونيل أوريليانو بوينديا :

- لن تراني هكذا. . إلبس حذاءك وساعدني لوضع حد لهذه الحرب القذرة. . .

والحق أنه حين قال قوله تلك لم يكن يعرف أن شن الحرب أيسر من وضع حد لها. . فقد لبث قرابة عام وهو يبدل جهودا عنيفة لإجبار حكومة المحافظين على عرض شروط صلح مقبولة لدى المتمردين ولبث عاما مثله وهو يجاهد لإقناع رفاقه في حمل السلاح بقبولها. . وفد توسل بكافة أساليب التشدد والقسوة لإنحماذ تمرد ضباطه الذين قاوموا وطالبوا بالنصر. حتى اضطر في النهاية الى الاعتماد على قوات العدو لحمل رفاقه على الامتثال. .

وباقتراب موعد الهدنة إغتنبت أسرة الكولونيل أوريليانو بوينديا بقرب عودته الى العيش في أحضانها، بعيدا عن ويلات الحرب وأعبائها الباهظة، ليكون بشرا عاديا مثل سائر الناس، حتى قالت أورسولا في هذا :

- سيكون لنا أخيرا رجل في البيت، كما كنا في الماضي. . .

ومن عجب ان الجيش الحكومي كان عليه أن يتولى حماية البيت عند هذه العودة المرتقبة. . إذ كان وصوله مقترناً بالشتائم والإهانات والانتهاام بأنه قد عجل بإنهاء الحرب بضمن باهظ. .

وفي خلال الأيام التالية التي استسلم فيها لمداداة جراحه الجسدية والنفسية، عمد الى إتلاف كل أثر يربطه بحياته الماضية. . فجرد ممسك

المعادن من كل ما له قيمة دائية، ووزع ملبسه على أتباعه من رجال المراسلة، ولم يحتفظ الا بطبينة بها رصاصة واحدة..

وقبل ذلك بساعات جاءت بيلار تيريرا لزيارته فراعته تقبلها في السن وترهل بدنهما وانحسار ضحكتهما الرنانة المرححة، وإنما راعه اكثر من هذا نفاذ نبوءاتها العجيبة في قراءتها للطالع، إذ حذرتة مرة أخرى، مثلما حذرتة وهو في قمة مجده :

- خل بالك من فمك ا..

وجاءه طبيبه الخاص.. وبعد أن فرغ من مداواة جروحته، طلب منه بلهجة عرضية ودون ما اهتمام معين ان يشير له بالتحديد الى موضع القلب.. فتسمع الطبيب بالسماعة ثم رسم دائرة على الصدر بقطعة قطن مغموسة في اليود، دون أن يعقب بسؤال..

وحل يوم توقيع الهدنة.. ففي الخامسة صباحا دلف الكولونيل أوريليانو بونديا الى المطبخ حيث شرب قهوته السوداء بغير سكر كعادته، وقالت له أورسولا :

- لقد جئت الى الدنيا في يوم ثلاثاء كهذا اليوم.. وكان الجميع في ذهول من عينيك المفتوحتين..

بيد أنه لم يلق اليها بسمعه اذ كان منصتاً الى أصوات تشكيلات الجنود وصدى الاوامر ا سكرية ودوي الابواق وهي تمزق سكون الفجر.. ومن عجب ان هذه الاصوات المألوفة لديه جعلته يغص بطعام الافطار ويصد عنه.. وعندما اقبل الكولونيل جيريلدو ماركيز مع زمرة من الضباط المتمردين لمرافقته الى مكان الاجتماع ألفاء صامتاً بالغ السهوم والوجوم.. وحاولت أورسولا ان تلقي بعباءة جديدة على كتفيه قائلة :

- ماذا سيظن رجال الحكومة عنك ؟.. سيظنون انك استسلمت

لأنه لم يبق عندك شيء يكفي لشراء عباءة لك ا... .

لكنه لم يقبل العباءة.. . وعندما خرج الى الباب تركها توضع على رأسه قبة قديمة من اللباد كان يلبسها أبوه جوزيه اركاديو بوينديا.. . وقالت له أخيراً :

- أوريليانو.. . عدني أنك إذا وجدت لها ساعة شديدة على نفسك هناك، فلتذكر أمك.. .

فرد عليها بابتسامة متباعدة، وخرج من البيت لمواجهة الصيحات والشتائم والحملات التي كان مقدراً ان تلازمه حتى مغادرته ماكوندو.. . وارتدت أورسولا الى الباب الخارجي فشدت رتاجه وفي عزمها ألا تفتح حتى نهاية حياتها، وهي تدير هذه الخواطر في نفسها : «سوف نفنى هنا، ونتحول الى تراب في هذا البيت الذي لم يبق فيه رجال، لكننا لن ندع لهذه البلدة النكدة فرصة الشماتة بنا ورؤية دموعنا ا... .»

وأضت ساعات الصباح كلها تبحث عن أي شيء يذكرها بولدها. بيد أنها لم تعثر على آثار تنفع للذكرى.. .

ووصل الكولونيل أوريليانو بوينديا الى مكان الاجتماع على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، حيث تلاقى الوفد الحكومي المحافظ مع وفد المتمردين الليبراليين في خيمة كبرى بجوار بلدة نيرلانديا.. . وكان راكبا بغلا موحلاً.. . وترك لحيته بغير حلاقة.. . وكان يقاسي من آلام جروحه أشد من مقاساته لحبوط أحلامه، ذلك لأنه وصل الى الحد الذي انتهت فيه كل الآمال والأحلام، وتلاشت كل الأمجاد والانتصارات.. . وعملاً بالتدابير التي طلبها، فقد خلا الاحتفال من الموسيقى او الألعاب النارية أو دق الاجراس أو هتافات النصر او غير ذلك من المظاهر التي تغير من الطابع الحزين للهدنة.. .

ولم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق.. . وكان بين

أعضاء الوفدين أواخر الضباط الذين بقوا على ولائهم للكولونيل أوريليانو بوينديا . . وعندما هم رئيس الوفد الحكومي بتلاوة بنود الاستسلام، أبى الكولونيل أوريليانو بوينديا قائلا :

- دعونا لا نضيع الوقت في الشكليات . .

وتأهب لتوقيع الوثائق دون قراءتها، وعندئذ قطع احد ضباطه السكون الثقيل قائلا له :

- يا كولونيل . . ارجوك ان تكرمنا بألا تكون أول الموقعين . .

فنزّل الكولونيل أوريليانو بوينديا على رجائه . . وجرت التوقيعات في صمت رهيب، الى أن بقي السطر الأول في كل وثيقة خلواً، حتى إذا هم الكولونيل بملئه، قال له ضابط آخر من رجاله :

- يا كولونيل . . لا يزال هناك وقت لتصحيح كل شيء . .

بيد أنه أجرى قلمه على الاوراق في المكان الخالي دون أن يتبدل شيء من ملامح وجهه . .

وما كاد يفرغ من التوقيع حتى ظهر في المدخل ضابط شاب يقود بغلا محملاً بصندوقين كبيرين . . كان امين صندوق المتمردين في منطقة ماكوندو . . وقد امضى ستة أيام في رحلة شاقة وهو يسحب البغل المائت من الجوع لكي يصل الى مكان الهدنة قبل فوات الاوان . . وما لبث ان انزل الصندوقين وأخذ يخرج منهما قوالب من الذهب بلغ عددها اثنين وسبعين وضعها فوق المنضدة . . لقد نسي الجميع وجود هذا الرصيد الضخم . . ففي فوضى العام الفات، عندما دب الانقسام الى القيادة المركزية لحركات التمرد وشاعت المنافسات الفردية بين زعمائها، كان من المستحيل قيام مسؤولية عن أي شيء . .

وفي الحال ادرج الكولونيل أوريليانو بوينديا قوالب الذهب جميعا في

صلب وثائق الاستسلام، واختتم الاجتماع دون أن يسمح بأي خطاب أو تعقيب.. بيد أن الضابط الشاب وقف في مواجهته متفرساً بعينه الهادئتين، حتى سأل الكولونيل :

- أي شيء آخر ؟

فأجاب الضابط وهو يشد على فمه :

- الإيصال ..

فكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا إيصال تسلم الذهب بخطه.. وانسحب على الأثر إلى خيمة ميدان أعدت له ليستريح إذا شاء.. فلما خلا إلى نفسه نزع قميصه وجلس على حافة الفراش الصغير، وفي الثالثة والرابع أخرج طبنجته وأطلق رصاصتها على نفسه في نطاق دائرة اليود التي رسمها طبيبه على صدره.. وفي تلك اللحظة رفعت أورسولا وهي في ماكوندو غطاء وعاء اللبن فوق الموقد وهي تعجب كيف استغرق فترة طويلة لكي يغلي، فوجدته مليئاً بالديدان.. فهتفت :

- انهم قتلوا أوريليانو.. لقد أطلقوا عليه النار في ظهره، ولم يجد إنساناً خيراً يغمض له عينيه !..

وعند الغروب جاءوا وهي تنتحب حاملين الكولونيل أوريليانو بوينديا ملفوفاً بملاءة كانت ما تزال متبسة بالدم الجاف وعيناه مفتوحتان حنفاً..

لقد نجا من الخطر.. فإن الرصاصة سلكت مساراً مستقيماً حتى استطاع الطبيب أن يدس فتيلاً مغمساً من اليود ويسحبها من الظهر.. وقال وهو في غاية الرضى :

- كانت هذه آية البراعة مني.. كانت هذه النقطة التي حددتها هي المسار الوحيد الذي يمكن أن تمر فيه الرصاصة دون أن تعطب أي عضو حيوي..

عندها نغم الكولونيل أوريليانو بوينديا على نفسه اذ لم يطلق الرصاصة في سقف حلقه كما كان في نيته أن يفعل ، حتى ولو بقصد السخرية من نبوءة بيلار تيرنيرا . . وقال للطبيب :

- لو كانت لي سلطتي الماضية لأمرت بإعدامك رمياً بالرصاص في الحال ! . .

ولقد أدى حبوط موته الى استعادة مكانته الذاهبة في غضون ساعات معدودات . . إن نفس الجماهير التي اختلقت قصة تقول إنه باع الحرب في مقابل غرفة جدرانها من قوالب الذهب ، قد وصفت محاولة الانتحار بأنها عمل من أعمال الشرف ، وأسبغوا عليه منزلة الشهيد . .

وفي مدى شهرين استطاع الكولونيل أوريليانو بوينديا ان يغادر غرفته ، وكانت نظرة واحدة الى مدخل البيت كافية لكي تعدل به عن كل تفكير في استئناف الحرب مرة اخرى . . فإن أورسولا قد انبرت بحيوية تفوق سنّها الى تجديد البيت ، إذ قالت عندما رأت أن ابنها سيقى على قيد الحياة :

- الآن سوف يرى الجميع من أنا . . لن يكون في الدنيا كلها بيت اجمل ولا ارحب من بيت المجانين هذا ! . .

فقد أجرت تنظيفه وطلاءه ، وغيرت أثاثه ، وأعادت الحديقة الى سابق رونقها وغرست فيها أزهاراً جديدة ، وفتحت الابواب والنوافذ حتى تتسرب أضواء الصيف الباهرة الى كافة الغرف حتى غرف النوم . . وأعلنت انتهاء فترات الحداد التي فرضتها من أجل الراحلين من أفراد الأسرة ، وأبدلت هي نفسها بثياب الحزن الكالحة ملابس اخرى ادنى الى طابع الشباب . . وانطلق عزف البيانولا يصدح من جديد في ارجاء البيت ويملاً جوه مرحاً . . ولم تتمالك أمارانتا اذ ذاك ان تذكرت بترو كريسي وتحركت اشجانها التي كانت هاجعة في قلبها الداوي ، ولكن الزمن طهره ونزع عنه كل حقد دفين . .

وذاث يوم بدا لأورسولا أن تستعين بجنود الحرس الذين كانوا يشرفون على حراسة البيت بأمر الحكومة - بدعوى حمايته - فلم يمانع رئيسهم الشاب . . وشيئاً فشيئاً اخذت أورسولا تعهد اليهم ببعض الأعمال . . وكانت تدعوهم لتناول الطعام ، وتعطيهم ملابس وأخذية ، وتكفلت بتعليمهم القراءة والكتابة . . وعندما امرت الحكومة بسحبهم استمر واحد منهم في الإقامة في البيت وظل في خدمة الاسرة سنين طويلة . . وفي عيد رأس السنة الجديدة عثر على قائد الحرس الشاب ميتاً تحت نافذة ريميديوس الجميلة بعد أن جن جنونه لطول ما صدته عنها . . .

الفصل العاشر

عندما كبر الشقيقان التوأمان جوزيه اركاديو الثاني وأوريليانو الثاني «ابنا اركاديو» كانت الأسرة في حيرة من تصرفاتهما . . فقد بلغت المشابهة بينهما والمشاكسات الصادرة منهما حداً جعل حتى أمهما سانتا صوفيا بيدال تعجز عن التفريق بينهما ومعرفة من منهما المسمى بالاسم الذي أطلق عليه، دون خلط أو التباس . .

على أن هذا اللبس ما لبث أن تغير بعد تجاوزهما سن المراهقة، فإن اوريليانو الثاني استحال الى فتى ضخم البنية مثل أجداده، بينما شب جوزيه اركاديو الثاني بادي العظام مثل الكولونيل، وكانت المشابهة المشتركة بينهما هي سمة الانطواء والعزلة . .

ثم تكشف الفارق الحاسم بينهما في إبان الحرب، عندما طلب جوزيه اركاديو الثاني من الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يدعه يشهد عملية من عمليات تنفيذ حكم الإعدام . . بعكس أخيه اوريليانو الثاني الذي ارتاع من هذه الفكرة مفضلاً البقاء في البيت . . وفي هذه المناسبة طلب من جدته أورسولا أن تريحه الغرفة المغلقة التي كانت معملاً لجدّه الأكبر «جوزيه اركاديو بوينديا» والتي أطلق عليها في ما بعد اسم «غرفة مالكويداس» وجمع فيها كل ما تركه ذلك «العجري» الحكيم من كتب ومخطوطات فلم تجد أورسولا إزاء إلحاحه إلا أن تعطيه مفتاح الغرفة . .

ومن عجب أن أوريليانو الثاني عندما فتح الغرفة لم يجد بها أثراً للأتربة والعناكب كما تصور، ووجد الكتب مصفوفة والمخطوطات منسقة . . وحين

تناول احد الكتب وقرأ بعض ما فيه راعته اعاجيب القصص التي تضمنها . .
أما المخطوطات فقد عجز عن فك طلاسمها إذ كانت بخط اقرب الى الرموز
الموسيقية . . وقد بلغ من فرط انبهاره بالغرفة وما فيها، ان ساوره ذات يوم
إحساس خفي بأنه يرى شبح مالكويداس دائما في ظلال الغرفة، على
استعداد لتنويره بكل ما يستعصي عليه فهمه وتزويده بالحكمة التي نهل منها
جده الاكبر . .

أما جوزيه اركاديو الثاني فقد خرج من تجربة مشاهدة عملية تنفيذ
الإعدام بفزع بالغ جعله يمقت الحرب ويهرب الى برج الكنيسة لكي يلدق
ناقوسها لمساعدة الاب انطونيو ايزابيل والعناية بديوك المصارعة في حوش
الأبرشية . . ولما اكتشفت الكولونيل جيريلدو ماركيز الحقيقة زجره بشدة
لاهتمامه بأشياء يستنكرها الليبراليون، فرد قائلا :
- الحقيقة هي أنني صرت من المحافظين، كما اظن . .

وعندما تضايق الكولونيل جيريلدو ماركيز وأبلغ اورسولا قالت له
متعاطفة مع حفيدها :

- هذه الكيفية أفضل . . ندعو الله ان يصبح قسيساً، لكي يحل الايمان
في بيت المجانين هذا . .

ولكن جوزيه اركاديو الثاني احترق مصارعة الديوك . . ولما رآته
اورسولا يدخل البيت لأول مرة بديوكه عارضته بشده قائلة انها تجلب
النحس، وإن احد اسلاف الاسرة قتل منافساً له بسبب هذه الديوك
المشؤومة . . ولكنه استمر في تربيتها في بيت بيلار تيرنيرا «جدته»، التي
اعطته كل ما يحتاج اليه في مقابل اقامته عندها . .

أما أخوه أوريليانو الثاني فكانت أطواره أدنى الى العجب . . ففي الفترة
التي أمضاها عاكفاً على القراءة في غرفة مالكويداس كان منطوياً على نفسه

مثلما كان الكولونيل أوريليانو بوينديا في شبابه . . ولكن بعد توقيع معاهدة الصلح في «نيرلانديا» حدث ما أخرجه عن انطوائه وجعله يواجه واقع الدنيا . . فقد التقى ذات مرة بامرأة شابة كانت تبيع «يا نصيب الكارتيلا» لجائزة «أكورديون» وحيته بحفاوة ومعرفة أكيدة، فلم يدهش أوريليانو الثاني إذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين أخيه التوأم . . بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن أخذته المرأة إلى حجرتها . . والواقع أن المرأة أحبته حباً شديداً منذ لقائهما الأول، حتى دبرت الأمور بحيث تكون جائزة «الأكورديون» من نصيبه عند سحب أرقام «الكارتيلا» وبعد انقضاء أسبوعين تحقق أوريليانو الثاني أن المرأة كانت تعاشره بالتناوب مع أخيه، معتقدة أنهما شخص واحد . . وبدلاً من أن يعمل على تصحيح الخطأ قرر أن يطيل أمد الموقف . . ولم يعد يذهب إلى غرفة مالكويداس . . وإنما كان يمضي عصر كل يوم في فناء البيت يتدرب على العزف على «الأكورديون» بالرغم من اعتراضات أورسولا التي كانت في ذلك الحين قد حرمت عزف الموسيقى في البيت بسبب الحداد العائلي ولأن «الأكورديون» في نظرها كان صنعة المتسولين . . وعلى الرغم من ذلك فإن أوريليانو الثاني غدا بارعا في العزف على «الأكورديون» وظل كذلك حتى بعد أن تزوج وأنجب اولاداً وأصبح من أكثر الناس احتراماً في ماكوندو . .

لقد دامت العلاقة بين بائعة «الكارتيلا» والأخوين شهوراً . . ولكن «جوزيه أركاديو» الثاني مرض وانسحب . . أما أوريليانو الثاني فقد صارحها بالحقيقة والتمس صفحها، وبقي معها حتى مماته . .

كانت المرأة تدعى بيترا كوتيس، وكانت قد جاءت إلى ماكوندو في إبان الحرب مع زوج عرضي يرتزق من «الكارتيلا»، وبعد وفاته استمرت في المهنة . . كانت شابة مولدة ذات عينيْن لوزيتين أسبغتا على وجهها شراسة أفعى البانثر، بيد أنها كانت طيبة القلب فوارة العاطفة . . وبعد أن تحققت

أورسولا أن جوزيه أركاديو الثاني احترف مصارعة الديوك وأن أوريليانو الثاني يعزف على الاكورديون في تلك الحفلات الصاخبة التي كانت تقام في بيت عشيقته، بدا لها أنها توشك ان تفقد عقلها بشذوذ أطوار هذا الشائني العجيب، حتى لكان نقائص الاسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت في الاثنين. . . وعلى الرغم من أن أورسولا قد بلغت المائة من عمرها وأوشكت ان تفقد البصر بسبب «المياه البيضاء» فقد ظلت محتفظة بحيويتها البدنية الفائقة، واستقامتها الخلقية الماثورة، واتزانها العقلي الموفور. . . وقد نذرت في نفسها اذا تزوج احد حفيديها وأنجب ولداً أن تتولى هي تربيته وصياغته ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة. . . الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات. . . وهي النقائص التي عدتها عوامل فعالة في تفويض مكانة اسرتها. . .

أما أوريليانو الثاني الذي مضى رغم ذلك في حياته العابثة، فقد اعتبر أن ما ناله من ثراء بعد ذلك انما كان وليد علاقته مع بيترا كوتيس كما سيرى القارئ في ما يلي. . . ان بيترا كوتيس ظلت حتى نهاية الحرب تعول نفسها بما تربحه من بيع «الكارتيللا»، وكان أوريليانو الثاني يساعدها بما يسطو عليه بين حين وآخر من مدخرات أورسولا. . . وظل الاثنان يعيشان عيشة ماجنة، حتى اذا عاد أوريليانو الى بيته عند الفجر كانت أورسولا تتلقاه صائحة :

- إن هذه المرأة هي سبب ضياعك. . . إنها سلطت عليك سحرها الى حد انني سأراك يوماً وأنت تتلوى من المرض والالام. . .

بيد أن أوريليانو الثاني لم يفكر وقتها الا في ايجاد حرفة تمكنه من اقامة بيت لبيترا كوتيس، يعيش معها بين جدران متفانين في الحب حتى الممات. . . وعندما فتح الكولونيل أوريليانو بونديا مسبكه المعدني مرة

اخرى، بدا لأوريليانو الثاني أن يتعلم صناعة حلى الاسماك الذهبية ليتخذ منها مورداً للعيش... بيد أن المشقة التي كابدها في فترة ثلاثة أسابيع من التدريب جعلته يهرب من المسبك... وحدث في خلال هذه المدة أن بيترا كوتيس خطر لها ان تجعل الارانب جائزة الربح في «الكارتيل»... والواقع أن الارانب تكاثرت بسرعة غريبة الى حد أن الوقت لم يكن يتسع لبيع تذاكر «الكارتيل» بالتوازي مع تكاثر الارانب... ولم يتمالك أوريليانو الثاني ان قال لها ذات صباح وقد اذهلته كثرة الارانب في الحوش :

- لماذا لا تجعلين جائزة «الكارتيل» على البقر ؟ .

وفي محاولة من بيترا كوتيس لتنظيف الحوش قايضت على الارانب ببقرة، انجبت بعد شهرين ثلاثة عجول !..

كانت هذه هي البداية... وفي سنوات قلائل، ودون ما جهود تذكر، وإنما بعامل الحظ وحده، جمع أوريليانو الثاني ثروة من اكبر الثروات في منطقة المستنقعات، بسبب ذلك التكاثر الخارق للمواشي... كانت الأفراس تلد ثلاثاً، والدجاج يبيض مرتين كل يوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة ان احدا لم يصدق هذه الخصوبة الفذة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود... ورسخ في ذهن اوريليانو الثاني ان حظه العجيب هذا انما هو بتأثير بيترا كوتيس، حتى أنه كان يحرص دائماً على عدم ابعادها عن مراعيه وحظائره، بل أنه بعد أن تزوج وأنجب ابناء استمر يعايشها بموافقة زوجته فرناندا !..

هكذا اصبح اوريليانو الثاني بين عشية وضحاها مالكاً لأراضٍ وماشية متزايدة لم يكن يجد حتى الوقت لتوسيع حظائرها... وأضحت حفلاته الصاخبة التي كان يريق فيها الشمبانيا بغير حساب مثار العجب في أرجاء ماكوندو... وعبثاً كانت أورسولا تزجره لهذا الإسراف الذي لا حد له، اذ كان

يقابل زجرها بالتمادي وهو يضحك طرباً واستخفافاً . . بل إنه جاء ذات مرة بصندوق مليء بأوراق البنكنوت وإناء به معجون وأخذ يلصق الأوراق على حوائط البيت داخلاً وخارجاً بين انفعال الأسرة وتفجع أورشولا وطرب الجمهور الحاشد في الشارع، حتى صاح أخيراً بأعلى صوته :

- الآن لن يكلمني أحد في هذا البيت عن النقود مرة أخرى . .

وقد عمدت أورشولا الى انتزاع أوراق البنكنوت وطلاء البيت باللون الأبيض من جديد، وهي تدعوقائلة :

- سألتك، يا الهي، ان تعيدنا فقراء كما كنا عندما أنشأنا هذه البلدة حتى لا نجزي بهذا الاسراف في آخرتنا! . .

ومن عجب أن الدعاء جاء بعكس ما استهدفت . . فإن أحد العما القائمين بنزع أوراق البنكنوت اصطدم بتمثال ضخم من المصيص للقديس يوسف تركه أحدهم في البيت اثناء السنين الأخيرة للحرب وسقط التمثل الأجوف محطماً على الأرض . . كان التمثال محشواً بالعملات الذهبية . ولم يستطع أحد أن يتذكر من الذي جاء بهذا التمثال . . وفي هذا قال أمارانتا :

- إن ثلاثة رجال جاءوا به ورجونا أن نبقى عندنا الى أن تنتهي الأمطار، فطلبت منهم أن يضعوه هناك في الركن حتى لا يصطدم به أحد، ففعلوا، وبقي في مكانه منذ ذلك الوقت، لأن أحداً لم يعد قاطعاً للمطالبة به . .

إن هذا الحادث ضايق أورشولا، إذ كانت تعتقد بادئ الأمر انه تمثال قديس حقيقي حتى أنها وضعت شمعة فوقه وأخذت تصلي أمامه . . فلما تبين الحقيقة الآن لم تتمالك إذ بصقت على كوم الذهب البراق وعمدت الى وضعه في ثلاثة أكياس من القنب دفتها في مكان سري، مؤملة أن يعود الرجال المجهولون عاجلاً أو آجلاً لاستردادها . . .

في ذلك العهد كانت ماكوندو تنعم بالرحاء وقد استخالت بيوتها القروية الى ابنية ذات مصاريع خشبية وأرضية من الاسمنت، مما جعل حر الظهيرة الخائق اقرب الى الاحتمال.. ثم بدا لجوزيه أركاديو الثاني ان ينشئ مشروعاً ملاحياً يربط البلدة بالعالم الخارجي فعمل على تطهير قاع النهر من صخوره وشق قناة تصله بالبحر.. ولما اطلع اخاه اوريليانو الثاني على مشروعه لم يبخل عليه بالمال، واختفى عن الأنظار مدة طويلة حتى ظن الكثيرون أن خطته لشراء سفينة لم تكن سوى خدعة للهرب بمال أخيه.. الى أن جاء يوم هرع فيه سكان ماكوندو الى النهر وعيونهم جاحظة من الدهول، اذ شاهدوا جوزيه أركاديو الثاني يتصدر أول وآخر سفينة تمخر مياه النهر الى البلدة...

لم تكن في الواقع سوى طوف خشبي كبير يجذبه بالحبال عشرون رجلاً يتقدمون بمحاذاته على الضفة، وقد وقف في مقدمته جوزيه أركاديو الثاني تلمع عيناه زهواً وهو يشرف على العملية.. ولقد وصلت معه مجموعة من نساء فرنسيات تحت مظلات ملونة تقيهن حرارة الشمس المتقدمة، وقد تدلت فوق اكتافهن مناديل حريرية كبيرة هفافة، وازدانت وجوههن بمعالجين ملونة، ورشقن الزهور الطبيعية في شعورهن، والتفت حول أذرعهن ثعابين من الذهب، ولمعت أسنانهن بالماس.. ومن عجب أن جوزيه أركاديو الثاني بعد أن اطلع أخاه على تفاصيل المغامرة التي عدها دليلاً على قوة الارادة لا أكثر، ما لبث ان عاد الى ديوكة المتصارعة، وقضى على مشروع الخط الملاحى بالفشل.. وكان الأثر الوحيد الذي بقي من هذه المحاولة الفاشلة هو روح التجديد التي جاءت بها النساء الفرنسيات، بما أدخلته من التطور الاجتماعي والسلوكي في هذا المجتمع المنعزل المغلق، الى حد أن هذا الأثر امتد الى حانة كاتارينو العتيقة التي اغلقت ابوابها كساداً، واستحال الشارع ذاته الى ساحة تضيئها المصابيح البدائية وآلات العزف العصرية..

بل إنهن كن صاحبات السبق في إقامة «الكرنفالات» التي جعلت ماكوندو تعيش ثلاثة أيام في جو مرح صاخب محموم. . . وكانت النتيجة النهائية لهذا كله هي إتاحة الفرصة لأوريليانو الثاني للالتقاء بزوجته فرناندا ديل كاربيو. . .

لقد اختيرت اخت ريميدوس الجميلة ملكة لمهرجان الكرنفالات ولم تستطع أورسولا التي كانت مروعة لجمال حفيدتها الصغرى الصاعق ان تمنع هذا الاختيار. . . وكانت حتى ذلك الحين قد أفلحت في إبعادها عن أعين الناس خارج البيت، اللهم الا عند الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس مع أمارانتا، ولكنها كانت تحملها ووجهها خلف شال اسود. . . ومن الناس من كانوا يذهبون الى هناك لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على محيا ريميدوس الجميلة التي كانت ملاحظتها الفاتنة مثار الاحاديث المحمومة في ارجاء اقليم المستنقعات.

والحق ان ريميدوس الجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا. . . لقد ظلت حتى سن المراهقة تحت رعاية امها سانتا صوفيا بيدال التي كانت تتولى تحميمها وإلباسها، وكانت تضعها تحت المراقبة لثلاث تشوه الحوائط بالرسوم الغريبة التي تنقشها. . . وبلغت العشرين من عمرها دون ان تعرف القراءة والكتابة، جاهلة باستعمال ادوات المائدة، جائلة في ارجاء البيت عارية اذ كانت طبيعتها تنبذ التستر. . . وعندما طالعها قائد الحرس الشاب بحبه صدته عنها ببساطة لأن «مجنونه روعها»، وفي هذا قالت لأمارانتا :

- انظري الى سذاجته ! . . قال لي إنه سيموت بسببي، كأني مريض
معد يؤدي الى الموت ! . .

وعندما عثروا على الضابط الشاب صريعاً نحت نافذتها، لم تعد ان
قالت لأمارانتا :

- ألم أقل لك إنه ساذج . . .

إن أورشولا من ناحيتها قد حمدت الله أن منح الأسرة مخلوقة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كانت في نفس الوقت يقلقها مثل هذا الجمال، الذي عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة . . . ومن أجل هذا كان حرصها على إبعاد ريميديوس الجميلة عن الدنيا، حماية لها من كل اغراء دنيوى، غير عالمة بأنها كانت حتى وهي في رحم أمها بمنأى عن كل عدوى . . . ولم يخطر ببالها قط أنهم سيختارونها ملكة جمال الكرنفال الجنوني، ولكن أوريليانو الثانى الذى استدت به نزوة التنكر في إهاب نمر، استقدم الاب انطونيو ايزابيل الى البيت لإقناع أورشولا بأن الكرنفال ليس من الطقوس الوثنية كما قالت، بل هو من الممارسات التي لا تتنافى مع العقيدة . . . ولما اقتنعت في النهاية، وأن كان على كره منها، وافقت على التتويج . . .

وسرعان ما انتشر نبأ اختيار ريميديوس بوينديا لتتويجها ملكة في المهرجان. حتى تجاوز حدود اقليم المستنقعات في ساعات معدودة ووصل الى مناطق بعيدة لم تسمع بجمالها، الأمر الذي اثار قلق الدوائر التي ما زالت ترى في لقبها العائلي «بوينديا» رمزاً لحركات التمرد . . . ولم يكن ثمة أساس لهذا القلق . . . فلو كان هناك احد قد انحاز الى السلم والمهادنة فقد كان هو الكولونيل أوريليانو بوينديا، الذي دبت اليه الكهولة، وبعدت صلواته بكافة احوال أمته، والذي اعتكف في مسبكه المعدني يقتل الوقت بصياغة حللى الاسماك الذهبية الصغيرة . . .

هكذا لم يكن ثمة أساس للقلق الناجم عن عودة اسم عائلة «بوينديا» للظهور على نطاق شعبي لمناسبة اختيار ريميديوس بوينديا لكي تتوج ملكة فى مهرجان الكرنفالات، وإن كان هناك العديدون ممن لم يروا هذا الرأي . . . ومهما يكن فإن البلدة التي كانت غافلة عن الفاجعة التي تتهددها تدفقت الى الميدان الرئيسي في موجات صاخبة من المرح . . . وقد بلغ المهرجان ذروته

من الهوس، وحقق أوريليانو الثاني حلمه أخيراً بالتنكر في إهاب نمر والسير في غمار الزحام وقد بح صوته من فرط الصياح والانفعال، عندما ظهر على طريق المستنقعات موكب من عديد الاشخاص يحملون في محفة مذهبة ابهى امرأة يمكن أن يتصورها الخيال... وفي مدى لحظة نزع أهل ماكوندو أقنعتهم لكي يحسنوا النظر الى الانباسة المنمقة الزهراء ذات التاج الزمردي والعباءة المحفوفة بالفراء الثمين والتي بدا وكأنها ملكة شرعية لا مجرد صورة مصنوعة... وكان لكثير من الفطنة ما جعلهم يعدون هذا البهاء من قبيل الإغراء والإثارة... ولكن أوريليانو الثاني سرعان ما تغلب على حيرته وأعلن أن الوافدين الجدد هم ضيوف شرف، وبادر فأجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على نفس العرش الذي أعد للتويج... وحتى منتصف الليل ظل الوافدون الغرباء، المتنكرون في أزياء بدوية، يشاركون في البهجة المحمومة، بل انهم ضاعفوا من أسباب المرح والبهجة بإطلاق ألعاب نارية وممارسة عروض بهلوانية جعلت الناس يتذكرون أفانين «العجبر»...

ثم فجأة، وفي ذروة الابتهاج والحبور، صاح احدهم هاتفا :

- يحيا الحزب الليبرالي !... يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا !...

وسرعان ما دوت طلقات الرصاص تغطي قصف الالعب النارية، وانبعثت صيحات الفرع تبتلع عزف الموسيقى، واستحالت البهجة الى ذعر وهلع... وبعد انقضاء سنوات عديدة على هذه الفاجعة، ظل الكثيرون يؤكدون ان حراس الملكة الوافدة الدخيلة كانوا من الجنود النظاميين الذين أخفوا بنادقهم الحكومية تحت العباءات البدوية الفضفاضة، برغم ما اذاعته الحكومة في بيان رسمي من دحض هذا الاتهام... وبعد أن ساد الهدوء لم يبق في البلدة احد من البدو الزائفين، وتناثرت على أرض الميدان جثث القتلى والجرحى في ثياب التنكر : اربع راقصات بانتوميم، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان، وثلاث مغنيات، واثنان من نبلاء فرنسا، وثلاث

إمبراطورات يابانيات . . وفي غمرة الفزع أفلح جوزيه لاركاديو الثاني في أنقاذ ريميديوس الجميلة وحمل أوريليانو الثاني الملكة الدخيلة الى البيت بين ذراعيه وقد تمزق رداؤها وتلوثت عباؤها بالدم . . كان اسمها فرناندا ديل كاريو . . وكان الاختيار قد وقع عليها كواحدة من أجمل خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد، وقد جاءوا بها الى ماكوندو بناء على وعد بتسميتها ملكة مدغشقر . . وتولت أورسولا العناية بها كما لو كانت ابنة لها . . وبدلاً من ان ترتاب البلدة في أمرها فقد عطفت عليها ورثت لما نالها . . وبعد ستة أشهر من المجزرة، وبعد أن شفي الجرحى وذبلت الزهور فوق القبر الجماعي للقتلى، مضى أوريليانو الثاني لاستقدامها من المدينة البعيدة التي كانت تقيم فيها مع أبيها، وعقد قرانه عليها في ماكوندو في احتفال كبير امتد عشرين يوماً . .

الفصل الحادي عشر

كاد الزواج ان يتحطم بعد شهرين ، لأن أوريليانو الثاني في محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس عمل على تصويرها في زي ملكة مدغشقر . . وعندما اكتشفت فرناندا ما حدث ، حزمت حقائب العرس وغادرت ماكوندودون كلمة وداع . . واستطاع أوريليانو الثاني ان يلحق بها على طريق المستنقعات ، وبعد توسلات كثيرة ووعود بالاستقامة أفلح في إعادتها الى بيت الزوجية ، وهجر عشيقته . . .

وثقة من بيترا كوتيس في قدرتها ، فإنها لم تبد أي قلق أو انزعاج ، وهي التي أخرجته من عزلته وقلة خبرته ، وصاغت منه رجلا يعرف كيف يستمتع بالحياة ، فضلا عن تأثيرها في إنماء ثروته . . . وكان الشيء الوحيد الذي استبقته عندها من ملابس هو زوج الحذاء الفاخر الذي قال إنه يريد الاحتفاظ به للبس في التابوت حين وفاته . . وفي هذا قالت بيترا كوتيس لنفسها مصابرة :

- سوف يعود اليّ عاجلا أو آجلا ، حتى ولو لمجرد لبس الحذاء . . .

ولم يكن لها أن تنتظر طويلا . . . فالحقيقة أن أوريليانو الثاني ادرك منذ ليلة الزفاف أنه عائد الى بيت بيترا كوتيس لا محالة . . . فإن فرناندا كانت امرأة غريبة الاطوار هائمة في هذه الدنيا . . . لقد نشأت في تلك المدينة القائمة ، التي تبعد ستمائة ميل والتي تدرج فيها المركبات الملكية ، نشأة قوامها التزمت والاعتكاف في بيت أبوين من اسرة رفيعة . وكثيراً ما سمعت أمها المريضة تردد على سمعها :

- كانت جدتك الكبرى ملكة . . وسوف تصبحين أنت ملكة ذات

يوم . . .

لقد صدقت فرناندا هذا الكلام حتى بعد وفاة أمها وإدخالها الدير وهي في الثانية عشرة من العمر للتعليم، وحتى بعد اضطرار والدها «دون فرناندو» لرهن بيت الأسرة ليتمكن من شراء جهاز العرس طبقاً للتقاليد . . وبعد ثماني سنوات عادت إلى البيت لتجده مجرداً من الأثاث الفاخر والتحف الثمينة التي اضطر أبوها لبيعها سداداً لنفقات تعليمها . . . وهكذا مضت فرناندا في عيشتها المنزوية لا أصدقاء لها ولا تعرف شيئاً من أحوال الدنيا حولها، حتى ولا أبناء الحرب التي كانت تمزق البلاد، ولا يشغلها سوى تعلم دروس البيانو وصنع الكاليل الموتى . . بل إنها بدأت تفقد الحلم الذي راودها بأن تصبح ملكة في يوم ما بتأثير ما نبتته أمها في رأسها، إلى أن جاء يوم سمعت فيه دقاً آمراً على الباب الخارجي، ولما فتحتة طالعها ضابط شاب أنيق، وطلب مقابلة أبيها . . . وبعد أن اختلى به ساعتين خرج الأب إليها في غرفة الحياكة وقال لها :

- جهزي امتعتك . . ستقومين برحلة طويلة . .

وعلى هذه الصورة كانت رحلتها إلى ماكوندو التي صاحبوها إليها دون أن تعرف ما يراد بها . . وفي ليلة واحدة صدمتها الدنيا صدمة قاسية عنيفة بواقعها المرير وحقيقتها المروعة . . وبعد عودتها إلى البيت أغلقت على نفسها باب غرفتها واستسلمت للبكاء والنحيب، غير عابئة باستعطاف «الدون فرناندو» لها ومحاولات الشرح والتفسير رغبة في تلافى آثار الجراح العميقة التي خلقتها تلك الدعابة الخادعة الغريبة . . وقد أقسمت ألا تبرح غرفتها حتى الموت، عندما جاء أوريليانو الثاني للزواج منها . .

كان ذلك هو بداية حياتها الفعلية . . وكان في نفس الوقت هو البداية، والنهاية، لسعادة أوريليانو الثاني . . .

منذ ليلة الزفاف أبدت فرناندا تزمناً غريباً حتى صدفت عن فراش الزوجية مدى اسبوعين كاملين مما اضطر أوريليانو الثاني الى اطالة أيام الفرح عشرين يوماً دارت فيها الشمبانيا ونحرت فيها الذبائح وأقيمت الولائم بكرم باذخ، والسر كما اكتشفت أورسولا أن فرناندا كانت ملتزمة بمراعاة أيام معينة طبقاً لتقويم لقتته وهي في الدير...

ولما ثابت اليه في النهاية عانى من تزمته الامرين، حتى لم يمض شهر الا وقد رجع الى بيت بيترا كوتيس وأخذ لها تلك الصورة في زي الملكة على ما تقدم... وبعد أن أفلح في إعادة فرناندا الى بيت الزوجية وخفت حدة تزمته، أحس في النهاية أنها لا تستطيع أن تهيء له تلك السعادة التي راودت خاطره حين سعى اليها في تلك المدينة البعيدة للفوز بالزواج منها...

ثم ذات ليلة، قبل فترة قصيرة من مولد طفلها الأول، عرفت فرناندا أن زوجها قد عاد سرّاً الى بيت بيترا كوتيس... وقد اعترف لها بذلك وقال يشرح لها الموقف بلهجة المستسلم لقضائه :

... هذا ما حدث... وكان لا بد لي أن أفعل هذا، لكي تستمر المواشي في التكاثر والزيادة...

ولم يستغرق الا وقتاً قليلاً لإقناعها بصدق هذه الدعوى الغريبة وبما قدمه من براهين بدا أنه لا سبيل الى دحضها، وكان الوعد الوحيد الذي طلبته منه فرناندا هو ألا يدع الموت يفاجئه في فراش عشيقته... وعلى هذه الصورة مضى الثلاثة في حياتهم دون أن يضايق احدهم الآخر : أوريليانو الثاني المحب المتفاني، لكل منهما... وبيترا كوتيس المزهوة المنتصرة... وفرناندا المتظاهرة بأنها لا تعرف شيئاً...

بيد أن هذا الميثاق الغرامي لم ينجح في ادماج فرناندا في حياة أسرة

بورينديا. فمنذ أول يوم فشلت أورسولا في إقناع فرناندا باستخدام دورة المياه بدلا من «القعادة» الذهبية التي جاءت بها في جهاز العرس ولكي تعطيها الى الكولونيل أوريليانو بورينديا لصهرها وصنع اسماك ذهبية صغيرة منها. وقد شعرت أمارانتا بالضييق من التزام فرناندا أسلوب التحذلق في الكلام حتى كانت تنهكم عليها، مما أدى في النهاية الى القطيعة بين الاثنتين وأصبحتا لا تتصلان الا بالمذكرات الكتابية.

وعلى الرغم من العداوة الظاهرة من جانب الاسرة لفرناندا، فإنها لم تنفض يدها من فرض اتجاهاتها وعادات أسلافها على هذه البيشة الجديدة. فقد وضعت حداً لتناول الطعام في المطبخ كلما شعر أحدهم بالجوع. وألزمتهم بأن يكون هذا في مواعيد منتظمة وحول المائدة الكبرى في قاعة الطعام، مكسوة بمفرش كتاني وعليها ادوات المائدة ومن فوقها الشريات. وعلى هذا النحو صارت هي المتصرفة في شؤون البيت، خصوصاً بعد أن طعنت أورسولا في السن وكف بصرها واضطرها ثقل السنين الى الانزواء في أحد الاركان. ثم إن أبواب البيت التي كانت تفتح على مصاريعها منذ الفجر حتى موعد النوم، اصبحت توصد اثناء فترة القيلولة بدعوى ان الشمس تسخن غرف النوم، وفي النهاية كان اغلاقها دائما. وعندما قرر زوجها تسمية ابنهما الأول باسم جده الاكبر «جوزيه اركاديو» لم تلجأ فرناندا الى مخالفته اذ لم يكن قد مضى على وجودها في البيت أكثر من عام، ولكن عندما ولدت البنت الاولى صممت على تسميتها «ريناتا» وهو اسم أمها، في حين أرادت أورسولا أن تسميها ريميديوس. وبعد احتدام الخلاف الذي كان الاب يقوم فيه بدور الوسيط الضاحك، تم الاتفاق على تسميتها «ريناتا - ريميديوس» ثم اشتهرت في البلدة باسم «ميم»

ثم توالى الايام وتعاقبت الاعوام. وفي خلال ذلك شهدت بلدة ماكوندو تطورات كبرى غيرت معالم الحياة فيها حتى اصبحت تعج

بالنشاط... فقد مدت اليها خطوط السكك الحديدية، وأدخل التليفون والكهرباء، وأنشئ مصنع للثلج وبعض المشروبات المثلجة... ولكن كان أكبر تطور مؤثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية هو زراعة الموز على نطاق واسع بعد أن تولته شركة خارجية جلبت معها مئات الخبراء والفنيين الذين أقيمت لهم مساكن خاصة ومرافق معيشية وترفيهية متنوعة، حتى كان ذلك في نظر أهل البلدة اقرب الى الغزو منه الى التعمير...

واحد فقط رحب بهذا الغزو الخارجي وسعد به الى حد كبير... هو أوريليانو الثاني... فقد كان القادمون الجدد ينزلون ضيوفا على البيت الكبير قبل استقرارهم في منشآتهم الجديدة، فكانت المآدب تقام لهم بغير حساب... وإذا كانت أورسولا قد أبدت كرمها المعهود، فإن أمارانتا استبشعت ما عدته اقتحاماً للبيت، وعادت الى تناول طعامها في المطبخ مثل ما كان في الماضي... وعمد الكولونيل أوريليانو بوينديا الى اغلاق صومعة السبك على نفسه اعتزلاً للوافدين الذين وان تظاهروا بأنهم يؤدون واجب التحية لبطل قومي، الا أنه عدهم دخلاء متطفلين يرونه في واقع الامر أثراً من مخلفات الماضي... وكانت فرناندا بالطبع اشد الجميع جزعاً ازاء هذه الفوضى التي شملت البيت وعصفت بكل ما وضعته من ترتيبات ونظم...

الا ريميديوس الجميلة التي كانت في منعة من التأثير بشيء من هذا كله، بحكم طبيعتها الهادئة، ونفورها من المظاهر، وإعراضها عن كل تشكك وسوء ظن، وسعادتها بديهاها الخاصة القائمة على الواقعية والبساطة... ومن قبيل ذلك انها لم تكن تفهم لماذا تلجأ النساء الى التعقيد والتكلف بارتداء الجونلات والمشدات، ولهذا خاطت لنفسها ثوباً خشناً فضفاضاً كالجلباب حسمت به مسألة الفستان، وإن لم تغفل عن الإحساس بأنها تبدو فيه شبه عارية، ولكنها عدته الرداء الوحيد المناسب للبيت... ولما رأتهم ينتقدونها بسبب شعرها المرسل الذي استطال الى الفخذين

الحادية عشرة صباحا وتغلق على نفسها باب الحمام حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي عارية تماما، تتسلى بقتل العقارب الى أن تفيق من تأثير نوم عميق، ثم تأخذ في صب الماء عليها بكوز من الحوض، وكانت تطيل أمد هذه العملية وتبالغ في طقوسها الى حد أن من لا يعرفها جيدا يظن أنها قد كرسَتْ نفسها لعبادة جسدها... أما بالنسبة اليها فإن هذه الطقوس الفردية كان يعوزها كل احساس ذاتي، وكانت مجرد ملهاة لإزجاء الوقت الى أن تشعر بالجوع...

و ذات يوم حين بدأت في الاستحمام، رفع أحد الضيوف الغرباء بلاطة من سقف الحمام، فتوقفت أنفاسه لدى المشهد الصاعق الذي صافح عينيه... ولقد رأت هي عينيه البائستين من خلال البلاطة المكسورة، فلم يخامرها رد فعل ينم عن الخجل، بل عن الانزعاج، وهتفت :

- احترس ! .. ستقع ! ..

فغمغم الغريب قائلا :

- أردت فقط ان اشاهدك ! ..

فقالت :

- لا بأس... لكن احترس... فإن هذا البلاط مخلخل...

لقد شاعت امارات الذهول الممزوج بالتألم في وجه الغريب، وبدأ كأنه يكافح في صمت ضد مشاعره لثلا يتلاشى من أمام عينيه هذا السراب... أما ريميديوس الجميلة فقد ظنت انه يقاسي من الخوف من احتمال تكسر البلاط كله، فأخذت تتعجل إتمام حمامها بأسرع من المعتاد لثلا يتعرض الرجل للخطر... وفيما كانت تصب الماء فوق جسدها من الحوض قالت له إن السقف بهذه الحالة لأن ورق الشجر الذي يحشوه قد دب اليه العطن بسبب الامطار على ما تظن، وأن هذا هو سبب امتلاء الحمام

بالعقارب . . . وقد توهم الغريب أن كلامها هذا هو مجرد تغطية لهدوئها المذهل، ولذلك ما أن رآها تضع الصابون على جسدها حتى استسلم للإغراء وتقدم خطوة أخرى مغمماً :
- دعيني أضع لك الصابون . . .

ف قالت :

- أشكر لك حسن نواياك . . . لكن يدي فيهما كل الكفاية . . .

فقال راجياً :

- حتى ولو كان الصابون لظهرك فقط ؟ . . .

ف قالت :

- هذه بلاهة . . . الناس لا يضعون الصابون على ظهورهم أبدا . . .

وعندئذ، وبينما كانت تجفف نفسها، توسل إليها الغريب وقد امتلأت عيناه بالدموع ان تتزوجه . . . فردت عليه بلهجة مخلصنة قائلة إنها لا يمكن ان تتزوج رجلا بلغت به السذاجة الى حد ان يضع ساعة من وقته بل حتى يحرم نفسه من طعام الغداء لمجرد أنه شاهد امرأة تستحم . . . وأخيراً، وعندما كانت تلبس جلبابها، لم يحتمل الرجل البرهان الذي رآه بعيني رأسه عما كانوا يستريون فيه من أنها لا تلبس شيئاً غير الجلباب، وأحس ان كشف هذا السر كان له وقع حديد محمى في النار عليه . . . وعندئذ نزع بلاطتين آخرين من السقف لكي ينزل الى الحمام . . . فقالت تحذره مروعة :

- السقف عال جدا . . . ستقتل نفسك . . .

ولقد انكسر البلاط المعطوب بقصف له نذير الشؤم، ولم يمهل الرجل لإتمام صرخة الهلع التي أطلقها، اذ تهشمت جمجمته على الارض الاسمنتية ولقي مصرعه على الأثر.

كان هذا الحادث البشع، مقترناً بمصرع ضابط الحرس الشاب عند نافذة ريميديوس الجميلة، هو مصدر الاعتقاد الذي ساد على الأثر، بأن جمالها الطاغى يجلب الموت . . . ومن ثم تخلت أورسولا عن قلقها على الفتاة ورقابتها الدائمة لها وتركها لمصيرها، خصوصاً بعد مولد الحفيد الأصغر جوزيه أركاديو وما نذرته أورسولا من السهر على تربيته ليكون من رجال الدين . . . هكذا مضت ريميديوس الجميلة تهيم في بيدااء وحدتها واعتزالها، تضج في أحلام بغير كوابيس، وتواصل حماماتها التي لا تنتهي، وتتناول طعامها دون التزام بأي موعد، مستسلمة لصمتها الذي لا تعرفه ذكريات . . . الى أن جاء يوم وقفت فيه فرناندا في الحديقة تطوي ملاءتها طالبة مساعدة نساء البيت . . . وما كادت تبدأ حتى لاحظت أمارانتا أن ريميديوس الجميلة يغطيها شحوب بالغ، فسألتها :

- هل تشعرين بأي انحراف ؟ . .

فأجابت ريميديوس الجميلة بابتسامة رائية وهي ممسكة بطرف الملاءة :

- بالعكس . . . أنا في أحسن حال . . .

وما ان فاهت بهذا الرد حتى شعرت فرناندا بلفحة هواء وضياء جذبت الملاءة من يدها ودفعت وسطها الى اعلى . . . وشعرت أمارانتا بدورها برفرة خفية في اشرطة جونلتها حتى حاولت ان تشد قبضتها على طرف الملاءة لثلا تقع، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع . . . وكانت أورسولا التي كاد بصرها يذهب تماماً في ذلك الحين من الهدوء بحيث فهمت طبيعة لفحة الهواء والضياء هذه وتركت الملاءة تحت رحمتها وهي تراقب ريميديوس الجميلة تلوح مودعة في وسط الملاءة الخفاقة التي ارتفعت معها، مخلفة وراءها بيئة الهوام والزهور، صاعدتين في الهواء الى أن غابتا عن الأنظار في أطباق الجو، الى حيث لا تدركهما حتى أطياف الذكريات . . .

ولقد فكر الخارجون عن نطق البيت بالطبع أن ريميديوس الجميلة قد
انتهت النهاية المحتومة لملكة نحل، وأن أسرتها إنما حاولت بتسريب حكمة
الارتفاع عن الأرض تلك، انقاذ شرفها... أما فرناندا التي كانت تحترق
حسداً لمنافستها في الجمال فقد تقبلت هذه المعجزة في النهاية، وظلت وقفاً
طويلاً وهي تبتهل وتصلّي عسى أن تعاد إليها ملامتها الثمينة... وقد صدق
أكثر الناس المعجزة، ومنهم من ذهبوا يقبضون الشموع تبركاً...

الفصل الثاني عشر

اصرت اورسولا يعناد شديد على أن تختص هي بتربية حفيدها الأصغر «جوزيه اركاديو» تربية دينية تؤهله للترقي في مراتب الكهنوت العليا الى ذروتها، وبذلت في هذا أقصى الجهد على الرغم من اشرافها على المائة عام وانطماس بصرها تماماً، وإن كان لها من حدة حواسها الأربع الأخرى وبأسها الماضي الطويل طوع لها ان تمضي في حياتها العائلية كالمبصرين، الى حد ما... ثم جاء الوقت الذي اخذوا يستعدون فيه لإرسال «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا... وفي نفس الوقت كانت اخته «ميم» الموزعة بين صرامة فرناندا وأحقاد امارانتا تستعد هي أيضاً لإرسالها الى مدرسة الدير، حيث تؤهل أثناء تعليمها للتفوق في العزف على «الكلافيكورد»...

وأما أبوهما أوريليانو الثاني فما لبث ان عاد الى حياته اللاهية العابثة، فامتلاً البيت من جديد بالسكرارى يسكبون الشمبانيا بغير حساب، وبِعزف «الأكورديون» يتردد صدهاء بلا انقطاع، حتى لم تتمالك أورسولا ان تمنع الموت لكي يريحها من أثقال هذا «البيت المجنون»، على حد تعبيرها...

ثم حل اليوم المحدد لرحيل «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا، فبدأ هادثاً رصينا لا يذرف دمعاً، وظل كذلك طوال وليمة الغداء الوداعية التي اقيمت لهذه المناسبة، وفي خلالها كانت الاسرة تتكلف السكينة والمرح، ولكن ما إن نقلت حقيبة امتعته الى الخارج حتى بدا لهم وكأن تابوتاً يحمل الى خارج البيت... وكان الوحيد الذي ابى ان يشارك في الوداع هو الكولونيل أوريليانو بوينديا المعتزل الا من المكوف في صومعة السبك على

صنع اسماكه الذهبية الصغيرة قتلاً للوقت وزهداً في كل شيء حتى الحياة ذاتها، اذ غمغم يقول :

- كاهن ! . . . كأن هذا هو كل ما نحتاج اليه ! . . .

وبعد ثلاثة شهور سحب اوريليانو الثاني وفرناندا ابنتهما «ميم» الى المدرسة وعادا ومعهما معزف «الكلافيكورد» الذي وضعاه في مكان البيانولا . . . وحوالي هذه الفترة بدأت امارانتا تخطط قماش كفنها . . . واقترن ذلك بغور «الحمى» التي جاءت بها شركة زراعة الموز في المنطقة، وبعد أن وجد سكان ماكوندو القدامى انفسهم محاطين بأفواج الغرباء الوافدين، مما دفعهم الى الاستمساك بمواردهم المحدودة التي كانت لهم منذ الازمان الخوالي، ولكن كان عزاؤهم على أي حال انهم استطاعوا الصمود والنجاة في خضم هذا الفرق الاكبر . . . أما في البيت الكبير فكان الضيوف ما يزالون يتوافدون لتناول الغداء، ولم يتمكن اصحابه من استعادة انماط حياتهم القديمة الا بعد رحيل شركة الموز بعد ذلك بسنوات . . . ومع ذلك فقد طرأت تغييرات أساسية على نظم الضيافة القديمة، لأن فرناندا هي التي اضطلعت الان بإقرار نظمها الجديدة . . . فإنه بتنحية اورسولا الى الخلف بعد أن طعنت في السن وفقدت البصر، وبانهماك أمارانتا في اعداد لفائف الكفن، فقد تهيأت لملكة الكرنفال الحرية في اختيار الضيوف وفرض النظم والتقاليد المنقولة عن أبويها . . . ولقد جعلت صرامتها من البيت مشابة للعادات والتقاليد القديمة في بلدة روع اهلها بالسفاهة التي كان الغرباء الوافدون يبعثون بها أموالهم . . . وكان افاضل الناس عندها هم اولئك الذين لا صلة لهم بشركة الموز . . . وحتى جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها لم يسلم من هذا التغيير، اذ اضطر الى التخلي عن هواية مصارعة الديكة مرة اخرى والالتحاق بالعمل كرئيس عمال في شركة الموز . . . وفي هذا قالت فرناندا :

- لا يصح بعد هذا ان يعود الى البيت، طالما انتقلت اليه لوثنة
الاعراب...

على هذه الصورة فرض التشدد في البيت الى حد أن اوريليانو الثاني
أحس أنه أوفر راحة عند بيترا كوتيس... أولاً، بدعوى رفع العبء عن
زوجته والتخفيف عنها، فقد نقل مقر يلائمه وحفلاته من البيت الكبير...
وثانياً، بدعوى أن مواشيه بدأت تفقد خصوبتها ووفرته، فقد نقل
إسطبلاته وملحقاتها... وثالثاً، بدعوى أن حرارة الطقس اخف في بيت
عشيقته، فقد نقل مكتبه الصغير الذي كان يباشر فيه أعماله... وعندما
ادركتُ فرناندا أنها أرملة لم يتوف زوجها بعد، كان الوقت قد فات لكي تعود
الامور الى حالتها السابقة... واصبح اوريليانو الثاني لا يأكل في بيته الا
لماما، وكانت المظاهر القليلة التي حاول ان يستر بها موقفه، مثل النوم في
فراش الزوجية، من الندرة بحيث لا تقنع احدا... وذات ليلة طلع عليه
النهار، بعامل الإهمال، وهو في مخدع بيترا كوتيس... بيد أن فرناندا،
بعكس كل التوقعات، لم تبد أي استياء، إنما ارسلت في نفس اليوم
صندوقين كبيرين مملوءين بملابسه الى دار عشيقته... ولقد ارسلتهما في
رائعة النهار، وحرصت على أن يكون المرور بهما في وسط الشارع، حتى
يستطيع كل انسان رؤيتهما، فلما منها بان زوجها الأبق لن يقوى على احتمال
هذا العار ويبادر بالعودة الى الحظيرة مطاطيء الرأس... ولكن هذه البادرة
البطولية من جانب فرناندا كانت مجرد برهان آخر على مبلغ جهلها بطباع
زوجها، الذي ابتهج بهذه الحرية التي جاءت اليه تسعى، بإقامة حفلة دامت
ثلاثة أيام... وفي مواجهة هذه الفترة من حياة الزوجية التي التزمت فيها
فرناندا بملابسها القائمة الطويلة وحليها العتيقة وترفعها النابي عن المكان،
بدت العشيقة وهي تكاد تتفجر بشباب متجدد، بملابسها الحريرية الزاهية
وعينيها البارقتين بوميض الظفر والتشفي... وهكذا أسلم اوريليانو الثاني

نفسه اليها بعنفوان الفتوة والمراقة... وكان ينحر بلا حساب عديد الأبقار والخنازير والدجاج من أجل ولائمه المتلاحقة حتى اسود الحوش ملطخاً بالدم والرحل وتكدست فيه العظام والأمعاء، الى حد انهم كانوا يفجرون الديناميت في كل وقت ابعادا للجوارح المنفضة لئلا تفقأ عين الضيوف!..

ولقد اصبح اوريليانو الثاني بدينا، مورد الوجه، مكورا كسلحفاة بحرية بسبب شهيته التي لا يباريه فيها أحد... بل إن شهرته كمضياف كبير ومبلر اكبر تجاوزت حدود اقليم المستنقعات. واجتذبت الى دار عشيقته الأكولين من الاقاليم الساحلية، فتوافد مشاهيرهم الى الدار للمساهمة في تلك الولائم الخرافية التي كانت تدور فيها المباريات بينهم، كان فيها اوريليانو الثاني الفارس المجلي والأكول الذي لا يشق له غبار... وظل الحال كذلك الى أن جاءت الساعة المحتومة التي اصيب فيها اوريليانو الثاني بتخمة عاتية أفقدته الوعي وبدا أنه ملاق حتفه بسببها... ولم يتمالك في بارقة صحو عابرة ان غمغم:

- خذوني الى فرناندا...

وهكذا حمله اصحابه الى البيت الكبير ظنا منهم بأنهم قد ساعدوه على تحقيق وعده لزوجته بالألا يموت في فراش عشيقته... وبادرت بيترا كوتيس الى «تلميع» حذائه الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته، واخذت تفكر فيمن ترسله بالحذاء، عندما جاءوها ليقولوا إنه نجا من الخطر... والواقع أنه ثاب من غاشية التخمة في أقل من اسبوع، وبعد اسبوعين كان يحتفل بنجاته من الموت بولائم لم يسبق لها مثيل... واستمر يعيش مع بيترا كوتيس، بيد أنه كان يزور فرناندا كل يوم، وكان احيانا يبقى ليأكل مع الاسرة، وكان القدر قد عكس الموقف، وجعله زوج العشيقة، وعشيق الزوجة!...

كان ذلك بمثابة راحة لفرناندا... وفي غمرة الملل اثناء هذا الهجر، كانت تسليتها الوحيدة دروس «الكلافيكورد» وقت القيلولة والرسائل التي

كانت تكتبها لولدها وإبنتها... والحق أن جميع الرسائل المخطوطة التي كانت تبعث بها كل أسبوعين لم تتضمن سطرا واحدا يتطوي على الصديق... فقد حرصت على إخفاء متاعبها عن ولديها... وكانت تهيم وحدها بين الأشباح الثلاثة الحية في البيت الكبير وشيخ «جوزيه أركاديو بونديا» مؤسس الأسرة الراحل والذي كانت أورشولا كثيرا ما تعرج على مكانه تحت شجرة الكستناء تتحدث وتتأجج وتتغنى متاعبها وأحزانتها وكأنه لا يزال على قيد الحياة!...

وكان أشد ما يقلق فرنانشا في سنوات الهجر تلك هو خشيتها من عودة «ميم» في إجازتها السنوية الأولى فلا تجد أباهما أوريليانو الثاني في البيت... ولكن الوعكة التي نزلت به وضعت حدا لهذا التخوف... فعندما رجعت «ميم» كان الاتفاق قد تم بين الاثنين على أن يكون أوريليانو الثاني موجودا في البيت كنزوح مثالي، وعلى ألا تلاحظ العصابة شيئا عن علائم الكآبة المخيمة على البيت... وعلى مدار شهرين من كل عام كان أوريليانو الثاني يقوم خير قيام بدور هذا الزوج المثالي، ويقيم حفلات لها تقدم فيها الحلوى ويدور فيها عزف «الكلافيكورد»... وقد بدا جليا منذ ذلك الحين أن العصابة لم يخلطها ذلك المزاج الانطوائي الذي كان طابع الأسرة وأنها على وثام مع دنياها بغير عقد ولا أشجان، وقد تجلى هذا في عكوفها على «الكلافيكورد» في قسرة القيلولة تتدرب عليه وعلى ترحيبها بصحبة الشباب الذين كان مقدها يجيء بهم إلى البيت الأمر الذي كان يوحي بأنها لم تكن بعيدة عن التطبع بطباع والدها المنبسطة السخية... وكانت أول علامة على هذا الميراث المحقوق بالكوارث هو قتلومها إلى البيت الكبير في إجازتها السنوية الثالثة برفقة أربع راهبات وأربعين من زميلاتهن في الدراسة اللائي دعتهن من تلقاء نفسها إلى قضاء أسبوع مع أسرتهن ودون سابق احتفال!...

إن فرناندا لم تتمالك إن هتفت نائحة :

- يا للفظاعة . . . إن هذه الطفلة همجية مثل أبيها . . .

ولم يكن هناك مفر من اقتراض أسرة وأراجيح نوم من الجيران .
وتخصيص تسع نوبات للجلوس الى مائدة الطعام ، وتحديد مواعيد
للاستحمام ، واقتراض اربعين مقعداً خشبياً صغيراً حتى لا تقضي الفتيات
طوال نهارهن وهن يجرين من مكان الى مكان . . . كانت هذه الزيارة في
الواقع فشلاً ذريعاً ، لأن التلميذات الصاخبات كن لا يفرغن من طعام الافطار
حتى تتخذ الاستعدادات لطعام الغداء ، ثم للعشاء ، وفي مدى الاسبوع كله
لم يتسع لهن الوقت لزيارة مزارع الموز سوى مرة واحدة . . . وعند حلول
الليل كانت الراهبات يغلبهن الإعياء ويعجزن عن كل أمر أو نهى ، في حين
تبقى الفتيات المتوثبات في الحوش يرددن الاناشيد المدرسية بنغم كله
نشاز . . . وذات مرة كدن يدسن أورسولا بأقدامهن لاعتراضها الطريق وهي
تظن في ظلمة بصرها أنها تخدم وتفيد . . . ومرة اخرى كادت أمارانتا ان تشير
الفرع عندما دخلت احدى الراهبات عليها في المطبخ وهي تضع الملح في
الحساء ، وكان أول ما خطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق
الأبيض الذي تضعه ، فردت أمارانتا بكلمة واحدة :

- زرنوخ . . .

وعلى الرغم من ان بعضهن اصبن بالحمى وبلذعة البعوض ، الا انهن
أبدین روح الجلد الوافر وهن يقاومن اشد المصاعب . وحتى في خلال فترات
الحر الملهب كن يلهون ويتواثبن في الحديقة . . . وعند رحيلهن في النهاية
كانت الزهور مقطوعة ، والأثاث مكسوراً ، والحوائط مغطاة بالرسوم والكتابة ،
غير أن فرناندا سامحتهن بعد ارتياحها للرحيل . . .

وفي خلال تلك الايام عاد «جوزيه اركاديو» الثاني الشقيق التوأم لرب

البيت الى الظهور فيه . . . لقد دلف في المدخل دون أن يتندر احدا بتحية ، واعتكف على الاثر مع الكولونيل اوريليانو بوينديا في مسبك المعادن . . . ولم يكن هذا التصرف مثار دهشة اورسولا عندما عرفت بحضوره من وقع خطى حذائه العمالي الثقيل ، وهي التي عهدته متاثيا عن الاسرة ، مختلفا عن اخيه التوأم اوريليانو الثاني على الرغم من تشابه اطوارهما في الصغر وبلبله أفكار الاسرة والجيران بما كانا يقومان به من الخدع والاحاييل الماكرة التي يولدها هذا التشابه . . كان الان مختلفا عن اخيه تماما ، ادنى الى النحول والجد والسهوم والوجوم . . . ولم يكن احد يعرف الان دقائق حياته . . . وفي فترة ما عرف انه ليس له مقر معين ، وأنه يربي ديوك المصارعة في بيت بيلار تيرنيرا حيث ينام لديها احيانا . . ولكنه كان يمضي اكثر لياليه متنقلا من مكان الى مكان ، دون أن تربطه مودة بأحد ، ودون ما أي هدف محدد ، وكأنه نجم شارد في نظام اورسولا الكوكبي . . .

ولقد حاولت أورسولا ان تستعين بجوزيه اركاديو الثاني لحمل الكولونيل اوريليانو بوينديا على الخروج من حبسه الاختياري في المسبك ، وفي هذا قالت له :

- اجعله يذهب الى السينما . . . وحتى اذا كان لا يحبها ، فعلى الأقل سوف يتنفس بعض الهواء النقي ! . .

لكنها لم تلبث ان ايقنت انه مثل الكولونيل تماما ، لا يعيرها أدناً صاغية ، وأن كليهما : صيغ من معدن واحد لا تنفذ منه خوالج المودة والتآلف . . . وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرف لا هي ولا غيرها كنه تلك الاحاديث التي يتبادلانها في المسبك ، الا أنها قدرت انهما العضوان الوحيدان في الاسرة اللذان يبدو ان بينهما رابطة وثيقة . . .

وحل اليوم الحادي عشر من اكتوبر والكولونيل لا ينسى هذا اليوم

ماعاش، اذ هو اليوم الذي استيقظ فيه من نومه فوجد زوجته ريميديوس قد فارقت الحياة فجأة وتركت له مرارة الذكريات... ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني لم يحضر للقاءه في المسبك كعادته اخيراً، ثم تذكر انه يوم دفع الاجور في مزارع شركة الموز. ثم بدا له ان يذهب الى الحمام، فوجد امارانتا قد سبقته اليه.. فعكف في المسبك على صنع اسماك الذهبية، حتى اذا كانت الساعة الرابعة سمع موسيقى بعيدة صادرة عن آلات نحاسية وطبول مقترنة بصياح اطفال، ولأول مرة منذ شبابه وقع في حنين الذكريات عندما تذكر بعض ظهر ذلك اليوم الذي صحبه فيه أبوه الى مضارب «العجر» للفرجة الى ألعابها وغرائبهم... وفي هذه اللحظة تركت سانتا صوفيا بيدال ما كان بيدها في المطبخ وجرت الى الباب قائلة :

.. هذا هو السيرك ! ..

ومن عجب ان الكولونيل اوريليانو بوينديا ذهب هو ايضا الى الشارع واختلط بالمتفرجين الذين كانوا يراقبون مرور الموكب فرأى امرأة مرتدية ملابس موشاة بالذهب جالسة على رأس فيل... ورأى دباً في زي فتاة هولندية يواكب نغمات الموسيقى بمغرفة وإناء حساء... ورأى «البهلوانات» يدورون في الهواء في آخر الموكب... ومرة اخرى ألفى نفسه في وحدته المطبقة بعد أن مر الموكب كله ولم يبق أمامه سوى الشارع المهجور الا من بعض المتفرجين المتسكعين... فعاد الى الداخل وقصد الى الحوش للتبول تحت شجرة الكستناء، وفي خلال ذلك حاول أن يستعيد ذكرى السيرك ولكنه لم يستطيع... فجلس واضعاً رأسه بين كتفيه مثل كتكوت، وظل جامداً في مكانه مسنداً رأسه الى جذع الشجرة... ولم تعثر عليه الاسرة الا في صباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة، عندما خرجت سانتا صوفيا بيدال لإلقاء القمامة فاسترعى نظرها مشهد الجوارح المحلقة فوقه..

الفصل الثالث عشر

تصادف وقوع اجازة «ميم» الاخيرة في فترة الحداد على الكولونيل اوريليانو بوينديا، فإن البيت الموصد الابواب والنوافذ ليس بالمكان الملائم لإقامة الحفلات... كانوا يتكلمون همسا، ويأكلون سكوتا، ويرددون الصلوات والادعية ثلاث مرات يوميا... وكانت فرناندا هي التي فرضت صرامة الحداد، متأثرة بما أبدته الحكومة من تكريم لذكرى عدوها الراحل... وعاد اوريليانو الثاني للنوم في البيت الكبير اثناء اجازة ابنته، ولا بد أن فرناندا قد اوفت بمقتضيات الزوجية، اذ وجدت «ميم» في العام التالي اختاً لها وليدة تم تسميتها على خلاف رغبة فرناندا باسم «أمارانتا اورسولا»...

لقد أتمت «ميم» دراستها ونالت دبلوما يقرر أنها عازقة «كلافيكورد» متخصصة في حفل رسمي اقترن بانتهاء فترة الحداد، وكان ذلك ايذانا باختتام مرحلة الطفولة وانتقالها الى مرحلة الشباب... أما الحقيقة فإن «ميم» التي كانت تعاني الامرين من تزمّت امها وتحكمها في كل تصرفاتها والتي كانت في دخيلتها مطبوعة على حب المرح والانطلاق، لم تختار هذا التخصص الا استرضاء للام، خصوصا وان الراهبات لم يمنعه باعتباره ملهاة بريئة موروثة من الماضي... فعلا كان ذلك ثمنا لحريتها المنشودة، اذ اصبحت فرناندا مزهوة ببراعة ابنتها في العزف حتى لم تعد تمنع بعد انتهاء فترة الحداد في استقدام صديقات «ميم» الى البيت وفي قضائها معهن لفترة بعد الظهر في المروج والبساتين، وفي ارتياد السينما مع ابها اوريليانو الثاني وبعض السيدات الفضيلات طالما كان الفيلم المعروض مما يجيزه الأب

انطونيو ايزابيل . . . وفي خلال فترات الاسترواح هذه تكشفت ميول «ميم» على حقيقتها . . . اذ كانت سعادتها قائمة على النقيض من تطرف أمها وأنظمتها الصارمة : على الحفلات الصاخبة، والثروة بأحداث العشاق، والخلوات الطويلة مع صاحباتها حيث تعلمن التدخين، وحيث امتدت ايديهن الى شراب مسكر من عصير القصب أفضى بهن الى التجرد من الملابس واستعراض اعضاء الجسد في تلك الخلوات . . .

إن «ميم» لن تنسى قط تلك الليلة التي عادت فيها الى البيت بعد قضاء ساعتين مشهودتين في مخدع صديقتها تضحكان بلا حساب وتذرفان الدمع من الخوف، لتجد فرناندا وأمارانتا تتناولان طعام العشاء دون تبادل للكلام . . . لقد راعها مشهدهما ذاك حتى بذلت جهدا كبيرا لئلا تصارحهما بحقيقة شعورها حيالهما وتقذف في وجهيهما تزمتهما وفقر مشاعرهما وأوهام عظمتها المصطنعة . . . والواقع ان «ميم» عرفت منذ ثانية اجازة لها أن اباهما يقيم في البيت الكبير سترًا للظواهر فقط . . . ولمعرفتها بأطوار امها، فقد بدا لها ان أباهما محق في مسلكه . . . ولم تتمالك في جلستها هذه الى المائدة ورأسها يدور مما شربته ان بدرت منها ابتسامة خبث ودهاء اذ فكرت في مدى الفضيحة التي كانت تحدث لو أنها صارحت الاثنتين بحقيقة خواطرهما . . . وإذا فرناندا التي فطنت لحالها تقول لها :

- ماذا جرى ؟ . . .

فأجابت «ميم» :

- لا شيء . . . اكتشفت الان فقط الى اي حد احبكما ! . . .

إن امارانتا قد ريعت مما انطوى عليه هذا التصريح من كره دفين . . . أما فرناندا التي تأثرت به فقد كان جزعها هذه الليلة لا حدود له عندما استيقظت «ميم» في منتصف الليل وهي تشكو من صداع حاد عنيف وقد

في القيء . . . فسارعت الى اعطائها زيت خروج ووضعت
ت « على معدتها ومكعبات ثلج على رأسها، وألزمته الفراش مدى
يام كانت تقتصر في خلالها على الغذاء الذي وضعه الطبيب الفرنسي
الوافد والذي قرر بعد الفحص مدى ساعتين انها تشكو من داء غير معهود في
امراض النساء . . . ولم يكن أمام «ميم» التي انهارت كل شجاعة كانت
عندها الا ان تصمد الى النهاية . . . الا اورسولا التي كانت رغم عماها
المطبق محتفظة بحيويتها وشفافيتها . . . فهي وحدها التي عرفت حقيقة
التشخيص، اذ قالت :

- بقدر ما يصل اليه علمي، فان هذا هو ما يحدث للسكاري . . .

ورغم ذلك فإنها نبذت هذه الفكرة، بل انبت نفسها للتفكير فيها . . .
أما اوريليانو الثاني فقد شعر بوخز الضمير عندما رأى حالة ابنته، وأخذ على
نفسه عهدا بأن يوليها رعايته في المستقبل . وهكذا كانت بداية تلك الصحبة
الودودة بين الاب والابنة، تلك التي خلصته الى حين من اثقال مجونياته،
وكفلت للفتاة ان تتحرر من عين فرناندا الدائمة اليقظة، ودرأت عنهم جميعا
تلك الازمات العائلية التي كان محتما ان تحدث في المستقبل . . . فكان
يصحبها الى السينما او السيرك، وأخرجها من غرفة نومها الكالحة التي كانت
حبيسة فيها منذ أول طفولتها، وأعد لها غرفة نوم اخرى وثيرة الاثاث مزودة
بكل ادوات التجميل والعطور للمرأة العصرية . . . ولقد روعت فرناندا حقا
عندما شاهدت هذا المخدع، بيد أنها كانت موزعة الجهد في تلك الايام بين
رعاية طفلتها الوليدة «أمارانتا اورسولا» وبين اطباء خارج ماكوندو كانت
تراسلهم سرا لاستشارتهم في امور صحية تعنيها . . .

وهكذا فإنها عندما لمست هذا التواطؤ وهذا التوافق بين الاب والابنة،
كان الوعد الوحيد الذي استخلصته منه هو ألا يأخذ «ميم» أبدا الى دار بيترا
كوتيس . . . ولم يكن لهذا من موجب، لأن العشيقة كانت في ضيق واستياء

من هذه الصحبة بين عشيقها وابنته بحيث لم تكن تريد أن يكون لها شأن بالفتاة... ولكن لعلمها بطبيعة اوريليانو الثاني وفرط ثقته في مبلغ سلطانها عليه، فإنها لم تنفذ ما كان : خشاء من إعادة صندوقي ملابسه المتجولين الى البيت الكبير، واستبقتهما لديها الى حين يعود اليها مستكيناً متزلفاً...

وكان بين صديقات «ميم» ثلاث فتيات امريكيات نشأت صداقة بينهما وبين فتيات ماكوندو... وكانت احدهن باتريشيا براون ابنة مستر براون من مديري شركة مزارع الموز، الذي اعرب عن امتنانه لما لقيه من كرم الضيافة في بيت اوريليانو الثاني، بدعوة «ميم» الى دارة للمشاركة في الحفلات الراقصة أيام الاحاد، وهو المكان الوحيد الذي يختلط فيه الاجانب الوافدون بالاهلين... ولكن ما أن سمعت فرناندا بهذا حتى هاجت وماجت واستنجدت بأورسولا لولا أن هذه رأت، بعكس ما كانت فرناندا تتوقع، انه لا مأخذ على «ميم» في الذهاب الى الحفلات الراقصة الخاصة هذه ومصاحبة فتيات امريكيات من سنها... بل إن «ميم» خصصت حفلاً عزفت فيه على «الكلافيكورد» فاستأثرت بأشد الاعجاب، مما هيا للأم ان تهدأ في النهاية وتطيب خاطراً... وبعدها كانت تدعى الى حفلات السباحة ايام الاحاد وتناول الغداء مرة في الأسبوع. وقد أبدت براعة في السباحة ولعب التنس وتعلم اللغة الانجليزية، حتى أن اوريليانو الثاني ابتاع لها دائرة معارف انجليزية معسورة من ستة اجزاء كانت «ميم» تطلع عليها في وقت فراغها - الأمر الذي باعد بينها وبين الخلوات الماضية مع صاحباتها للثرثرة بأحاديث العشاق ومكاشفة بعضهن البعض بما لا يباح... بل إنها استنكرت مغامرة السكر الماضية وعدتها من قبيل الطفوليات ولم تتردد في مكاشفة والدها بها، فأغرق في الضحك وامتدح شجاعته في الصديق، وطلب منها وعداً بأن تخبره يوم أن تقع في الحب بنفس الصراحة والصدق هذين...

هكذا رد نضج «ميم» الوثام والسكينة الى البيت الكبير، ويمكن

اوريليانو الثاني من أن يكرس وقتا اكثر لبيترا كوتيس، وإن غدا الان اكثر اعتدالا بعد الوعكة الصحية التي ألمت به . . .

ثم قطع هذه السكينة وفاة امارانتا فجأة . . . وسرعان ما عاد الاضطراب الى البيت الكبير . . . وكانت «ميم» تعزف «الكلافيكورد» في حفل خاص خارجي عندما أبلغت النبا، فقطعت الحفل وعادت بسرعة الى البيت، لتجد والدها اوريليانو الثاني يشق طريقه بين جمهور المعزين ليلقي نظرة على جثة العذراء العجوز بوجهها الممتنع الكالح ويدها المعصوبة بالسواد منذ مغامرتها الإغرامية الفاشلة إثر انتحار بترو كريسي، وقد سجيت في الفراش ملفوفة في الكفن الفاخر الذي تأنقت في اعداده . . .

ولم تعد اورسولا تقوم من مكانها مرة اخرى بعد أيام الحداد التسعة، وتولت سانتا صوفيا ببدال العناية بها . . . وكانت متعلقة بأمارانتا اورسولا الصغيرة حتى علمتها القراءة . . . وفي اعتكافها هذا الذي فرضته المائة عام ونيف من عمرها، تيسر لها من الفراغ ما اصبح يمكنها من التسمع والإحاطة بكل ما يدور في البيت، حتى كسنت أول من لاحظ بلوى «ميم» الصامته . . . فاستدعتها اليها وقالت لها :

- نحن الان وحدنا، فاعترفي لجذتك الكبرى العجوز بما يقلقك . . .

فتحاشت «ميم» الحديث بضحكة قصيرة . . . ولم تلح عليها اورسولا، ولكنها استخلصت ما اكدها شكوكها بعد ان كفت «ميم» عن زيارتها . . . كانت تعرف أن «ميم» تستيقظ في ساعة ابكر في الصباح من عاداتها، وأنها لم تكن على استقرار وهي تنتظر ساعة الخروج المعهودة، وأنها كانت تمضي الليالي بطولها وهي تروح وتجيء في غرفة النوم المجاورة . . . وكان واضحاً كل الوضوح ان «ميم» كانت منغمسة في شؤون خفية وأمور مقلقة قبل فترة طويلة من تلك الليلة التي اقامت فيها فرناندا البيت وأقعدته بعد أن ضبطتها تقبل رجلاً في السينما . . .

والواقع أن فرناندا رغم انشغالها بشؤونها الخاصة والبيتية لم تلبث هي
الآخرى ان استرعى انتباهها انحياز «ميم» الى الصمت العميق، وبوادر
الحدة الفجائية، واختلال المزاج، والسلوك المتناقض من جانب فتاتها،
حتى قررت في النهاية ان تسهر عليها وتراقبها سرا. . . وقد توسلت في هذا
بالحذر حتى لقد تركتها تمارس حريتها المحدودة في الاختلاف الى حفلات
الرقص والسباحة لكي لا تثير ارتيابها. . . الى أن كانت ليلة قالت فيها
«ميم» انها ذاهبة الى السينما مع أبيها. . . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى
سمعت فرناندا صخب احدى الحفلات التي درج زوجها اوريليانو الثاني
على إقامتها في بيت عشيقته بيترا كوتيس مقترنة بقصف الالعاب النارية
وعزف الأكورديون. . . وسرعان ما قامت فرناندا الى ملابسها وقصدت من
فورها الى دار السينما، واستطاعت في ظلام المقاعد ان تعرف ضحك
ابنتها. . . إن وقع المفاجأة على نفسها حال دون أن تتبين الرجل الذي كانت
ابنتها تقبله، ولكن صوته المتهدج سرى الى سمعها رغم جلبة الضحك
واللغظ وهو يقول لها :

.. أنا آسف يا حبيبتى ! ..

وفي الحال انتزعت «ميم» من مكانها دون أن تقول شيئا، وعرضتها
لمهانة المرور بها في الشارع تحت انظار اصحاب الدكاكين، ثم حبستها في
غرفة نومها. . .

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم التالي عرفت فرناندا صوت
الرجل الذي جاء لزيارة «ميم». . . كان شاباً اسمر شاحباً، تشف عيناه
السوداوان عن الاكتئاب، وتشيع في وجهه سمات حالمة تكفي لكي تجعل
أية امرأة اقل صلابة من فرناندا تفهم بواعث ابنتها في التعلق به. . . وكان
يرتدي بذلة رثة من التيل وحذاء لم يفلح الطلاء المتراكم في اخفاء ترقيعه،
وقبعة من الخوص اشتراها منذ عهد قريب. . . وبدا أنه في كل حياته الماضية

لم يشعر بوجل ورهبة كاللذين كان يشعر بهما في هذه اللحظة، ولكن كان به من الكرامة والاعتداد ما نفى عنه المهانة، وإن نال منهما ما بدا من تلوث يديه وأظافره بآثار قدرت منها فرناندا انه ليس اكثر من ميكانيكي . . . وقد صح ظنها اذ لمحت في صدر قميصه شارة العاملين في شركة الموز. . .

ومهما يكن فإن فرناندا لم تدع له فرصة للكلام . . . بل إنها لم تدع له سبيلاً حتى للدخول من الباب الذي اضطرت بعد قليل الى اغلاقه اذ امتلأ البيت بفراش اصفر. . .
قالت له :

- اذهب ! . . . لا حق لك في الحضور وزيارة الناس الشرفاء ! . .

كان يدعى موريشيو بابلونيا . . . ولد ونشأ في ماكوندو وعمل مساعد ميكانيكي في جراجات شركة زراعة الموز. . . وقد التقت به «ميم» مصادفة عصر يوم عندما ذهبت مع صاحبها باتريشيا الاميركية لاستحضار سيارتها للنزهة بين البساتين. . . ولما كان السائق الخاص مريضاً فقد تهيأت الفرصة لميم لجلوسها الى جانب موريشيو بابلونيا وتلقي الدرس الاول في تعليمها قيادة السيارات. . . ثم تلته دروس اخرى. . .

ويوم أن ذهبت «ميم» الى السينما مع والدها شاهدت موريشيو بابلونيا جالسا في مقعد غير بعيد، ولاحظت انه ظل طول الوقت منصرفاً عن متابعة الفيلم، متجها بكليته نحوها. . .

لقد صعبها هذا الشاب واكتسح قلبها اكتساحاً . . . ولم تعباً بوضعه المتواضع. . . وتكررت لقاءتهما بمعزل عن أعين الرقباء. . . وانما استرعى نظرها تلك الفراشات الصفراء التي كانت تحلق لدى ظهور موريشيو بابلونيا، ولكنها قدرت أن لها ارتباطاً به على نحو ما. . .

وتكررت اللقاءات، والخلوات، على مدار الايام والاسباع، الى ان

كانت تلك الليلة التي فاجأتهما فرناندا فيها في دار السينما . . .

في أعقابها شعر اوريليانو الثاني بوقر باهظ يثقل ضميره، وزار «ميم» في غرفة نومها حيث حبستها فرناندا، واثقا أن «ميم» سوف تكاشفه بسرها على ما تعاهدا عليه . . . بيد أنها أنكرت كل شيء وأبدت من التباعد ما جعله يرى أن كل رابطة بينهما قد انتهت وأن ما حسبه صحبة ومشاركة بينهما إنما كان وهماً مضى . . . وهكذا ترك الموقف كما هو، على أمل أن احتجازها في غرفة النوم سوف يكون فيه ختام متاعبها

ولم يبدر من ناحية «ميم» ما ينم عن أي ابتساس . . . وكان الشيء الوحيد الذي حير اورسولا بعد شهرين من العقاب هو أن «ميم» لم تعد تأخذ الحمام في الصباح مثل الباقيين، بل في السابعة مساء . . . وكانت الظاهرة الغريبة هي أن الفراش الأصفر كان يجتاح البيت عند الأصيل . . . وفي كل ليلة عندما كانت «ميم» تعود من الحمام كانت ترى فرناندا في حالة حنق وهي تقتل الفراش بمبيد حشري . . . وكانت تسمعها تقول :

- هذا شيء فظيع ! . . . سمعته طول حياتي يقولون أن الفراش في الليل، يجلب الشر ! . . .

و ذات ليلة دخلت فرناندا إلى غرفة «ميم» بينما كانت في الحمام فوجدتها مملوءة بالفراش إلى حد عجزت معه عن التنفس . . . فاختطفت أقرب قطعة قماش أمامها لهش الفراش، وإذا قلبها يكاد يجمد من الرعب، إذ سرعان ما ربطت بين حمامات ابنتها المسائية وبين دواء الإجهاض الذي تدرج من القماش على الأرض . . .

لم تنتظر فرناندا لحظة أخرى . . . وفي اليوم التالي دعت عمدة ماكوندو الجديد لتناول الغداء، وكان مثلها من إقليم المرتفعات وقد طلبت منه أن يقيم حارسا على الحوش الخلفي لشكها في وجود لصوص يسرقون

الدجاج... وفي نفس الليلة صرع الحارس موريشيو بابلونيا برصاصة وهو يرفع البلاط للتسلل الى الحمام حيث كانت «ميم» تنتظره على أحر من الجمر غير عابئة بالعقارب والفراش، كما كانت تفعل كل ليلة طوال الأشهر القليلة الماضية... ان الرصاصة التي استقرت في عموده الفقري اقعدته الفراش بقية حياته... وقد مات بالشيخوخة في عزلة دون أن يبوح بشيء، تعذبه الذكريات والفراش الأصفر، مدموغا بأنه لص دجاج...

الفصل الرابع عشر

إن الأحداث التي كان مقدراً أن توجه الى ماكوندو ضربة قاصمة لم تلبث أن بدت بواكيرها حينما جيء بمولود « ميم بوينديا » الى البيت الكبير . . .

كان الموقف الشعبي مزعزعاً الى حد أن الناس لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للزج بأنفسهم في فضائح شخصية، وهكذا استطاعت فرناندا أن تعتمد على جو عام مكنها من ابقاء الطفل مخفياً عن العيان وكأنه لم يوجد قط . . . ولقد اضطرت الى قبوله لأن الظروف التي جيء به فيها جعلت رفضه أمراً مستحيلاً . . . ولم يكن أمامها مناص من احتمال ضده ارادتها طوال حياتها، إذ أعوزتها الشجاعة في اللحظة الفاصلة لتنفيذ ما اعتزمته من اغراق الطفل في صهرج الحمام . . . وكذلك أغلقت عليه الباب في مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا . . . وقد أفلحت في إقناع سانتا صوفيا بيدال بأنها وجدته في سلة طافية في النهر . . . ولسوف تموت أورسولا قبل أن تعرف منشأه . . . وصدقت « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التي دخلت عليها المسبك وهي تطعم الطفل هي أيضاً حكاية السلة الطافية . . . ولم يعرف أوريليانو الثاني الذي انفصل عن زوجته نهائياً بوجود حفيده إلا بعد ثلاث سنوات من المجيء به الى البيت الكبير، إثر فرار الطفل من الأسر نتيجة سهو من جانب فرناندا، حين ظهر في مدخل البيت الكبير مدى لحظة خاطفة عاري الجسد ملبد الشعر كمخلوق متوحش . . . وما كان لفرناندا أن تغالط نفسها وهي تعلم ان الطفل يمثل عاراً حسبت أنها تخلصت منه الى الأبد اذ اقصت ابتها عن البيت . . .

فعندما حملوا موريشيو بابلونيا من البيت وقد تحطم عموده الفقري ،
وضعت فرناندا خطة رتبت تفاصيلها بكل دقة مستهدفة ازالة كل اثر لتلك
الكارثة . . ودون ما استشارة لزوجها حزمتم حقائبها ووضعت لإبنتها الملابس
الضرورية في حقيبة صغيرة وذهبت اليها في غرفة نومها قبل وصول القطار
بنصف ساعة وقالت لها :

- هيا بنا . . .

لم تبادرها بأي بيان أو تفسير . . . ومن ناحية « ميم » فإنها لم تتوقع غير
هذا . . . انها فقط لم تعرف الى أين تذهبان ، بل كان سياناً لديها لو كانوا
سيذهبون بها الى المجزر . . إنها لم تفه بكلمة واحدة ولن تفوه بكلام مدى
حياتها، منذ اللحظة التي سمعت فيها صوت العيار الناري في الحوش
وصيحة الألم التي اقترنت بها صادرة من موريشيو بابلونيا . . . وعندما أمرتها
أمها بالخروج من غرفة نومها لم تمشط شعرها ولم تغسل وجهها، ودلفت
معهما الى القطار وهي تمشي كمن يمشي في نومه، ولم تلاحظ حتى الفراش
الأصفر الذي ما فتىء يصاحبها . . . ولم تعرف فرناندا قط ولا حاولت ان
تعرف إن كان ذلك الصمت المطبق وليد تصميم جازم أو ان الفتاة قد أصيبت
بالخرس من وطأة الفاجعة . . . وظل ذلك حالها اثناء الرحلة الطويلة في
القطار وفي السفينة النهرية التي اقلتهما الى تلك المدينة البعيدة القائمة وراء
التلال . . . وغداة وصولهما صحبتها فرناندا الى مبنى قاتم عرفت فيه « ميم »
الدير الذي ربيت فيه لكي تصبح ملكة، وعندها فقط أدركت انهما وصلتا الى
خاتمة المطاف . . . وبينما كانت فرناندا مجتمعة بشخص في المكتب
المجاور، وقفت « ميم » تنتظر في بهو الاستقبال وهي لا تكف عن التفكير
في موريشيو بابلونيا، الى أن أقبلت راهبة مبتدئة موفورة الحسن من غرفة
المكتب ويدها حقيبة ملابسها الصغيرة، فأخذت بيدها دون توقف قائلة :

- تعالي معي . . .

وكانت آخر مرة رأتها فيها فرناندا وهي تمشي الى جانب الراهبة عندما أغلق الباب الكبير خلفها. . . وفي كل ذلك لم تكف « ميم » لخطئة عن التفكير في موريشيو بايبلونيا وهالة الفراش التي تلاحقه، ولن تكف عن هذا التفكير طوال حياتها. . حتى ذلك اليوم البعيد من أيام الخريف عندما توفيت بالشيخوخة وقد تغير اسمها وحلق شعرها ودون ما كلمة واحدة فاهت بها. . في مستشفى قاتم بمدينة كراكاو. . .

وعادت فرناندا الى ماكوندو في قطار يحرسه جنود البوليس المسلحون. . . ولاحظت أثناء الرحلة جو التأزم الذي كان يسود الركاب، والاستعدادات العسكرية في البلدان القائمة على طول الطريق، مما استشفت منه قرب وقوع أحداث خطيرة. . بيد أنها لم تعرف حقيقة الموقف إلا عند وصولها الى ماكوندو، حيث علمت ان جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها التوأم يقوم بتحريض عمال شركة زراعة الموز على الإضراب. . . فلم تتمالك فرناندا ان قالت لنفسها :

« هذا ما كان ينقصنا. . فوضوي في العائلة ! » .

والواقع ان جوزيه اركاديو الثاني كان بعد المصادمات الأولى بين الشركة الأجنبية وبين العمال المطالبين بتحسين اوضاعهم الاجتماعية قد استقال منها منضمّاً الى جانب العمال. . . وعلى الأثر اتهم بأنه عميل لمؤامرة دولية ضد الأمن القومي. . وذات ليلة في اسبوع اتسم بالشائعات المبلبلّة للأفكار نجا بمعجزة من اربع رصاصات اطلقها عليه مجهول وهو يغادر احد الاجتماعات السرية. . وكان الجو السائد طيلة الشهور التالية بالغ التأزم الى حد أن أرسولا احست به حتى وهي في ركنها المظلم بالبيت الكبير، وبدا لها أنها تعيش مرة اخرى في حياة المخاطر عندما سلك ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا مثل هذه المسالك المهلكة. . . وقد حاولت ان تكلم جوزيه اركاديو الثاني ناصحة « محذرة » ، غير ان أوريليانو الثاني أخبرها ان احداً أصبح لا

يعرف مكانه منذ الليلة التي تعرض فيها للاعتداء على حياته . . . فما كان من أورسولا إلا أن هتفت قائلة :

- مثل أوريليانو تماما! . . . كان التاريخ يعيد نفسه! . . .

أما فرناندا فكانت معرضة عن أحداث تلك الأيام . . . فلم يكن لها أي اتصال بالعالم الخارجي منذ تلك المشادة العنيفة التي حدثت بينها وبين زوجها بعد أن قررت وحدها مصير ابنتها بإدخالها الدير . . . وكان أوريليانو الثاني على استعداد لإنفاذ ابنته بمساعدة البوليس إذا لزم الأمر، بيد أن فرناندا أطلعت على أوراق تثبت أن « ميم » دخلت الدير بمحض إرادتها الحرة . . . والواقع أن « ميم » وقعت مرة على وثيقة تتضمن هذا المعنى، وقد فعلت هذا بنفس اللامبالاة التي كانت منها عندما اقتيدت إلى هذا المصير . . . ومع أن أوريليانو الثاني لم يؤمن بمصادقية هذا الإجراء وشرعيته، إلا أنه وجد فيه ما يريح ضميره، لكي يعود دون ما وخز من ضمير إلى حظيرة بيترا كوتيس وإلى لياليه وحفلاته الصاخبة الماجنة . . . وأما فرناندا التي اعارت أذناً غير صاغية لقلقل البلدة وتنبؤات أورسولا المتوجسة، فلم تلبث أن مضت في خططها الشاملة إلى النهاية، إذ كتبت إلى ابنها « جوزيه أركاديو » البعيد في المدرسة العليا والذي كان يوشك على التخرج في دراساته اللاهوتية تبلغه فيها أن اخته « ميم » قد توفيت إلى رحمة الله نتيجة لعدوى وبائية . . . ثم عهدت بابنتها الصغيرة « أمارانتا أورسولا » إلى رعاية سانتا صوفيا بيدال جدتها . . . وبعد ذلك تفرغت لمراسلاتها مع أطبائها الخصوصيين طالبة تحديد موعد لإجراء عملية استئصال لذلك الورم الذي شخصوه في الرحم . . . غير أنهم ردوا عليها مستصوبين أرجاء العملية بالنظر إلى حالة الاضطرابات المشتدة في ماكوندو . . . ولكنها عادت تخبرهم في رسالة جديدة أن الموقف ليس بالخطورة التي تصوروها، وأن كل ما يحدث هو نتيجة تهوس من جانب شقيق لزوجها تورط في هذه الأعمال بعد أن

كان يضيع وقته في مصارعة الديوك وما الى ذلك من العبث . . .

وظلت الشهور تمضي وفرناندا في هذا التعارض بينها وبين الأطباء الى أن جاء ذلك الاربعاء الحار الذي أقبلت فيه راهبة مسنة تطرق الباب ومعها سلة صغيرة . . . وعندما فتحت سائتا صوفيا بيدال الباب حسبت القادمة تحمل هدية وحاولت ان تأخذ منها السلة الصغيرة التي كانت مغطاة بمفرش مطرز جميل . . . غير أن الراهبة حالت دونها قائلة إن عندها تعليمات دقيقة بأن تعطي السلة شخصياً وبصورة سرية الى « الدونا فرناندا ديل كاربيودي بوينديا » . . . كان في السلة ابن « ميم » المولود . . . وقد أبلغتها رئيسة الدير ومربيته الروحية السابقة في رسالة خاصة أنه ولد منذ شهرين ، وأنهم تصرفوا من تلقاء أنفسهم فسموه أوريليانو، باسم جده، نظراً لأن أمه ثم تفتح فمها لتخبرهم برغبتها في هذا الشأن . . . ولقد ثارت فرناندا في دخيلتها ضد هذه الخدعة القدرية، بيد أنها سيطرت على أعصابها لإخفاء شعورها عن الراهبة، وقالت لها باسمه :

- سنقول لهم إننا وجدناه في سلة طافية في النهر . . .

فقالت الراهبة :

- لن يصدق أحد هذا . . .

فردت فرناندا قائلة :

- اذا كانوا قد صدقوه في الماضي ، فلم لا يصدقونه الان ؟ . . .

وتناولت الراهبة طعام الغداء في البيت انتظاراً لعودة القطار. وعملاً بالتوجيهات التي صدرت اليها، لم تذكر شيئاً عن الطفل، ولكن فرناندا عدتها شاهداً غير مرغوب فيه على عارها، وتحسرت على انقراض تلك العادة التي كانت متبعة في العصور الوسطى ، من شق الرسول الذي يحمل انباء مشؤومة . . . وعند هذا الحد قررت ان تغرق الطفل في الصهريج حالما ترحل الراهبة، غير أن قلبها لم يكن بهذه القوة، وآثرت ان تنتظر صابرة الى

أن تسنح لها الفرصة المواتية للخلاص منه . . .

وكان أوريليانو الصغير قد أتم العام الأول من عمره عندما اشتدت الأزمة بين العمال وبين شركة زراعة الموز الى حد اعلان الإضراب الذي تطور الى أعمال للعنف وإتلاف للمزارع . . . وبقي الموقف على تأزمه حتى أصدرت السلطات المحلية بيانا دعت فيه العمال الى الاجتماع في ماكوندو للاستماع الى القائد العسكري والمدني للاقليم الذي سيصل في اليوم التالي للتوسط في الخلاف الناشب ووضع حد له بما يرضي الفريقين . . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني بين الجماهير التي احتشدت في ميدان المحطة والتي قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة آلاف . . . ولاحظ أن القوات قد حاصرت المكان مزودة بمدافع رشاشة . . . وما أن انتصف النهار حتى سرت شائعات تقول ان القائد قد اجل حضوره الى اليوم التالي . . . وبعدها اعتلى قائد القوة المنصة وأعلن في الميكروفون نص الأمر الصادر من الحاكم العسكري يصف المضربين بأنهم مجموعة من المشاغبين وأنه خول القوات إطلاق النار عليهم اذا لم يبادروا بالتفرق . . .

وفي غمار الهياج والهرج الذي ساد على الأثر لم يستطع احد ان يعرف على وجه التحديد كيف بدأ إطلاق النار وكيف أصبح الميدان كله ساحة اختلط فيها الحابل بالنابل وتدافع الناس في كل مكان يلتمسون النجاة بأنفسهم من وابل الرصاص . . .

وبعدها استمر تعقب زعماء الإضراب واقتناصهم واحداً بعد الآخر . . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني إثر افلاته مختبئاً في غرفة مالكويداس عندما طرق الباب ليلاً بكعوب البنادق ودخل ستة جنود بقيادة ضابط لتفتيش البيت بحثاً عن الهارب والمطر يقطر من ملابسهم في إبان عاصفة مطيرة استمرت

أياماً وليالي بعد جفاف طويل . . . وكان أوريليانو الثاني موجوداً بعد أن عاقه المطر الغزير عن الانتقال إلى بيت عشيقته . . . ودون ما كلمة أخذوا يفتشون البيت غرفة غرفة من قاعة الاستقبال إلى المطبخ . . . وقد استيقظت أورسولا عندما سلطوا الضوء عليها، فلم تكذب تنفس أثناء عملية التفتيش، وجعلت أصابعها على شكل صليب أخذت توجهه إلى حيث كانوا يوالون تفتيش بقية الغرف . . . وفي خلال ذلك استطاعت سائتا صوفيا بيدال تحذير ابنها جوزيه أركاديو الثاني حيث كان نائماً في غرفة مالكويداس، بيد أنه رأى أنها جاءت بعد فوات الأوان وأنه يستحيل عليه الهرب . . . وبعد أن أغلقت عليه الباب بالقفل لبس قميصه وحذاءه وجلس على حافة السرير الصغير منتظراً حضورهم . . . وفي تلك اللحظة كانوا يفتشون غرفة المسبك . . . فقد أمر الضابط جنوده برفع القفل وسلط ضوء مصباحه بحركة شاملة في أرجاء الغرفة، ولما رأى الدواليب الزجاجية وزجاجات الأحماض سأل أوريليانو الثاني إن كان يشتغل بسبك المعادن، فأجاب أن هذا مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا . . . فهز الضابط رأسه هزة العارف وتناول إناء كان به مجموعة من الأسماك الذهبية الصغيرة، وبعد أن فحصها ملياً قال وقد هزته عاطفة إنسانية :

- بودي إن آخذ واحدة منها إذا أمكن . . . في وقت ما كانت هذه الأسماك رمزاً للعمل السري، أما الآن فهي شيء تذكاري . . .

فأعطاه أوريليانو الثاني ما طلب . . . ووضع الضابط السمكة في جيب قميصه قائلاً :

- هذا تذكاري جميل . . . إن الكولونيل أوريليانو بوينديا كان واحداً من عظماء رجالنا . . .

ومع ذلك فإن هذه البادرة الإنسانية لم تغير من سلوكه الوظيفي وعند

باب غرفة مالكويداس التي أعيد اغلاقها بالقفل حاولت سانتا صوفيا بيدال التعلق بأمل أخير، فقالت :

- لم يسكن أحد في هذه الغرفة منذ عشرات السنين . . .

ولكن الضابط امر بفتحها، وسلط ضوء مصباحه عليها . . وأبصر أوريليانو الثاني وأمه عيني أخيه جوزيه أركاديو الثاني في اللحظة التي مر فيها شعاع الضوء على وجهه، وشعرا بأن النهاية قد حانت . . . بيد ان الضابط استمر في فحص الغرفة بالمصباح ولم يبد منه اهتمام بأي شيء . . . وكان جوزيه أركاديو الثاني جالساً على حافة الفراش على استعداد للذهاب وقد اشتدت على وجهه علائم الرصانة والسهوم . . . ووقف الضابط برهة موجهاً نظره الى الفراغ الذي كانت فيه الأم وابنها يبصران فيه جوزيه أركاديو الثاني وقد أدركا ان الضابط كان ينظر ايضاً دون ان يبصره . . . وما لبث الضابط ان أطفأ المصباح وأغلق الباب، ثم قال لرجاله :

- من الواضح ان احداً لم يكن في هذه الغرفة منذ مائة سنة على الأقل . . ولا بد ان فيها ثعابين ايضاً . . .

منذ هذه اللحظة زاد جوزيه أركاديو الثاني اقتناعاً بأن غرفة مالكويداس هي حصنه الحصين وملأه من الخوف في العالم الخارجي المضطرب بالقتل والحروب، ففي جوها الخارق عمي الضابط عن رؤيته، وفي رحابها بات يشعر بالسكينة والراحة النفسية التي طالما افتقدتهما طوال حياته الماضية . . وهكذا كرس جوزيه أركاديو الثاني نفسه للاطلاع على مخطوطات مالكويداس ومحاولة اكتشاف رموزها . . ولقد أصبح صوت سقوط المطر معهوداً في سمعه، وكان الشيء الوحيد الذي يقلق عزله هو تردد أمه سانتا صوفيا بيدال عليه بالطعام، فطلب منها ان تضعه على حافة النافذة وتغلق الباب بالقفل . . . ثم نسيته العائلة، بما فيها فرناندا التي لم

تَمَانَع في تَرْكِهِ هُنَاكَ بَعْدَ أَنْ وَجَدَتْ أَنَّ الْجُنُودَ رَأَوْهُ دُونَ أَنْ يَبْصُرُوهُ . . . وَبَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ رَفَعَ أَوْرِيْلْيَانُو الثَّانِي الْقِفْلَ عَنِ الْبَابِ طَلِباً لِشَخْصٍ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ يَنْقَطِعَ هَظُولُ الْمَطَرِ الْمُتَوَاصِلِ . . . وَمَا كَادَ يَفْتَحُ الْبَابَ حَتَّى صَدَمَتْهُ الرِّوَاثِحُ الْمُنْبَعِثَةُ مِنَ الْغُرْفَةِ وَوَجَدَ أَخَاهُ جُوزِيَهَ أَرْكَادِيُو الثَّانِي الَّذِي عَرَاهُ الصِّلَعُ مَا يَزَالُ عَاكِفاً عَلَى قِرَاءَةِ الْمَخْطُوطَاتِ وَمَحَاوِلاً فَكَّ طَلَّاسْمَهَا فِي وَهْجٍ خَفِيِّ نُورَانِي يَتَخَلَّلُهَا . . . وَلَمْ يَكْدِرْ يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ حَتَّى سَمِعَ صَوْتَ فَتْحِ الْبَابِ، بَيَدِ أَنْ تَلُوكَ النُّظْرَةَ كَانَتْ كَافِيَةً لِكَيْ يَعْرِفَ فِيهِ أَوْرِيْلْيَانُو الثَّانِي مُصِيرَ جَدِّهِ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ ذَلِكَ مَآلَهُ . . .

كَانَ جُوزِيَهَ أَرْكَادِيُو الثَّانِي لَا يَفْتَأُ يَرُدُّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ :

- كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ فِي مِيدَانِ الْمَحْطَةِ . . . لَقَدْ حَصَدَهُمُ الرِّصَاصُ حَصْداً، وَنَقَلَتْ جِثَّتُهُمْ فِي الْقِطَارِ حَيْثُ أُلْقِيَ بِهِمْ لَيْلاً فِي الْبَحْرِ . . .

الفصل الخامس عشر

انهمرت الأمطار في ماكوندو. . . وظلت تنهمر مدى أربع سنوات،
وأحد عشر شهراً، وثلاثة أيام . . .

وكانت تحدث فترات يقل فيها انهمار المطر الى رذاذ، فكان الناس
يخرجون من بيوتهم احتفاء به، ثم لا يلبثون ان يجدوها فترة صحو عابرة
يتضاعف بعدها انهمار المطر. . .

وكانت السماء ترسل عليهم عواصف مدمرة، ومن الجانب الشمالي
كانت تهب اعاصير تتزع السقوف وتقوض الجدران وتستأصل زراعات الموز
من منابتها. . . وفي البيت الكبير اضطروا الى حفر قنوات لتسريب مياه
الأمطار الى الخارج والعمل على تجفيف الأرضيات تخلصاً من الضفادع
والقواقع المتخلفة، والأسماك أحياناً . . .

وفي خلال ذلك احتبس اوريليانو الثاني في البيت بعد ان كان قد عرج
عليه لبعض شأنه، مؤملاً ان يتحسن الطقس ليعود الى بيت عشيقته بيترا
كوتيس . . .

ومضى عام على هذه الحال تشاغل خلاله بالانهماك في اصلاح ما
أفسده المطر من أبواب ونوافذ البيت وسائر أثاثه دون ان يتوقف انهمار
الأمطار . . .

وفي خلال هذه الفترة وقع ذلك التهاون الذي كان من جرائه ظهور
اوريليانو الصغير في مدخل البيت وما أدى اليه من تصرف جده اوريليانو

الثاني على هويته . . . فقص شعره، وكساه بعد عري، وعلمه ألا يخاف من الناس . وبعد فترة وجيزة بدا واضحاً أنه من سلالة بوينديا بما لا يدع مجالاً لأي شك : بعظام الخدين العالية، وسمات الانطواء والعزلة . . . وكان ذلك مبعث ارتياح فرناندا . . . فلو كانت تعلم ان اوريليانو الثاني سيسلك هذا المسلك وسيسر بصيرورته جداً، لما عرضت نفسها لكل ما تعرضت له من عناء وكرب . . . وأما « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التي بدلت أسنانها فقد وجدت في ابن اختها لعبة تلهو بها في مواجهة متاعب الأمطار . . . ولم يلبث اوريليانو الثاني ان تذكر دائرة المعارف الانجليزية المصورة التي بقيت سالمة في غرفة « ميم » القديمة . . . فبدأ يطلع الطفلين على الصور، خصوصاً صور الحيوانات، وانتقل من ذلك الى الخرائط وصور الأقطار البعيدة ومشاهير الناس . . . ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسعه ان يتعرف الا على المدائن المشهورة وأبرز زعمائها، فقد كان يخترع الأسماء والأساطير اختراعاً لإشباع فضول الطفلين الذي لا يرتوي .

وكانت فرناندا تعلم يقيناً أن زوجها ينتظر تحسن الأحوال الجوية لكي يعود الى معشوقته بيترا كوتيس . . . ومع ذلك لم تتضايق لأن علتها التي كانت تخفيها عن كل انسان وهي تورم الرحم والتي كانت تراسل بسببها اطباءها الخصوصيين البعيدين عنها، أصبحت حائلاً بينها وبين زوجها . . . والآن وقد أدى استمرار هطول الأمطار الى قطع كل سبل التراسل والاتصال، فلم يكن أمامها سوى الاعتصام بالصبر والانتظار . . .

وزادت الأحوال الجوية سوءاً حتى لم يعد أحد يخرج الى الشارع . . . وبلغ من تشاؤم أورسولا ان قالت إنها لا تنتظر سوى انقطاع الأمطار لكي تقضي نحبها وتستريح . . .

والواقع أن حالة الشوارع ازعجت اوريليانو الثاني، وتزايد انزعاجه

بشأن مواشيه، حتى اضطر أخيراً أن يغطي رأسه بمشمع ويذهب الى بيت بيترا كوتيس... فوجدها في الحوش غارقة في المياه الى وسطها وهي تحاول تعويم جثة حصان... فساعدتها بواسطة رافعة حتى أمكن دفع الجثة الى تيار الوحل المتدفق ليحملها بعيداً... وكان هم بيترا كوتيس منذ بدأت الامطار هو تطهير الحوش من الحيوانات الميتة... وخلال الأسابيع الأولى كانت تبث برسائل الى أوريليانو الثاني لاتخاذ الاجراءات العاجلة التي يقتضيها الموقف بعد ان زاد تفاقمًا، فكان يرد عليها بأنه لا لزوم للعجلة، وان الوقت سيكون متسعاً للتفكير في ما يجب عمله بعد ان ينكشف الجو. وكان مما قالت ان مراعي الخيل قد غمرتها المياه، وان المواشي تهرب الى المناطق المرتفعة حيث لا يوجد ما تأكله وحيث تكون تحت رحمة الوحوش والامراض... والواقع ان بيترا كوتيس كانت ترى الحيوانات تنفق جماعات، وكانت تعمد الى ذبح بعضها وهي غارقة في الوحول... بل رأت وهي عاجزة عن أي فعل ان الفيضان كان يستأصل بكل قسوة ثروة كانت معدودة في وقت من الأوقات اضمخ ثروة في ماكوندو، ثم ذهبت بدداً... وعندما قرر أوريليانو الثاني في النهاية أن يذهب اليها ليرى ما هو حادث، لم يجد سوى جثة حصان وبغل قذر في الإسطبل... ولما رآته بيترا كوتيس تلقته بنظرة لا هي نظرة دهشة أو فرحة أو استياء، وابتسمت سخرية قائلة :

- جئت في وقتك ! ..

لقد تقدمت بها السن، وبدت كتلة عظام وجلد، وغدت عيناها الوحشيتان مستأنستين مكتئبتين بطول النظر الى الامطار... ولبث أوريليانو الثاني في بيتها أكثر من ثلاثة أشهر، لا لأن المقام فيه كان أفضل من بيت اسرته، ولكن لأنه احتاج الى كل هذه المدة لكي يحزم امره ويضع قطعة الشمع الواقية فوق رأسه مرة اخرى... وخلال الاسبوع الأول من اقامته اعتاد ما فعلته الأمطار والزمن بمحاسن عشيقته، وشيئاً فشيئاً غدا يراها كما

كانت تبدو له في ماضي ايامها المليئة بالمغريات ، ولكنها صدته عنها برفق ،
مذكرة اياه بما فعلت بهما الأيام والسنون ، مما لا يدع مجالاً لأي عبث أو
فتون . . .

وعاد أوريليانو الثاني الى البيت الكبير مع حقائب ملابسه وقد اقتنع بأنه
ليست فقط أورسولا هي التي كانت تنتظر انقطاع الأمطار لكي تموت ، بل كل
سكان ماكوندو . . . فقد أبصرهم في الطرقات جاثمين في ردهات بيوتهم
بأذرع مشبكة وأعين محدقة في الأمطار التي لا تنقطع ، حتى ما عاد لتعاقب
الأيام والأسابيع والشهور حساب عندهم . . . ولكن الطفلين تلقيا عودته
بالاحتفال والفرح ، ومرة أخرى كان يصحبهما الى غرفة « ميم » ليريهما دائرة
المعارف الانجليزية المصورة ويلعبهما باللعب المتخلفة في الغرفة . . .
وظلت الأيام تمضي على هذه الوتيرة الى ان جاء يوم قالت له فيه زوجته
فرناندا إنه لم يبق في « الكرار » من القوت إلا ثلاثة أرطال من اللحم المقدد
وكيس أرز واحد . . . فقال لها :

- وماذا تريدني مني أن أفعل من أجل هذا ؟ . .

فردت فرناندا قائلة :

- لا أعرف . . هذا اختصاص الرجال . . .

فقال أوريليانو الثاني :

- لا بأس . . . سنفعل ما يمكن عندما يتكشف الجو . . .

كان أوريليانو الثاني اكثر اهتماماً بدائرة المعارف المصورة منه بالشؤون
المعيشية ، حتى عندما راض نفسه على الاكتفاء بمزقة لحم وقليل من الأرز
في طعام الغداء . . وكان يقول لزوجته :

- لا يمكن ان تستمر الأمطار الى آخر حياتنا . . . أما الآن فيستحيل
عمل أي شيء . .

وبقدر ما كان رصيد « الكرار » يتناقص ويتضاءل، كان احتياج فرناندا يشتد ويتزايد، الى ان تفجرت غضبتها المكظومة حتى صارت كالسيل الدافق، اذ بدأت ثورتها العارمة في الصباح وامتدت طيلة النهار وهي تدور في أرجاء البيت شاكية انهم ربوها في بيت أبويها كملكة لكي تصبح في النهاية خادمة في بيت مجانين مخبولين، مع زوج كسول عرييد يستلقي على ظهره انتظاراً لخبز ينزل عليه من السماء، بينما تكد هي وتكدح طول النهار لتدبير شؤون بيت مفكك الأوصال لا صلاح لأمره . . .

أما أوريليانو الثاني فقد ظل يستمع الى هديرها الساعات وهو جامد الملامح وكأنه أصم . . . ولم يرد عليها ولم يقطعها حتى كاد النهار ان ينصرم، وعندها لم يطق صبراً، قال لها :
- أرجوك أن تسكتي . . .

ولكن فرناندا بالعكس زاد صوتها ارتفاعاً قائلة :
- لا سبب يدعوني الى السكوت ! . . من لا يريد ان يسمعني فليذهب الى أي مكان آخر . . .

عندئذ فقد أوريليانو الثاني كل سيطرة على اعصابه، وفي سورة الاحتدام التي تملكته راح يحطم أصص الزهور والأطباق والكؤوس وكل ما يمكن تحطيمه، حتى تناثر الحطام في كل مكان . . . بل امتدت سورته الى الصور الزيتية المعلقة فمزقها تمزيقاً، والى أواني المطبخ فهشمها تهشماً . . . ثم غسل يديه، وألقى قطعة الشمع الواقي على رأسه وخرج . . . وقبل منتصف الليل عاد ومعه مزق من اللحم المقدد، وبعض أكياس الأرز والقمح، وعنقود موز أعجف . . . وبعدها لم يعد البيت يشكو نقصاً في القوت . . .

وفي خلال ذلك كان الصغيران امارانتا وأورسولا وأوريليانو يتذكران

الأمطار كشيء جالب للبهجة . . وعلى الرغم من صرامة فرناندا فإنهما كانا يلهوان بفقايع المياه في الحوش ويقتصان السحالي ويقومان بتشريحها بدعوى أنها تعمل على تسميم الحساء بالغبار الذي تنثره اجنحة الفراش، وذلك في غفلة من فرناندا وسانتا صوفيا بيدال . .

وكانت أورسولا هي لعبتهما المفضلة . . . كانا ينظران إليها على أنها « عروس » كبيرة مكسورة ينقلانها من مكان إلى آخر . . . وكادا مرة أن يفقأ عينيها بمقص تقليم الزهور كما كانا يفعلان بالضفادع . . وما كان لشيء أن يستهويهما ويمتعهما سوى شطحات سرود العقل التي كانت تلم بها في العام الثالث من تساقط الأمطار المستمر، وفيها كانت تفقد الإحساس بالواقع وتخلط الزمن الحاضر بعهود حياتها الماضية، إذ يمضي الوقت وهي تبكي أقرباء لها ماتوا منذ أزمان غابرة، وتحسب الحفيدين أبناءها المغيبين تحت الثرى . . ثم كانت تعود إلى الصحو والرشد فتذكر رجلاً جاء إلى البيت الكبير بتمثال للقديس يوسف طالباً حفظه إلى أن ينقطع المطر فيعود لاسترداده . . فكان من جراء ذلك أن تذكر أوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه سوى أورسولا، ولكن كل ما توصل به من الاسئلة والمناورات لم يفلح في استدراجها إلى البوح بالسِر، إذ إنها برغم خيالها قد بقيت لها بارقة تعقل جعلتها تحرص على الاحتفاظ بالسِر إلا للرجل الذي يقدم الدليل على أنه هو صاحب الكنز الذهبي الدفين . . . بل لقد بلغ من فكرها وتدقيقها أنه عندما لقن أوريليانو الثاني واحداً من بطانة مبادئه ومجونه للتقدم إلى العجوز على أنه هو صاحب الثروة، لم تزل أورسولا بهذا الدعي تستجوبه وتضيق الخناق عليه بأسئلتها الماكرة حتى تخلى أوريليانو الثاني في النهاية عن المحاولة . . .

وكما أن لكل شيء بدايته، فلكل شيء في الحياة نهايته . . . فذات يوم من أيام شهر يونيو بعد تلك السنوات المطيرة الطوال، بدأت الأمطار تقل،

والسحب تنقشع، وبدأ واضحاً بين لحظة وأخرى ان الجوى يوشك ان يتكشف... وهذا ما حدث... ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة اضاءت السماء بأشعة قرمزية لشمس مترنحة، وبعدها لم يسقط المطر مرة أخرى مدى عشر سنوات ..

وكانت ماكوندو قد استحالَت الى خرائب... ففي الشوارع تناثرت بقايا الاثاث المحطم وهياكل الحيوانات... وغدت البيوت التي بنيت على عجل للعاملين في زراعات الموز قاعاً صنفصافاً بعد أن فر منها سكانها، وقوضت شركة زراعة الموز ذاتها منشأتها ومرافقها... أما الناجون من الكارثة من سكان ماكوندو الأصليين فقد وجدهم أوريليانو الثاني عند خروجه أخيراً لتفقد الأحوال جالسين في وسط الشوارع يستمتعون بدفء الشمس، فرحين باستعادة البلدة التي ولدوا فيها رغم الدمار الذي حل بها...

وكانت بيترا كوتيس هي أكثر سكان البلدة تجلداً... فقد شاهدت الدمار الشامل للإسطبلاتها، واكتساح العاصفة لمخازن حبوبها، بيد أنها أفلحت في استبقاء بيتها قائماً... ولما رأت تقاعس أوريليانو الثاني عن نجدتها عندما استغاثت به أكثر من مرة، أقسمت على ان تعمل لاستعادة الثروة التي بعثرها عشيقها ثم أتى عليها الفيضان... ولقد كان عزمها في هذا القرار راسخاً الى حد أنه عندما زارها أوريليانو الثاني بعد ثمانية أشهر من رسالتها الأخيرة اليه، ألفاها ممتعة غائرة العينين، ولكنها كانت تكتب ارقاماً في قطع صغيرة من الورق لاستئناف عملية يانصيب «الكارتيل» السالفة... لقد دهش أوريليانو الثاني حقاً، أما هي فقد بدا لها لفرط ما رآته من علائم التشعث في مظهره ان القادم ليس عشيقها، بل شقيقه التوأم... وقال يعبر لها عن دهشته :

- أنت مجنوننة... إلا اذا كنت ستعرضين في الكارتيل...

العظام...

وعندئذ طلبت منه أن ينظر في غرفة النوم . . فرأى أوريليانو الثاني
بغلاً . . كان جلده ملتصقاً بعظامه مثل صاحبه، بيد أنه كان حياً و متماسكاً
مثلها أيضاً . . لقد اطعمته بيترا كوتيس من غضبها، وعندما لم يبق لديها قمح
ولا عليقة ولا جذور، آوته في غرفة نومها، وجعلت تطعمه قماش الشيت، ثم
السجاد، ثم الستائر المخملية، ثم مظلة السرير الموشاة بخيوط الذهب . .
وكلها من مخلفات غرفة النوم الفاخرة التي افتن أوريليانو الثاني في تأثيثها بها
عندما كان في أوج النشوة والافتتان . .

الفصل السادس عشر

كان على أورسولا ان تبذل جهداً كبيراً لكي تفهم نبوءتها أن تموت بعد انقطاع الأمطار. . . فإن موجات الصحو والشفافية التي كانت تلم بها نادراً إبان فصل الأمطار، غدت كثيرة بعد ان بدأت الرياح الجافة تهب على البلدة وترد اليها بعض الذاكرة. . . ولقد بكت أورسولا الى حد العويل والتدب عندما اكتشفت ان الطفلين أوريليانو وأمارانتا أورسولا جعللا منها العوبة يتقاذفانها على مدار ثلاث سنوات ونيف. . . ولأول مرة منذ وفاة ابنتها أمارانتا قامت من الفراش بغير مساعدة من أحد لكي تشترك في حياة الأسرة من جديد، وكان لها من روح العزم في قلبها الذي لا يقهر ما جعلها تدرج في أرجاء البيت رغم عماها مستهدية بحواسها الأخرى. . . ومنذ قومتها تلك لم تسمح لنفسها بلحظة راحة، بل جعلت كل افراد الأسرة يشاركونها في تنظيف البيت وإصلاح ما أفسدته الأمطار من متاع وأثاث. . . الى أن وصل بها المطاف الى غرفة مالكويداس المغلقة بالقفل من الخارج تنفيذاً لمطلب جوزيه أركاديو الثاني من أمه سانتا صوفيا بيدال ألا تفتحها إلا بعد وفاته. . . فقد أصرت على أن يفتحوا لها الغرفة خصوصاً وقد تذكرت انه في احدى الليالي المطيرة. . . جاءت شلة من الجنود وفتشت البيت بحثاً عن جوزيه أركاديو الثاني ولم تستطع اكتشاف وجوده. . . ولما نزلوا على اصرارها كادت تسقط في المدخل من فساد الهواء لولا ان تعلقت بالباب، هاتفة وكأنها رأت ما بالداخل :

- الرحمة يا ربي! . . علمتك طول حياتي النظافة يا بني، فإذا بك تنتهي مثل خنزير! . . .

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يزال عاكفاً على فك طلاسم
المخطوطات... وكان الشيء البادي منه هو الشعر القليل المتناثر في رأسه
وأسنانه المخضرة وعينه الجامدتان... وعندما سمع صوت جدته الكبرى
أدار رأسه نحو الباب وحاول الابتسام، ولم يسعه من الكلام سوى العبارة
التي طالما سمع أورسولا ترددها :

- وماذا نتوقع ؟ .. الزمن يمر...

لكنها لم تبال بقوله، وراحت تربيخه كأنه طفل، وأصرت على أن يأخذ
حماماً ويحلق ويمد يده للمساعدة في اصلاح ما حل بالبيت... والواقع ان
فكرة خروجه من الغرفة التي أعطته الامان والسكينة قد أفزعته، حتى لقد
صاح بأنه لا توجد قوة بشرية يمكن ان تحمله على الخروج لأنه لا يريد أن
يرى القطار المحمل بالموتى الذي غادر ماكوندو ليلاً متجها الى البحر...
وعندئذ فقط أدركت أورسولا انه يعيش في عالم من الخيالات اكثف من
عالمها وأشد عزلة من عالم جده الأكبر « جوزيه أركاديو بوينديا » عندما أطبق
عليه الجنون... وهكذا تركته في الغرفة، ولكنها اصرت على ان يرفعوا
القفل عن الباب وأن يجعلوه نظيفاً لائقاً مثلما كان حال جده الأكبر تحت
شجرة الكستناء... وأول الأمر فسرت فرناندا تلك الجلبة كنبوة من خيال
الشيخوخة، وكان من الصعب ان تكتم سخطها... ولكن حدث في ذلك
الوقت ان ولدها جوزيه أركاديو بعث اليها برسالة قال فيها إنه ينوي القدوم الى
ماكوندو من روما قبل ان يرسم في منصبه الديني بصورة نهائية، فكان في هذا
النبا ما أفعم نفسها حماسة حتى راحت تروي الزهور أربع مرات في اليوم،
لكيلا ينطبع في نفس ولدها اثر سعى عن البيت...

وكان أوريليانو الثاني الذي اعاد صناديق ملابسه المتجولة الى دار بيترا
كوتيس يجاهد ما وسعه الجهد لكيلا تتضور أسرته جوعاً... فقد استطاع هو
وبيترا كوتيس بعد عرض البغل في يانصيب « الكارتيللا » أن يشتريا بعض

حيوانات اخرى، مما مكنهما من ادارة عملية يانصيب جديدة كان اوريليانو خلالها يطوف بالبيوت لبيع التذاكر، وإن نال ذلك من صحته حتى ذهبت عنه البدانة والتورد وغدا أقرب الى النحول والضعف، ولكنهما كانا يقتتران على نفسيهما لتوفير أسباب المعيشة الضرورية لأهل البيت الكبير. . .

وقد أدى انهماك اوريليانو الثاني في عمليات اليانصيب هذه الى اهمال رعاية الطفلين. . . فعمدت فرناندا الى إلحاق ابنتها « امارانتا اورسولا » بمدرسة خاصة صغيرة لا يجاوز عدد تلميذاتها ست بنات، ولكنها رفضت السماح لحفيدها اوريليانو الصغير « ابن ميم » بالذهاب الى مدرسة عامة. . . فقد اعتبرت انها تسامحت أكثر من اللازم اذ تركته ييارح الغرفة. . . وفضلاً عن ذلك فإن المدارس في ذلك العهد لم تكن تقبل سوى الابناء الشرعيين، في حين قد ورد في شهادة ميلاده التي جاءت معه من الدير أنه لقيط. . . وهكذا بقي اوريليانو الصغير معزولاً تحت رحمة سائتا صوفيا بيدال الطيبة ونزوات اورسولا المتقلبة بين الصحو والخيال، لا يتعلم في دائرة البيت الضيقة سوى ما يتلقاه من جدتيه. . . كان في الحق مخلوقاً نحيلاً رقيقاً شديد حب الاستطلاع الى حد يضايق الكبار، لا تكف عيناه عن الاختلاج. . . وفي حين كانت « امارانتا اورسولا » في روضة الأطفال، كان هو يصيد اللبيلدان ويعذب الحشرات في الحديقة. . . ولكن عندما ضبطته فرناندا يوماً يضع بعض العقارب في علبة لدسها في فراش اورسولا، حبسته في غرفة « ميم » القديمة حيث اصبح يمضي ساعات العزلة في تصفح صور دائرة المعارف. . . وعندما وجدته اورسولا في هذه الغرفة عصر ذات يوم، وعلى الرغم من أنها كانت معه مراراً، فإنها سألته من يكون، فأجابها :

- انا اوريليانو بوينديا . . .

فردت عليه قائلة :

- تمام. . . والآن جاء الوقت لكي تتعلم سبك المعادن . . .

لقد خلطت بينه وبين ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا في صغره، فإن الرياح الحارة التي جاءت في أعقاب الفيضان وكانت تجلب لها فترات الصحو والإدراك قد ولت... ولم تسترد عقلها بعد ذلك قط... وأصبحت تجلس في فراشها تكلم نفسها وتبتعث سير الموتى من أقربائها ومعارفها وتخلط الماضي بالحاضر على نحو مثير للراء... وغدت تزيد انكماشاً وضآلة بمرور الأيام حتى أصبحت في الشهور الأخيرة مثل ثمرة ذابلة في فراغ جلبابها... وذات يوم ظلت جامدة عدة أيام حتى راحت سائتاً صوفياً بيدال تهزها لكي تقتنع بأنها على قيد الحياة، ثم أجلستها في حجرها وسقتها بضع ملاعق من ماء محلى بالسكر... ومرة أخرى أخفاها أوريليانو وأمارانتا أورسولا في دولاب في الكرار، حيث كان يمكن ان تنهشها الفئران...

ثم وجدوها ميتة صباح يوم الجمعة الحزينة... وكانت آخر مرة سألوها ان تقدر عمرها التقريبي ايام وجرد شركة زراعة الموز، قدرته في ما يتراوح بين مائة وخمسة عشرة سنة وبين مائة واثنين وعشرين... وقد دفنوها في تابوت لا يزيد حجمه عن حجم السلة التي جاء فيها أوريليانو الصغير، ولم يشهد جنازتها الا نفر معدود من الناس، ومرجع ذلك الى قلة من يتذكرونها من أهل البلدة، ثم الى شدة القيظ في ذلك اليوم الى حد ان الطيور في اضطرابها كانت تترامى على جدران البيوت وتشق ستائر النوافذ لكي تموت افواجاً في غرف النوم...

وبوفاة أورسولا ارتد البيت الكبير مرة اخرى الى حالة من الإهمال لا يمكن انقاذه منها حتى بعزيمة قوية مثل عزيمة «امارانتا أورسولا»... تلك التي تهيأ لها بعد تعاقب اعوام كثيرة وبعد ان أصبحت امرأة عصرية سعيدة خالية من العقد، ان تفتح ابواب البيت ونوافذه على مصاريعها لكي تطرد عنه الدمار وتعيد للحديقة نضارتها وتستأصل النمل التي أصبحت تسمى في

المدخل في وضوح النهار، وإن حاولت عبثاً أن تبعث في البيت روح الضيافة
الذاهبة

كانت تلك كلها هي الصورة بعد الامطار والفيضان . . . وفي خلال
ذلك كانت فرناندا مشغولة بمرضها الذي لم تكاشف احداً من اهل البيت
بحقيقته ترفعاً واستعلاءً، وإن كان الباقون منهم على قيد الحياة لا يعيرونها
اهتماماً . . . فإن سانتا صوفيا بيدال كانت تمضي ايام شيخوختها الهادئة في
طهي الطعام القليل الذي يأكلونه، متفرغة أكثر الوقت لرعاية ابنها جوزيه
اركاديو الثاني . . . وكانت « امارانتا اورسولا » التي ورثت بعض محاسن
ريميديوس الجميلة تقضي وقتها الذي كانت تضيعه من قبل في تعذيب
اورسولا في استذكار دروسها وقد ابدت في هذا من التقدم والتفاني ما جعل
أوريليانو الثاني يعد بإيفادها الى مدينة بروكسل لإتمام تعليمها . . . وكانت
المرات القليلة التي زار فيها البيت الكبير، من اجل « امارانتا اورسولا » .
فقد اصبح يمضي الوقت غريباً عن زوجته فرناندا، وغدا أوريليانو الصغير
أكثر انطواءً وهو يقترب من دور المراهقة . . . وكان أوريليانو الثاني يؤمل ان
يلين قلب فرناندا بتقدمها في السن حتى يتهاى للطفل ان يندمج في حياة بلدة
اصبح اهلها لا يتشددون في شيء مثل الاهتمام بمنبته . . . بيد ان أوريليانو
الصغير ذاته كان يفضل العزلة ولا يبدي اقل رغبة في معرفة العالم الذي يبدأ
من باب الشارع في البيت الكبير . . . وعندما عملت اورسولا على فتح باب
غرفة مالكويداس اخذ أوريليانو الصغير يتلصص بنظره الى داخلها، ولم
يعرف احد في اية لحظة توثقت الصلة بينه وبين جوزيه اركاديو الثاني حتى
استحالت الى مودة مشتركة . . . وقد اكتشف أوريليانو الثاني هذه المودة بعد
وقت طويل من بدئها، حين وجد الصبي يردد ما كان يقوله جوزيه اركاديو
الثاني عن مذبحه القتل في ميدان محطة سكة الحديد ونقل القتلى بالقطار
الليلي لإلقائهم في البحر . . . لقد ردد الصبي هذا الكلام اثناء الجلوس الى

المائلة بين افراد الأسرة بلهجة إنسان ناضج ، مؤكداً ان هذا من تدبير شركة الموز خلاصاً من الاستجابة لمطالب العمال . . . ولما كانت فرناندا مقتنعة بما جاء في البيانات الرسمية من دحض لهذه الدعوى ، فقد بدا لها ان الصبي ورث الآراء المتطرفة عن الكولونيل اوريليانو بوينديا ، وانتهرته لكي يضمنت . . . اما اوريليانو الثاني فقد عرف في كلام الصبي تأثير اخيه التوأم . . . وعلى الرغم من ان الجميع كانوا يعدون جوزيه اركاديو الثاني من المجانين ، فإنه كان اكثر اهل البيت تعقلاً اذ ذاك . . . فقد علم اوريليانو الصغير القراءة والكتابة ، وكان يشركه في محاولة فك طلاسم المخطوطات ويعمل على توسيع دائرة معلوماته . . .

وتتعاقب الايام والشهور على هذا النحو ، الى أن يأتي يوم يستيقظ فيه اوريليانو الثاني في منتصف الليل وهو يشعر باختناق شديد في حلقه وكأنما انشب فيه سرطان بحري مخالفه . . . وكانت هذه اول بادرة أحس فيها بقرب دمو أجله . . . لكنه لم يخبر أحداً . . . كان يعذب في ذلك الحين ان يموت قبل ان يحقق وعده بإرسال « أمارانتا اورسولا » الى بروكسل لإتمام تعليمها . . . وهكذا راح يجهد نفسه في العمل بما لم يفعل مثله في كل حياته الماضية . . . وبدلاً من السعي الى توزيع يانصيب كارتيللا واحدة في الاسبوع ، اتجه الى توزيع ثلاث كارتيلات . . . فكان يبدأ في ساعة مبكرة من الصباح طوافه بالبلدة الى ساعة متأخرة من الليل ملحاً على الناس لشراء تذاكر اليانصيب ، وهو في ذلك يتعرض لنوبات الألم الفتاكة في حلقه الى حد يقعده في حالة يرثى لها في الطريق . . . وكثيراً ما غدا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم لفرط ما كان يبدي من إلحاح وترغيب في الشراء . . . وبعد وقت بدا له ان عملية عرض الخنازير والمعز وما اليها في يانصيب الكارتيللا لن تكفي لإرسال ابنته الى بروكسل . . . وهكذا هداه طول التفكير الى عرض الاراضي البور التي أتلّفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على

عمدة البلدة رحب بها، وتكونت على الأثر روابط لشراء تذاكر بقيمة مائة جنيه للتذكرة الواحدة بيعت كلها في أقل من أسبوع. . . وفي ليلة السحب اقام الفائزون حفلاً كبيراً عزف فيه اوريليانو الثاني على الأكورديون. . . لآخر مرة. . .

ولم ينقض شهران حتى ذهبت « امارانتا اورسولا » الى بروكسل. . . وقد اعطاها اوريليانو الثاني كل النقود التي جمعها من يانصيب الاراضي، مضافاً اليها ما ادخره في الماضي، مما عده كافياً للوفاء بنفقات الدراسة والمعيشة. . . وكانت فرناندا في أول الأمر ضد الرحلة بعد ان روعها رحيل ابنتها الى بروكسل القريبة من باريس مدينة اللهو والمفاتيح، لولا ان الأب انجيل الكاهن الجديد زود الفتاة بتوصية الى دار للإقامة مخصصة للفتيات تشرف عليها راهبات. . . وقد اعدت لها فرناندا مع الملابس والمتاع الضروري حزاماً من القنب تحفظ فيه نقودها وشدت عليها ألا تخلعه حتى في نومها. . . وبعد اشهر معدودة، عندما حانت ساعة اوريليانو الثاني الأخيرة وهو على فراش الموت، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهي تطل من نافذة القطار ملوحة لوالديها على رصيف المحطة وقد تجلت رشاقتها ونضوجها ولكن دون دموع ولا ضعف، مما دل على قوة عزم مبكر. . . وظلا واقفين على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لأول مرة منذ الزواج، الى ان غاب القطار عن الانظار. . .

وفي التاسع من شهر اغسطس، قبل ورود الرسالة الاولى من بروكسل، كان اوريليانو الصغير يتحدث مع جوزيه أركاديو الثاني في غرفة مالكويداس، ودون سابق تمهيد قال له هذا :

- تذكر دائماً انهم كانوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل، وأنهم إلقي بجثثهم في البحر. . .

وعلى الأثر وقع جوزيه أركاديو الثاني على ظهره فوق المخطوطات

وفاضت روحه وهو مفتوح العينين . . . وفي اللحظة نفسها تقريبا، وفي فراش فرناندا، كانت نهاية أخيه التوأم اوريليانو الثاني، بعد المرض الطويل المفترس الذي اكل حلقه وغيب صوته تماما في الأسابيع الأخيرة وحبس انفاسه او كاد . . . وفاء بما وعد من ان يكون موته بجانب زوجته . . . وكانت بيترا كوتيس قد عاونته في الفترة الأخيرة في جمع ملابسه وودعته قبل رحيله من دارها دون ان تذرف دمعة واحدة، ولكنها نسيت ان تعطيه الحذاء الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته . . . وهكذا ما ان سمعت بوفاته حتى اتشحت بالسواد ولفت الحذاء في جريدة وطلبت الإذن من فرناندا لإلقاء نظرة أخيرة على الجثة . . . فلم تسمح لها فرناندا بأن تطأ قدمها عتبة البيت، فقالت بيترا كوتيس مستعطفة :

- ضعي نفسك مكاني . . . تصوري مقدار حبي له بحضوري اليك والتعرض لهذه المهانة . . .

فردت عليها فرناندا قائلة :

- ليست هناك مهانة لا تستحقها عشيقه . . . ولك ان تتظري حتى يموت واحد آخر من عشاقك الكثيرين لكي تلبسه الحذاء ! . . .

وعملًا بوصية جوزيه اركاديو الثاني الذي طالما خشي ان يدفن حياً بعد موته - متأثراً بما رآه في صغره مرة من دفن المحكوم بإعدامهم وعيونهم لا تزال مفتوحة - فقد تولت أمه سانتا صوفيا بيدال حزر قبته بسكين المطبخ . . . وقد وضعت جثتا الأخوين التوأمين في تابوتين متماثلين، وهكذا تحقق في الموت عودة التماثل بينهما كما كانا حتى عهد المراهقة . . . وجاء أصحاب اوريليانو الثاني في اللهلوداعه الأخير ومعهم إكليل زهور محفوف بشريط وردي كتبت عليه عبارة كانت شعارهم في مجونهم : « تمتع ، فالحياة قصيرة » . . . بيد ان فرناندا التي أسخطها هذا الاجترار على حرمة الموتى

رفعت الإكليل وألقته في القمامة . . . وفي ثنایا الهرج الذي ساد في اللحظة
الاحيرة، خلط السكارى المحزونون التابوتين وهم يحملونهما، وهكذا دفن
التوأمين في القبرين المغلوقين . . .

الفصل السابع عشر

لم يفارق اوريليانو الصغير غرفة مالكويداس زمناً طويلاً . . . لقد لفظ عن ظهر قلب الأساطير الخرافية التي تضمنتها تلك الكتب العنيفة، من مذكرات عن علوم الجن والشياطين، ومفاتيح الوصول الى حجر الفلاسفة، وحوليات نوسترا داموس وأبحاثه . . الى غير ذلك مما جعله يبلغ سن المراهقة دون ان يعرف شيئاً عن الزمن الذي يعيش فيه، مزوداً فقط بالمعرفة الأساسية لانسان من العصور الوسطى . . . وكلما دخلت عليه جدته سانتا صوفيا بيدال وجدته مستغرقاً في القراءة . . . وكانت تأتيه عند الفجر بلإبريق القهوة بغير سكر، وعند الظهر بطبق أرز وشرائح الموز المقلي، وهو الطعام الوحيد الذي كان يؤكل في البيت منذ وفاة أوريليانو الثاني . . وكانت تعمل على قص شعره، وإلباسه الملابس القديمة التي تعثر عليها بعد جعلها على مقاسه . . . وعندما نبت شاربه جاءته بموسى الكولونيل اوريليانو بوينديا والإناء الصغير الذي كان يستخدمه في حلق ذقنه . . وكان يبدو لها أحياناً انه يكلم نفسه . . . اما الواقع فإنه كان يكلم طيف مالكويداس . . . فقد حدث ظهر يوم متقد الحر بعد وفاة الأخوين التوأمين ان أبصر منعكساً من وهج النافذة طيف مالكويداس كما كان يتصوره . . . وقد سأله مالكويداس بعد ان رآه يراجع الحروف الأبجدية للمخطوطات كما تلقاها عن جوزيه اركاديو الثاني، عما اذا كان قد اكتشف اللغة التي كتبت بها المخطوطات، فأجاب اوريليانو :

.. اللغة السنسكريتية . .

فبين له طيف مالكويداس ان ظروف عودته الى هذه الغرفة محدودة لأنه عائد في سلام الى رحاب الموت الكلي، ومن ثم سيجد اوريليانو الوقت

متسماً لتعلم اللغة السنسكريتية خلال السنوات الباقية على بلوغ عمر المخطوطات مائة عام، وعندها سيحين أوان فك رموزها. . وكان هو الذي دل أوريليانو على أنه يوجد في الشارع الضيق المؤدي الى النهر رجل حكيم من ابناء قطالونيا عنده مكتبة بها مفتاح اللغة السنسكريتية في كتاب مزخرف سيأتي عليه العث في مدي ست سنوات اذا لم يبادر بشرائه. وشد ما كانت دهشة سانتا صوفيا بيدال التي لا يدهشها شيء عندما طلب منها أوريليانو ان تعيظه بالكتاب الذي يمكن العثور عليه بين مجلدي « تاريخ اورشليم » و« أشعار ميلتون » في أقصى الجناح الأيمن للرف الثاني من رفوف المكتبة. واذا كانت لا تعرف القراءة فإنها عت هذا في ذاكرتها ودبرت مبلغاً من بيع الاسماك الذهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية في المسبك، والتي لم يكن احد غيرها هي وأورسولا يعرف مكانها منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت. . .

وتقدم أوريليانو في دراسة اللغة السنسكريتية فيما كانت زيارات طيف مالكويداس تتناقص ويزيد الطيف شحوباً في ضوء الظهيرة الشديد. وآخر مرة شعر أوريليانو بوجود الطيف عندما همس في سمعه كيان غير منظور بهذه العبارة : « لقد توفيت بالحمى في رمال سنغافورة » وبعدها لم تعد الغرفة في منعة من الأتربة والحرارة وحشرات الترميت والنمل والعث، وهي كفيلة بإحالة المخطوطات الى نشارة. . . .

ولم يعد البيت يعاني من نقص القوت. فغداة يوم وفاة أوريليانو الثاني، جاء رجل من بطانة السكر الذين احضروا الاكليل غير المحتشم ليدفع الى فرناندا نقوداً كانت دينا عليه لأوريليانو الثاني. وبعد هذا كان يأتي كل يوم اربعاء صبي ومعه سلة طعام كانت تكفي قوت أسبوع. ولم يعرف احد قط ان هذه المؤونة كانت ترسلها بيترا كوتيس، وفي ضميرها ان هذا الاحسان المستمر هو طريقة لإذلال فرناندا التي أذلته. غير أن هذه

الضغينة ما لبثت ان تلاشت بمرور الايام ، وبعدها استمرت في ارسال القوت من قبيل التكبر، ثم في النهاية من قبيل الرحمة . . . وكثيرا ما كانت بيترا كوتيس - بعد أن كانت لا تجد حيوانات لليانصيب وبعد فقد الناس الاهتمام بذلك - كثيرا ما كانت هي تبقى دون طعام، لكي تجد فرناندا ما تأكله، وظلت وفية لعهدا هذا الى ان رأت جنازة فرناندا تمر في الشارع . . .

وفي خلال ذلك كانت سانتا صوفيا بيدال دائبة في خدمة البيت وتنظيفه من الأتربة والعناكب والحشرات القارضة، فلا تمضي ساعات حتى يعود كل هذا إلى سيرته الأولى، الى أن شعرت في النهاية ان شيخوختها وعظامها المكدودة لن تحتمل هذا الجهد الشاق، واذا هي تحزم ما بقي لها من متاع قليل وتتأهب للرحيل عن البيت . . . وعندما سألتها اوريليانو الى أين هي ذاهبة اجابته بلهجة غامضة أن لها أقرباء في بلدة ريوهاشا ستقيم عندهم، وان موته عليه في ذلك. فأعطاه أوريليانو أربعة عشر من الاسماك الذهبية بعد أن وجدها مصرة على الذهاب بما معها وهو لا يجاوز بيزو واحدا وبضعة سنتات . . . وبعد رحيلها لم يسمع شيء عنها بعد ذلك . . .

وعندما سمعت فرناندا برحيلها هاجت وماجت يوما بطوله . . . وقد اصببت بحروق في أصابعها وهي تحاول ايقاد النار لأول مرة في حياتها، واضطرت ان ترجو اوريليانو ليريها كيف تعمل القهوة . . . وبمضي الوقت كان اوريليانو هو الذي يباشر شؤون المطبخ . . . فكانت فرناندا تجد افطارها معدا عندما تقوم من النوم، وكانت تبرح غرفتها مرة ثانية لتجد طعامها فوق الموقد مجهزا، فتحملة الى المائدة لتجلس على رأسها في مواجهة خمسة عشر مكانا خاويا، فوق مفرش من التيل وبين الثريات . . .

لقد كانت فرناندا تعيش في عالم خاص بها ولا شاغل لها سوى مكاتبة ولديها وتلقي رسائلهما، حتى لم يعد يعنيتها شيء من مرور الزمن انتظارا

لعودتهما . . وعلى سبيل المثال لم تتصابق عندما أخبرها ابنها جوزيه
اركاديو - بعد مضي سنوات من اعلان قرب تخرجه النهائي - انه سينتظر
لإتمام دراساته في علوم اللاهوت المتقدمة، فقد سرت بهذا التأخير وسعدت
به وهي تعرف الطريق الشاق الى المناصب الكهنوتية العليا . . كما كان
سرورها وسعادتها بالمثل عندما أخبرتها ابنتها «أمارانتا أورسولا» أن دراساتها
سوف تطول أكثر من المقدر لها لأن تفوقها في الدرجات قد هبأ لها مزايا لم
تكن في الحسبان عندما قدر والدها موقفها الدراسي . . .

وانقضت ثلاثة اعوام ونيف منذ أن احضرت سانتا صوفيا بيدال الى
أوريليانو كتاب القواعد الذي مكنه من ترجمة الصفحة الاولى . . ولم يكن
هذا جهدا ضائعا، ولكنه كان خطوة اولى في طريق لم يمكن التنبؤ بطوله،
لأن النص الاسباني لم يفصح عن أي شيء، اذ كان مكتوبا بشفرة خاصة
تعذر على أوريليانو ان يحلها . . . غير أنه لما كان مالكويداس قد أخبره ان
الكتب التي يحتاج اليها للتوصل الى اعماق المخطوطات موجودة في مكتبة
القطالوني، فقد قرر أن يكلم فرناندا لكي تسمح له بالذهاب . . ولهذا قص
شعره الذي طال وحلق ذقنه ولبس، بنطلونا قصيرا وقميصا بياقة صناعية ورثهما
ممن لا يدري، ثم جلس في المطبخ ينتظر حضورها لأخذ طعام الافطار . .
لكن المرأة التي عهدا كل يوم والتي كانت ترفع رأسها شموخا وتعاليا لم
تصل، وإنما جاءت امرأة عجوز ذات جمال خارق تشع بحرملة من الفرو
الشمين وتاج من الورق المقوى المذهب، وتبدو عليها علائم انسان كان يبكي
لنفسه ليلا . . . والواقع ان فرناندا منذ أن عثرت على زيتها كملكة في امتعة
زوجها أوريليانو الثاني راحت ترتديه مرارا رغم ما أكل منه العث . . . ولو قدر
لأحد أن يراها وهي تختال أمام المرأة بهذا الزي الزائف لظنها مجنونة . . .
لكنها لم تكن . . . وإنما كانت تفعل ما فعلت للذكرى، وحيناً الى الماضي
المولى، وتسرية لنفسها عن سوء حالها الراهن . . .

هكذا عدل أوريليانو مشفقا عن طلب الاذن منها بالخروج اذ كان مفتاح البيت لديها، وان كان بوسعه ان يتسلل خارجا وعائدا دون ان تظن اليه، لولا أن طول سجنه في البيت وخوفه من مواجهة الناس والعالم الخارجي واعتياده طاعة الاوامر، كل ذلك قضى على روح التمرد في نفسه وفرض عليه عزله الغريبة . . . وكذلك عاد الى محبسه عاكفا على قراءة المخطوطات مرارا وتكرارا، متسمعا في الليل صوت فرناندا وهي تنتحب في غرفة نومها . . . الى أن ذهب الى المطبخ ذات صباح لإيقاد النار كالمعتاد، فوجد الطعام الذي تركه لفرناندا بالامس لم تمسه يد . . . وعندئذ نظر في غرفة نومها، فرآها ممددة فوق الفراش مغطاة بحرملة الفراء وهي اوفر جمالا مما عهد وقد استحالت بشرتها الى لون العاج . . . ولما عاد ابنها جوزيه اركاديو بعد اربعة اشهر، وجدها على نفس تلك الصورة . . .

كان من المستحيل أن يتصور احد شابا اكثر منه مشابهة لأمه . . . كان يرتدي بذلة من الحرير وقميصا بياقة صلبة مستديرة وشريطا حريريا في مكان ربطة العنق . . . وكان مليء الوجه مورده، واقرب الى الاسترخاء والترهل . . . وكان شعره الاسود اللامع الناعم مفروقا من وسط الرأس . . . وكان يتختم في يديه الناصعتي البياض بخاتم ذهبي مرصع بحجر من العقيق حول سبابة يده اليسرى . . . وعندما فتح باب الشارع لم يحتج أوريليانو الفتى الى من يدلّه على أنه جاء من سفر بعيد . . . وما أن خطا بضع خطوات في البيت حتى فاحت منه رائحة العطر الذي طالما نثرته اورسولا عليه وهو طفل لكي تستدل من الرائحة على مكانه بعد أن كف بصرها . . . وقد تقدم جوزيه اركاديو من فوره الى مخدع أمه، حيث كان أوريليانو قد تولى غلي زئبق مدى اربعة اشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارثة . . . ولم يبادره جوزيه اركاديو بأي سؤال . . . وانما قبل الجثة فوق الجبين، ثم جذب من ثنايا ملابسها مفتاح دولاب صاحبها الخاص، ولما فتحه اخرج منه علبة

صغيرة كان بداخلها الرسالة المطلوبة التي باحت فيها فرناندا بكافة الحقائق التي كانت حريصة دائما على إخفائها عنه في رسائلها اليه . . . فعكف على قراءتها واقفا بلهفة ولكن دون قلق، وما أن وصل الى الصفحة الثالثة حتى توقف وتفرس في أوريليانو بنظرة تعرف بعد النظرة الأولى العابرة، وقال له بصوت كحد الموسيقى :

- إذن . . أنت ابن الحرام . . .

- أنا أوريليانو بوينديا . . .

فقال جوزيه اركاديو :

- اذهب الى غرفتك . . .

فذهب أوريليانو، ولم يخرج ثانية حتى من باب الفضول عندما سمع صوت موكب الجنازة المحدود . . . وأحيانا كان يرى من المطبخ جوزيه اركاديو وهو يتنقل في البيت، ويسمع خطواته في غرفة النوم المهجورة بعد منتصف الليل، بيد أنه لم يسمع صوته مدى شهور كثيرة، لا لأن جوزيه اركاديو لم يتجه اليه أبدا بكلام، بل كذلك لأن أوريليانو نفسه لم يرد أن يحدث هذا ولم يحن الوقت ليفكر في أي شيء آخر غير المخطوطات . . . فعقب وفاة فرناندا حمل سمكة ذهبية وذهب الى مكتبة القطالوني الحكيم بحثاً عن الكتب التي يحتاج اليها . . . فوجده عاكفا على منضدة مستطيلة بين أكداش الكتب العتيقة البالية فوق الرفوف وفي الاركان وهو مستغرق في الكتابة بأحرف حمراء في كراسة مدرسية مفككة الصحائف، وبدا له أبيض الشعر أزرق العينين تلوح عليه مخائل انسان مهذب قرأ كل الكتب . . . ولم يرفع الرجل رأسه ليرى من القادم، غير أن أوريليانو لم يجد صعوبة في استخلاص الكتب الخمسة التي جاء يبحث عنها في القوضى الضاربة أطناها حوله، لأنه عثر عليها في الموضع الذي أرشده اليه طيف مالكويداس . . .

ودون كلمة واحدة وضع اوريليانو الكتب والسمة الذهبية أمام القطالسوني الذي ما أن نظر حتى ضاقت عيناه قائلاً :

- لا بد أنك مجنون ! . . .

بيد أنه هز منكبيه ورد اليه الكتب والسمة الذهبية قائلاً :

- لك أن تأخذها . . . ان آخر رجل قرأ هذه الكتب أصيب بالعمى . . .

وإذن فلتتدبر جيداً ما أنت فاعل

وأما جوزيه اركاديو فقد اصلىح غرفة نوم اخته «ميم» وحوض الاستحمام الاسمى . . . وكان ينام حتى الحادية عشرة صباحاً او ما بعدها، فيذهب الى الحمام حيث يعطر الحوض بأملح جاء بها، ويمكث فيه ساعتين طافياً على ظهره مستمتعاً بالطراوة . . . وبعد أيام قلائل من وصوله وضع جانباً بذلته الحريرية وهي الوحيدة التي جاء بها، واستبدل بها بنظوناً ضيقاً وقميصاً حريراً نقش فوق مكان القلب منه الحرفان الاولان من اسمه . . . ومرتان في الاسبوع كان يغسل هذا اللباس ويرتدي روب الحمام الى أن يجف، اذ لم تكن لديه ملابس غيرها . . . ولم يكن يأكل في البيت قط . . . كان يخرج بعد أن تخف وقدة القيلولة ولا يعود الا في وقت متأخر ليلاً . . . كانت الخدعة الكبرى التي أجازها على الجميع هي دراسته للاهوت . أما الحقيقة فهي أنه لم يكد يستقر في روما حتى هجر المعهد واستمر يغذي برسائله هذه الخرافة لكي لا يخاطر بذلك الميراث الكبير الذي كان ينتظره من أمه على نحو ما كانت تمنيه به اختلاقاً هي الاخرى طبقاً لطبيعتها التي كانت تجانب الحقيقة في كل شيء وتتعلق بعالم الاوهام . . . كان تفكيره منحصر في ذلك الميراث الوهمي الذي يخلصه من البؤس وشظف العيش مع صناعيين له في غرفة على السطح . . . وعندما تلقى رسالة فرناندا الاخيرة التي أملاها عليها إحساسها بدنو الأجل، جمع ما تبقى من العز الزائف في حقيبة صغيرة عبر بها المحيط في سفينة مع مهاجرين تكدسوا فيها مثل ماشية في مجزر يأكلون

المعكرونة الباردة والجبن بالديدان . . . وقبل أن يقرأ وصية فرناندا في رسالتها المطولة، وهي لم تكن أكثر من اعتراف تفصيلي ومتأخر بحقيقة الحال والبلايا الماثلة، كان أثاث البيت المحطم والحشائش البرية النامية لدى المدخل برهاناً صارخاً على أنه قد وقع في فخ لا مهرب له فيه . . .

وبعد عام من عودته المهيضة تلك، والتي اضطر فيها أن يبيع الثريات الفضية وغيرها مما بقيت له قيمة لكي يأكل، كانت سلواه الوحيدة في عزلته هي فتح ابواب البيت لصبية الحي لكي يلعبوا في البيت ويؤنسوا وحشته . . . فكانوا يشبون فوق الحبل في الحديقة ويغنون لدى المدخل ويقومون بالعباب بهلوانية بين أثاث حجرة المعيشة الى وقت متأخر من الليل، حتى صار البيت أشبه بمدرسة داخلية مجردة من كل نظام . . . ولم يتزعج أوريليانو من هذا الغزو طالما كانوا لا يعملون على مضايقته في غرفة مالكويداس . . . ثم حدث ذات صباح أن دفع أحد الصبية باب الغرفة، فروعهم مشهد رجل متسخ أشعر كان لا يزال عاكفا على محاولة فك طلاس المخطوطات فوق المنضدة . . . ولم يتجاسروا على دخول الغرفة، ولكنهم مسا برحوا يراقبونها . . . ومرة ألقوا فيها حيوانات حية من فوق عارضة الباب . . . وفي مناسبة أخرى سمروا الباب والنافذة حتى امضى أوريليانو نصف نهار في رفع المسامير وفتحهما . . . ولما اشجعهم عدم تعرضهم للعقاب في كل هذا، دخلوا الغرفة ذات صباح بينما كان أوريليانو في المطبخ وهموا بإتلاف المخطوطات . . . غير أنهم ما كادوا يضعون أيديهم على الصحائف المصفرة حتى شعروا بقوة خفية تكاد ترفعهم عن الأرض، الى أن عاد أوريليانو وانتزع المخطوطات من أيديهم . . . وبعدها لم يعملوا على مضايقته . . .

وكان اربعة منهم في سن المراهقة مثل جوزيه اركاديو يشاطرونه الاستحمام في الحوض، وقد توثقت بينه وبين احدهم وهو أجراهم أواصر الصداقة حتى كان يشاطره المبيت في البيت بعض الليالي، حيث يقضيان

الساعات في السمر والطواف بالغرف الخاوية . . . وذات ليلة استرعى نظرهما في غرفة أورسولا وهج أصفر منبعث من بين شقوق الأرضية المتآكلة وكان شمسا تحت الأرض قد غيرت أرض الغرفة الى لوح من الزجاج . . . ولم تكن بهما حاجة الى اضاءة النور . . . كان يكفي أن يرفعا البلاط المكسور في الركن الذي كانت تنام فيه أورسولا والذي كان ينبعث منه الوهج على أشده، لكي يعثرا على الكنز السري المليء بالذهب في أكياسه الثلاثة والذي كان يتوهج مثل جمرات في الظلام . . .

كان اكتشاف هذا الكنز الذهبي مفاجأة مذهلة . . . وبدلا من أن يعود جوزيه أركاديو الى روما بالكنز الذي هبط عليه من حيث لا يحتسب، فإنه احوال البيت الى فردوس . . . اذ اعاد تأثيث غرفة النوم بأفخر مما كانت عليه، وكسا أرضية الحمام وحوائطه بالبلاط، وملا دولا ب قاعة الطعام باللحم المقدد وعلب الفاكهة المحفوظة والمشهيات وفتح غرفة «الكرار» من جديد لتخزين الانبذة والمشروبات الكحولية التي كان يستجلبها من محطة سكة الحديد في لفائف معنونة باسمه . . . وذات ليلة أولم مع الفتيان الاربعة وليمة دامت حتى الفجر . . . وعند الساعة السادسة صباحا قاموا بتصفية حوض الحمام من المياه وملأوه بالشمبانيا، ثم تواثبوا فيه وراحوا يسبحون مثل طيور سابحة في سماء مذهبة بفقايع يفوح شذاها العطر . . . وقد تخلف عنهم جوزيه أركاديو عندما خرجوا من الحوض وبقي طافيا على ظهره في المياه مستغرقا في التفكير . . . وعندما لحق بهم في النهاية ألفاهم قد ائلفوا غرفة النوم حتى اصبحت حظاما . . . فاشتد سخطه عليهم حتى طردهم من البيت وهو يشبعهم ضربا . . . وبقي وحده ثلاثة أيام يعاني من ازمة ربو مستحكمة . . . ولما اشتدت عليه الازمة ذهب الى غرفة أوريليانو ورجاه ان يشتري له مسحوقا خاصا للاستنشاق من صيدلية قريبة . . . وكانت هي المرة الثانية التي خرج فيها أوريليانو من البيت، ولما وصل الى الصيدلية قابلته فتاة لها جمال

الافعى وأعطته الدواء الذي عاد به الى جوزيه اركاديو الذي قدر منه هذا الصنيع، حتى أنه بعد أيام قليلة أخل بعهد لأمه وترك أوريليانو حراً يخرج من البيت كما يشاء... ومن عجب ان أوريليانو رد عليه قائلاً :

- ليس لي ما أفعله في الخارج...

وبقي حببسا في البيت، منهمكا في فك طلاسم المخطوطات ومحاولة فهم مضامينها التي ظلت رغم ذلك مستغلقة عليه... وكان جوزيه اركاديو يجيشه ببعض اللحم المقدد والفاكهة المحفوظة، وشيء من النبيذ في مناسبتين... لكنه لم يهتم بالمخطوطات التي عدها من ترهات الماضي، ولكن اهتمامه غداً منحصر في ابن اخته هذا الذي ألفاه غزير المعلومات واسع المعرفة على نحو غريب، إذ وجده يفهم اللغة الانجليزية، الى جانب إلمامه بكل ما جاء في دائرة المعارف المصورة التي قرأ أجزاءها الستة من أول صفحة الى آخر صفحة كما يقرأ إحدى الروايات... ومهما يكن فقد توطدت الاواصر بين هاتين الشخصيتين المنعزلتين اللتين يسري فيهما دم واحد، وهي إن لم تكن صداقة بمعنى الكلمة، فقد كانت صحبة اعانتها على احتمال حياتهما الغريبة هذه...

وكان جوزيه اركاديو منذ ان طرد الفتیان من البيت ينتظر اخبار باخرة من عابرات المحيط ينوي الارتحال فيها الى نابولي قبل عيد الميلاد... وقد اخبر أوريليانو بهذا، بل فكر في خطة لإلحاقه بعمل لكسب قوته، اذ أن سلال الطعام قد انقطع ورودها الى البيت بعد دفن فرناندا...

وفي صباح يوم من سبتمبر بعد أن فرغ جوزيه اركاديو من شرب القهوة مع أوريليانو في المطبخ وكان على وشك الانتهاء من حمامه اليومي، إذ اندفع الى الحمام الفتیان الاربعة الذين طردهم من البيت، من خلال البلاط المكسور... وقبل أن يجد فرصة للدفاع عن نفسه قفزوا الى الحوض بكامل

ملا بسهم وجذبوه من شعره وأغرقوا رأسه في المياه ممسكين بها هكذا الى أن توقفت من سطح المياه فقائع حشرة الموت ، وغاصت جثته الشاحبة الى قاع الحوض المعطر وبعد ذلك اخرجوا اكياس الذهب من المخبأ الذي لم يكن معروفا لهم وللضحية وكانت في الواقع عملية خاطفة ووحشية ومدبرة بعناية حتى كانت أشبه بعملية حربية ولم يشعر أوريليانو بأي شيء وبابه مغلق عليه في غرفته وعندما افتقده في المطبخ بعد ظهر هذا اليوم ، ذهب يبحث عنه في كل انحاء البيت ، الى أن عثر عليه طافيا فوق صفحة مياه الحوض المعطرة وقد انتفخت وتضخمت جثته وعندئذ فقط ادرك أوريليانو الى أي حد كان قد بدأ يتعلق به

الفصل الثامن عشر

عادت « أمارانتا أورسولا » في أوائل شهر ديسمبر - وهي تقود زوجها بحبل من حرير مربوط حول رقبته . . .

ظهرت في البيت الكبير دون سابق اخطار، مرتدية فستانا في لون العاج، وعقداً من اللآلئ يكاد يتدلى الى ركبتها، وخواتم من الزمرد والعقيق، وشعرها الطويل معقود خلف اذنيها . . . وكان الرجل الذي تزوجته منذ ستة شهور هولنديا نحيلاً يكبرها سناً . . . وما كان عليها إلا أن تدفع الباب الى البهو لكي تدرك أن غيابها كان أطول وأحفلى بالدمار مما كانت تتصور، حتى هتفت بلهجة كانت أكثر مرحاً منها انزعاجاً :

- يا الهي ! . . من الواضح أنه لا توجد امرأة في هذا البيت ! . .

وكانت الامتعة التي جاءت بها أكثر من ان يسمعها المدخل . . فضلاً عن الصندوق الكبير الذي ذهبت به الى المدرسة، جاءت بست حقائب بين الكبيرة والصغيرة، وثمانى علب قبعات، وصندوق خاص به دراجة زوجها ذات العجلة الامامية الاكبر، مفككة . . . بل إنها لم تخلد الى الراحة يوماً واحداً بعد رحلتها الطويلة، فقد اشتملت برداء قديم وبدأت على الفور تنظيف وتجديد البيت : فطردت النمل الاحمر الذي كان قد سيطر على المدخل . . واستأصلت الحشائش الطويلة، وغرست الزهور في الأصص، واستعانت بفريق من النجارين والحدادين والبنائين لإصلاح الاثاث والابواب والنوافذ وسد الشقوق وطلاء الجدران، وهكذا لم تمض ثلاثة اشهر على وصولها حتى كان الانسان يتنفس من جديد جو الشباب والانتعاش الذي كان

يسود البيت الكبير في أيام العز الماضية . . . والحق انها كانت ذات روح متحررة وعصرية الى حد أن أوريليانو «ابن اختها ميم» لم يعرف كيف يداري هياته لدى مقدمها . . . أما هي فقد هتفت بلهجة السعادة وقد فتحت ذراعها :

- مدهش ! . . . مدهش ! . . . انظروا كيف كبر «متوحشنا» العزيز ! . . .

وقبل أن يجد فرصة لرد الفعل، كانت قد وضعت اسطوانة فوق الفونوغراف المتنقل الذي جاءت به معها واخذت تحاول تعليمه احدث خطوات الرقص . . . ثم إنها حملته على تغيير بنطلونه المتسخ الذي ورثه عن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وأعطته بعض القمصان الشبابية وحذاء بلونين، وكانت تدفعه الى الشارع دفعا عندما كان يمضي في غرفة مالكويداس وقتا أطول مما ينبغي . . .

كانت عصرية مائة في المائة، حتى كان من غير المفهوم ان تعود مثلها الى بلدة ميتة مثقلة بالأتربة والحر القاطظ، ومع زوج كان عنده من المال ما يكفي للعيش في أي مكان في العالم وهو يحبها حبا جما جعله يرتضي ان يقاد بطوق حريري حول رقبته ! . . .

وبعد عام من عودتها، وعلى الرغم من أنها لم تفلح في اتخاذ أي اصدقاء او اقامة اية حفلات، فإن امارانتا اورسولا، ظلت على اعتقادها بأن في الامكان إنقاذ هذه البيئة التي انفردت بالعزلة وبما تعاقب عليها من كوارث . . . وقد حرص زوجها جاستون على عدم معارضتها، وإن كان منذ ان نزل من القطار قد أيقن أن زوجته تعلق بسراب خادع . . . ولما ألفاها منهمكة في عمليات الاصلاح والتجديد، ما لبث ان تفرغ بدوره للطواف بدراجه في المنطقة لاقتناص كل ما استطاع من الحشرات المحلية وإرسالها معلبة الى استاذ السابق في التاريخ الطبيعي بجامعة لياج، حيث كان له نشاط متقدم في علم الحشرات، وإن كانت مهنته الاساسية هي قيادة

الطائرات . . . وعلى الرغم من أنه كان يكبر زوجته بخمسة عشر عاماً على الأقل، إلا أن عزمه الراسخ على توفير أسباب السعادة لها في حياتهما الزوجية هذه قد عوضها عن فارق السن . . . وكان لقاؤهما قبل عامين من زواجهما، عندما اختل توازن الطائرة الصغيرة ذات الجناحين التي كان يستقلها فوق المدرسة التي كانت تتعلم فيها «أمارانتا أورسولا» إثر ارتطامها ببعض الأسلاك الكهربائية العالية، مما أدى إلى إصابته برضوض غير خطيرة لحسن حظه . . . ومن وقتها درج على اصطحاب «أمارانتا أورسولا» أيام العطلات من بيت الراهبات الذي كانت تقيم به، إلى حيث يقضيان وقتاً طيباً في نادية الخاص . . . وقد نبت الحب في قلوبهما وهما يحلقان بالطائرة أيام الأحد على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البراري والمروج . . . وكانت تحدثه عن مسقط رأسها في ماكوندو مؤكدة أنها أجمل بلدة في الدنيا . . . وقد فهم جاستون أنها لن تتزوجه إلا إذا صحبها للإقامة في ماكوندو . . . فقبل عن طيب خاطر، كما قبل وضع الطوق الحريري في رقبته، معتقداً أنها نزوة عابرة ستكفل الأيام بالتغلب عليها . . . غير أنه بعد مضي عامين في ماكوندو، وبعدما رأى أن «أمارانتا أورسولا» ظلت هائلة سعيدة كأول يوم لوصولها، دب القلق إلى نفسه، خصوصاً وقد تعقب جميع أنواع الحشرات في ماكوندو واستوفى إرسال النماذج التي يريدتها . . . ورغبة منه في ملء وقت فراغه الطويل، فإنه درج على تمضية ساعات الصباح في غرفة مالكويداس مع أوريليانو الخجول . . . وقد أعجبه منه اطلاعه الواسع، ومعرفته لا باللغة السنسكريتية فقط، بل كذلك بالانجليزية والفرنسية، وقليل من اللاتينية واليونانية القديمة . . . ولما صار أوريليانو يخرج من البيت عصر كل يوم في العهد الأخير وكانت «أمارانتا أورسولا» تعطيه مبلغاً من النقود كل أسبوع لمصروفه الشخصي، فإن غرفته قد تحولت إلى ما يشبه فرعاً لمكتبة القاطلوني . . . كان يقرأ بشراهة حتى وقت متأخر من الليل، ولكن أكثر ما كان يستغرق اهتمامه هو التركيز على المخطوطات، التي كان يخصص لها معظم

ساعات الصباح... وكان بود جاستون و «أمارانتا أورسولا» الحياة العائلية، بيد أن أوريليانو كان زاهداً، تحف به سحابة من والخفاء كانت تزداد كثافة مع الأيام... وعندما فشل جاستون في لمصادقة أوريليانو، لم يلبث أن تحول عنه لالتماس سبل أخرى قضاء وقته الطويل... ومن هنا جاءت فكرته لإنشاء خط جوي يرب العالم الخارجي...

وفي الحق إن هذا المشروع لم يكن بالجديد عند جاستون مختمراً في ذهنه عندما التقى بأمارانتا أورسولا، فيما عدا أن التفكر المخطط الجوي لم يكن في مأكوندو، بل في الكونغو البلجيكي، لأسرته استثمارات قائمة... وقد أدى زواجه وما تقرر أول الأهم شهرور معدودة في مأكوندو إلى أرجاء تنفيذ الفكرة... وعندما تبي مصررة على التوطن في البلدة والعمل على تحسين أحوالها، لم يـ إلا أن يعيد الاتصال بشركائه في بلجيكا لتعديل المشروع وإنشاء في منطقة الكاريبي بدلاً من أفريقيا... وهكذا قام برحلات متتالية الإقليم والتقى بالجهات المسؤولة حيث حصل على التراخيص العقود الخاصة بإنشاء الخط الجوي، ولم يبق إلا وصول الطائر على الخط الجوي...

لقد أحدثت عودة «أمارانتا أورسولا» إلى البيت الكبير تـ حياة أوريليانو، وإن لم تلاحظ هي ذلك... كان لا يزال على أنه عندما عانقته كأخت وتركت له لاهث الأنفاس... وفي كل مرة وخاصة عندما كانت تراه الرقصات الجديدة، كان يلبسه ذلك الغامر الذي لا يـس جده الأكبر عندما أخذته بيلار تيرنيرا إلى غر بدعوى قراءة طالعه من واقع أوراق اللعب... ولكي يخمد ما كان عذاب فقد انكب بكل قوته على المخطوطات هرباً من مداعبات

الفتية التي رغم براءتها كانت تسمم لياليه وتقض مضجعه . . . ولكن كان كلما تحاشى لقاءها، اشتد به القلق والاضطراب وهو يسمع ضحكاتها الطروبة السعيدة تتردد ليلاً في أرجاء البيت وهي تسامر زوجها الى وقت متأخر . . . لم يكن فقط يبيت ليله ساهراً مسهداً حليف الضنى، ولكنه كان ايضاً يمضي نهاره التالي محموماً منتحياً من الحنق والاحتلام . . . وكان يهيم على وجهه في الطرقات شارد الفكر مضطرب الجوانح، فإذا عاد الى البيت وقت الغروب، دخل من الباب كغريب دون أن يسلم على «أمارانتا أورسولا» او جاستون وهما يتناولان طعام العشاء في مثل هذا الموعد عادة، فيغلق على نفسه باب الغرفة، عاجزاً عن القراءة او الكتابة او حتى التفكير، مضطرباً من تلك الضحكات الدافئة والهمسات المشرية التي كانت تؤجج مشاعره . . .

لقد ظل على هذه الحال من المعاناة والضنى الى أن جاء ذلك اليوم الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بالضجر من وحدتها لانهماك جاستون في مشروع الطيران، فجاءت الى أوريليانو في غرفته . . .

قالت له :

- سلاماً يا متوحش ! . . . أما زلت ملازماً كهفك ؟ . . .

كانت ذات اغراء لا يقاوم، وكانت مرتدية فستاناً جذاباً وعقوداً متراكبة صنعتها جميعاً بيديها . . . وكانت قد توقفت عن استخدام الطوق لزوجها بعد أن اقتنعت بإخلاصه ولأول مرة منذ عودتها الى البيت الكبير بدت وهي تنعم بالصفاء والدعة . . . ولم يكن أوريليانو بحاجة الى رؤيتها رأي العين ليعرف انها قد جاءت . . . ولم تلبث ان وضعت مرفقيها على المنضدة بقرب كبير من مكانه حتى لقد سمع أوريليانو طقطقة عظامها، وأبدت اهتمامها بالمخطوطات . . . وفي محاولة من أوريليانو للتغلب على اضطرابه، جاهد لاستبقاء صوته الذي كاد يخونه، وأنشأ يحدثها عن قداسة اللغة السنسكريتية

والاحتمالات العلمية للتنبؤ بالمستقبل وضرورة المواظبة على محاولة فك رموز المخطوطات للكشف عن مضامينها الخفية التي استهدفها حكماء القرون الماضية... ثم فجأة، ودون أن يقطع أوريليانو الحديث وضع يده على يدها استجابة لرغبة كامنة في أعماقه، ظنا بأن هذا القرار النهائي سيضع حداً لهواجسه... وإذا هي تمسك بأصبعه السبابة بتلك المودة البريئة التي كانت تبدي مثلها أيام الطفولة، وظلت ممسكة به وهويتابع الرد على اسئلتها واستفساراتها... وظلا متماسكين بالإصبع على هذا النحو الذي لم ينضج بأي احساس الى أن أفاقت من حلمها العارض ولطمت جبينها بيدها هاتفة :

- النمل !..

وهنا نسيت كل شيء عن المخطوطات، واتجهت الى الباب بخطوة راقصة ، ومن هنا طوحت الى أوريليانو بقبلة على أطراف اصابعها... تلك التي وجهتها الى أبيها عصر ذلك اليوم الذي ارتحلت فيه الى بروكسل... وقالت له :

- يمكنك ان تحكي لي في ما بعد... نسيت ان اليوم هو موعد رش الجير على جحور النمل !..

ولقد استمرت تعرج على غرفة أوريليانو بين فينة وأخرى كلما اقتضت الاحوال ان تفعل شيئاً في ذلك الجناح من البيت، فتمكث دقائق معدودة، بينما يكون زوجها منهمكا في دراسة مشروعاته... ولما تشجع أوريليانو بهذا التغيير أصبح يتناول الطعام مع الاسرة كما لم يفعل ذلك منذ عودة «أمارانتا أورسولا» الى البيت، وهو ما ادخل السرور على نفس جاستون... وخلال الحديث الذي كان يدور بينهم بعد الطعام، كان جاستون يشكو من بعض التعقيدات التي عاقت تنفيذ مشروع الخط الجوي في الموعد المقدر، حتى لقد اعرب عن رأيه ذات مرة في القيام برحلة قصيرة الى بروكسل لتسوية

الموقف شخصياً والعودة مع الطائفة المنتظرة ذاتها. . . بيد أن هذه الفكرة لم تلبث أن تبخرت حالما كررت «أمارانتا أورسولا» عزمها على ألا تبرح ماكوندو حتى ولو فقدت زوجها. .

وفي الأيام الأولى من وصول الزوجين إلى ماكوندو كان أوريليانو يشارك في الاعتقاد العام بأن جاستون شخصية بلهاء تتركب دراجة كبيرة العجلة الأمامية، مما أثار في نفسه احساساً غامضاً قوامه الرثاء. . ولكنه لم يلبث بعد أن درس أطواره عن كثب أن قدر أن طبعه الحقيقي هو بعكس مسلكه الخاضع المستكين، وقام في نفسه شك خبيث بأن انتظار وصول الطائفة ليس إلا من قبيل الافتعال والتمويه. . وعندئذ بدا له أن جاستون ليس بالبلاهة التي يصور نفسه بها، بل هو بالعكس رجل في تمام القدرة والصبر، رسم لنفسه أن يقهر زوجته بأن يضجرها بموافقته الدائمة على كل شيء، وبعدم رفضه لأي رأي لها، حتى يجيء اليوم الذي لا تعود فيه تطيق هذا المسلك، فتبادر بحزم حقائبها عائدة إلى أوروبا. . وهكذا استحال رثاء أوريليانو إلى نفور عنيف. . . ولم يتمالك أن اجتراً على تحذير «أمارانتا أورسولا» من هذا الأسلوب. . . فإذا هي تستخف بشكوكه، دون أن تفتن إلى ما كان يعتمل في نفسه من ضرام الحب والحسد. . . بل لم يخطر ببالها قط أنها تذكي فيه شيئاً أكثر من المودة الأخوية، إلى أن جرححت أصابعها ذات مرة وهي تحاول فتح معلبة للخوخ، وسرعان ما اندفع إليها يمتص الدم بشراهة وتفان أرسلت قشعريرة في ظهرها. . ثم ضحكت في شيء من القلق،

قائلة :

- أوريليانو ! . . من يراك يظن أنك خفاش مصاص للدماء ! . . .

وعندئذ انهار أوريليانو تماماً. . . فاهوى بقبلات متلاحقة على راحة كفها الجريح، وكشف عن جوانحه المضطربة في سيل متدفق من الاعترافات

قال فيها انه طالما استيقظ من نومه في صميم الليالي يبكي من الوحدة كلما سمع ضحكاتها الطروبة الدافئة، وطالما تسلل الى مخدعها في غيابها ليلقي نظرة محسورة على ملابسها، وطالما سطا على زجاجات عطرها متطيبا بها لكي تبقى ماثلة في دنياه اطول امد ممكن... والحق ان أمارانتا أورشولا قد فزعت من هذه الفورة العاطفية الى حد جعلها تطبق يدها بعنف وتقول له بلهجة كانت أقرب الى بصقة :

- يا أحمق... أنا مسافرة على أول باخرة تتجه الى بروكسل !.

وفي بلواه المتعاطفة هذه لم يجد ملاذا الا في حمى جدته الكبرى بيلار تيرنيرا، وإن لم يعرف نسبه اليها...

لقد سمع في جولاته الاخيرة في ماكوندو انها تقرأ الطالع وتواسي المحزون وتطيب القلوب الجريحة...

كانت جالسة في مقعدها الهزاز لا تحفل بمر الزمن بعد أن جاوزت المائة والعشرين من عمرها ولم يبق لها الا أن تجتر الذكريات حلوها ومرها... وما أن رأت أوريليانو حتى أيقنت من بروز عظمتي وجنتيه وملامح الانطواء البادية عليه أنه من سلالة بوينديا... وكان على استعداد للتدفق بالكلام حتى يجد التعاطف الذي يذيب عقدة الكرب التي كانت تخنقه، بيد أنه لم يفلح الا في بكاء مرير هز كيانه من الاعماق... فتركته يسترسل حتى جفت دموعه وهي تخذش رأسه بأطراف أصابعها، ودون أن يكشف لها أنه يبكي من ضنى الحب فقد عرفت هي من فورها علة هذا البكاء، وقالت له مواسية :

- كل شيء بخير يا طفلي... والآن قل لي : من هي ؟...

وعندما أخبرها أوريليانو اطلقت ضحكة عريضة تفيض بالحنان، فهي تعرف ان قلوب افراد اسرة بوينديا لا تخفي عليها فيها خافية وقد علمتها

التجربة وتداول اوراق الطالع طوال قرن من الزمان ان تاريخ الاسرة هو بمثابة آلة تتكرر دوراتها عبر الزمن متشابهة متماثلة... وفي النهاية قالت له باسمه :

- لا تقلق... حيثما تكون هي الان، فستجدها في انتظارك!!!

وكانت الساعة هي الرابعة والنصف عندما خرجت «أمارانتا أورسولا» من الحمام... وراها أوريليانو تمر قرب غرفته بروب الحمام وقد لفت رأسها بمنشفة: فتبعها على أطراف أصابعه وهو يتعثر من سكرته، ودلف الى مخدعها في اللحظة التي فتحت فيها الروب ثم أطبقته مرة ثانية فزعة مروعة... فأشارت صامته شطر باب الغرفة المجاورة التي كان بابها موارباً والتي كان أوريليانو يعرف ان جاستون جالس فيها يهم بكتابة رسالته..

قالت له بلا صوت :

- اذهب!..

ابتسم أوريليانو.. وطوقها بقوة.. فدافعت عن نفسها دفاعاً عنيفاً أسالت فيه دم وجهه بأظافرهما.. وفي غمرة هذا الصراع الرهيب لم تستطع ان تفتح فمها بصراخ جزعاً من الفضيحة المؤكدة.. ولم تلبث أن خارت قواها...

الفصل التاسع عشر

على الرغم من ان ماكوندو اصبحت بلدة شبه مهجورة تكسوها الاتربة ويشوبها القيقظ اللافح ، فإن اوريليانو و «أمارانتا اورسولا » كانا المخلوقين الوحيدين السعيدين فيها، بل أسعد من في الارض جميعا . . .

لقد عاد جاستون الى بروكسل . . فعندما مل انتظار الطائرة قام ذات يوم وجمع ضرورياته في حقيبة صغيرة وأخذ ملف اوراقه ومراسلاته وارتحل وفي النية أن يعود بالطائرة ، «قبل ان يعلم آخر المطاف أن الشركة التي كان يفاضها قد حولت الاتفاق الى جماعة من الطيارين الألمان عرضوا على الجهات المختصة مشروعاً اكثر طموحاً من مشروعه» . . وهكذا خلا الجو لأوريليانو و «أمارانتا اورسولا » لكي يطلقا العنان لغرامهما، حتى لم يحفلا بالنمل وهو يجتاح البيت اجتياحاً، كما هجر اوريليانو المخطوطات ولم يعد يفارق البيت . . .

وفي فترات الصحو من حمى غرامهما العنيف كانت «أمارانتا اورسولا » ترد على رسائل جاستون وقد بدا لها بعيداً عنها بعداً سحيقاً وغارقاً في مشروعاته الى حد خالت معه أن عودته غدت مستحيلة . . .

وفجأة، ومثل صاعقة تنقض من السماء تلقت «أمارانتا أورسولا » في غفلة النشوة نبأ قرب عودة جاستون بعد فشل مشروعه . . . لقد فتحت هي وأوريليانو اعينهما بعد زوال الغشاوة، وغاصا في أعماق نفسيهما، وتطلعا الى الرسالة وأيديهما على قلوبهما، وأيقنا انهما لصيقان احدهما بالآخر الى حد يؤثران معه الموت على الافتراق . . وهكذا سطرت لزوجها

رسالة كانت هي النقائض بعينها، كررت فيها الإعراب عن حبها له وشوقها لرؤياه من جديد، ولكن في نفس الوقت اعترفت اعترافا قدريا باستحالة العيش بغير أوريليانو. . . وعلى عكس ما كانا يتوقعانه، فقد بعث اليهما جاستون برد هادىء شبه «أبوي»، أفرد فيه نحو صفحتين كاملتين كانتا بمثابة تحذير من تقلبات العاطفة، مع فقرة أخيرة أعرب فيها عن أصدق تمنياته لهما بسعادة تماثل سعادته في فترة زواجه القصيرة. . . والحق أن هذا المسلك كان أبعد ما يكون عن تصور «أمارانتا أورسولا» الى حد أنها شعرت بالمهانة اذ رأت أنها أعطت زوجها الذريعة التي كان يريد لها لكي يهجرها لمصيرها. . . أما أوريليانو فقد راح يسري عنها ويبدل الجهد ليبين لها أنه يستطيع أن يكون في مرتبة الزوج في الضراء كما في السراء، حتى أن المطالب اليومية التي حاصرتها بعد أن نفذت البقية الباقية من نقود جاستون خلقت بينهما لونا من التضامن إن لم يكن في قوة الغرام المتقد الا أنه لم ينل من عاطفتها المشبوبة. . .

وأصبحتا ينتظران مولودا. . . وخلال فترة الحمل حاولت «أمارانتا أورسولا» التكسب من صنع عقود للزينة من عظام الاسماك. . . ولكن باستثناء فتاة الصيدلية المجاورة التي ابتاعت عددا محدودا منها، لم تستطع إيجاد زبائن آخرين. وأدرك أوريليانو لأول مرة ان حذقه في اللغات، ومعرفته الواسعة التي اكتسبها من دائرة المعارف المصورة، وبراعته في الإحاطة بالوقائع والاماكن البعيدة دون أن تتوافر له رؤيتها. . كل ذلك كان غير ذي جدوى، مثل علبة المجوهرات الحقيقية الخاصة بزوجته، والتي لا بد أن قيمتها كانت تساوي اكثر من كل ما يملكه سكان ماكوندو السابقون جميعا. . .

لقد استطاعا البقاء بين الاحياء بمعجزة. . . وعلى الرغم من أن «أمارانتا أورسولا» لم تفقد بهجتها وبشاشتها، فقد اعتادت اخيرا أن تجلس

في مدخل البيت بعد الغداء في لون من القيلولة تشويه البقطة والسهم . . .
وكان أوريليانو يصاحبها في هذه الجلسات . . . وكانا أحياناً يقيان هكذا
صامتين حتى حلول الليل، متقابلين، بأعين تتبادل النظرات، متحابين بتلك
الفورة التي كانت لهما في أول العهد بالغرام الفاضح، فلا يملكان إزاء الشك
في المستقبل إلا أن يديرا قلوبهما إلى الماضي . . . وفي هذا الماضي كانا
يستعيدان صور الطفولة السعيدة عندما كانا يخوضان في مياه الأمطار ويعبثان
بالفقاقيع، وعندما كانا يقتلان السحالي بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز
الكفيفة، وعندما يمت «أمارانتا أورسولا» شطر المسبك عصر ذات يوم
وأخبرتها أمها فرناندا أن أوريليانو الصغير ليس له أب معروف لأنهم عشروا
عليه في سلة طافية في النهر . . . وكل ما استطاعا التوصل إليه بعد دراسة
كافة الاحتمالات هو أن فرناندا لم تكن أم أوريليانو، ومالت «أمارانتا
أورسولا» إلى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس، تلك التي لم تذكر من أمرها
سوى الحكايات الشائنة عنها، وما لبث هذا الافتراض أن ولد في قلبها شيئاً
من الهلع . . .

وعندما تعذب أوريليانو بما بدا له من أنه أخ لزوجته، فقد هرع إلى
البرشية للبحث في سجلاتها العطنة التي أكلها العث عن أثر يرشده إلى
أبويه . . . ولما طال بحثه دون جدوى نظر إليه القس الكهل المقعد في مكانه
بسبب الروماتزم وسأله بإشفاق عن اسمه، فأجاب :

- أوريليانو بوينديا . . .

فقال له القس بلهجة قاطعة :

- اذن لا تتعب نفسك في البحث . . . منذ سنوات بعيدة كان هنا شارع
بهذا الاسم، وفي تلك الايام كان من عادة الناس أن يسموا مواليدهم بأسماء
الشوارع . . .

فقال أوريليانو وهو يرتجف حنقاً :

- هكذا ؟ .. أنت ايضا لا تصدق ؟ ..

- أصدق ماذا ؟ ..

فرد أوريليانو بقوله :

- ... إن الكولونيل أوريليانو بوينديا خاض اثنتين وثلاثين حرباً أهلية

وخسرهما جميعاً، وإن رجال الحكومة قتلوا بالرصاص ثلاثة آلاف رجل في

ميدان المحطة وحملوهم بالقطار وألقوا جثثهم في البحر ؟ ..

فتفرس فيه القس بنظرة رثاء وتنهد قائلاً :

- آه يا ولدي .. يكفي أن أتأكد أنك وأنا موجودان في هذه

اللحظة ...

وهكذا تقبل أوريليانو و «أماراتا أورسولا» قصة السلة الطافية، لا

لأنهما صدقاها، بل لأنها وفرت عليهما الهلع .. ويتقدم عهد الحمل ازداد

ارتباطهما واندماجهما في العزلة المطبقة على البيت، ذلك البيت الذي لم

يكن يحتاج إلا الى نفخة واحدة اخيرة لكي يتداعى ويتفوض ... وقد اقتصر

وجودهما على جانب محدود فيه هو الذي يبدأ من مخدع فرناندا حتى بداية

المدخل، حيث كانت «أماراتا أورسولا» تجلس لكي نخيط ثياب المولود

المنتظر .. أما باقي المنزل فقد أصبح نهبا للدمار بفعل النمل ومئات

الحشرات، حتى اضطر الاثنان الى تحصين منطقتيها بعوازل من الجير ضد

جحافل النمل ... وكان من جراء شعرها الطويل المهمل، والبقع التي

بدأت تظهر على وجهها، وتورم ساقبها، وتشوه قوامها اللدن .. كان من جراء

هذا كله ان تغيرت «أماراتا أورسولا» تماماً، فلم تعد ذلك المخلوق الذي

كان ينضح شباباً عند وصولها الى البيت لأول مرة مع زوجها الاسير بالطوق

حول رقبتها ... ولكن ذلك لم يغير من حيويتها وروحها الوثابة، اذ قالت مرة

ضاحكة :

- من كان يصدق أن الامر سينتهي بنا الى أن نعيش كالمتوحشين ! .

ومع هذا فقد أمضى أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» الشهور الأخيرة وأيديهما متشابكة، وانتهى بهما الحب الى الولاء للطفل الذي جاءت بذرته في سعار الحرام . . . فإذا كان الليل وهما متعانقان ماكانا ليفزعنا من تلك الطقطقة التي يحدثها النمل والعث، وذلك الحفيف لنماء الحشائش في الغرف المجاورة . . وكثيرا ما أيقظهما مسرى أشباح الموتى في الظلام . . كان يخيل اليهما أنهما يسمعان أورسولا العجوز وهي تغالب قوانين الخليقة للحفاظ على تسلسل الأسرة، وجوزيه أركاديو بوينديا الكبير وهو دائب في سعيه وراء المخترعات، وفرناندا في صلواتها، والكولونيل أوريليانو بوينديا وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك الذهبية الصغيرة، وأوريليانو الثاني وهو يقضي نحيبه وحيدا في غمار مجونه وفتونه . وعندئذ يبدو لهما أن هذا التحول الشبحي قادر على الانتصار على الموت، فكان يسعدهما أن يمضيا في حبهما في كينونتهما الطيفية هذه الى أبد الأبد . . .

ثم جاء عصر يوم الاحد الذي شعرت فيه «أمارانتا أورسولا» بآلام المخاض . . . ولما جاءت القابلة مددتها على مائدة الطعام وجعلتها تقوم بحركات عنيفة الى أن غطت صيحاتها صراخ المولود الذكر الضخم الذي بزغ الى نور الوجود . . . ومن خلال دموعها رأت «أمارانتا أورسولا» أنه سيكون واحدا من سلالة بوينديا الجبابة بقوته ومخائيل عزمه البادية عليه مثل جوزيه أركاديو الفحل، ويعينيه المفتوحتين العرافتين مثل أعين من تسموا بإسم أوريليانو . . وكأنه نبوءة لبداية تسلسل الأسرة من جديد وتطهيرها من دنس الفواحش والفسوق وأثقال العزلة والوحدة . . .

وفي هذا لم تتمالك «أمارانتا أورسولا» أن قالت :

- هو متوحش حقيقى . . . سنسميه رودريجو . .

ولكن زوجها عارضها قائلاً :

- لا . . سنسميه أوريليانو، وسوف ينتصر في الحروب الثانية
والثلاثين . .

وبعد قطع الحبل السري بدأت القابلة تمسح بخرقه ما علق بجسد
الطفل في ضوء المصباح الذي رفعه أوريليانو . . وعندئذ لم يروا الا بعد أن
أداروا الطفل على بطنه أن به شيئاً أكثر مما في سائر الذكور . . فلما انحنوا
فوقه لفحصه، اذا هو ذيل خنزير . . .

لم ينزعج كلاهما . . فإن أوريليانو و «أمارانتا أورسولا» لم يكونا
عارفين بما كان في سوابق الاسرة، ولا تذكر تلك المحاذير المروعة التي
قالتها أورسولا المعجوز عما ينجم من تزواج الاقارب أبناء الاسرة الواحدة،
كما أن القابلة سكنت روعهما بقولها إن الذيل يمكن قطعه بعد أن يصل
الطفل الى مرحلة «التسنين» . . ثم حدث ما أنساهما حالة الطفل، فقد
أصيبت «أمارانتا أورسولا» بنزف حاد عجز عن وقفه كل طبيب القابلة . . .
وخلال الساعات الاولى حاولت «أمارانتا أورسولا» الاحتفاظ بمرحها
ودعابتها، حتى أمسكت بيد أوريليانو المرتعج ورجته ألا يقلق، لأن من كانت
مثلها لا تموت ضد ارادتها، هكذا قالت، وانفجرت ضاحكة سخريه من
محاولات القابلة . . . ولكن عندما بدأ أوريليانو يفقد الامل، اخذت بنيتها
تتضاءل، الى أن انتابها خدر النعاس . . . وبعد جهود أربع وعشرين مضنية
استعانوا فيها بكل ما قدروا عليه حتى الرقى والتعاويذ والابتهالات، توقف
النزف فجأة دون مزيد من الاسعاف، واستحال محباها الى النحول، وزالت
البقع من وجهها مخلقة هالة من المرمر، وعادت اليها البسمة . .

كانت داهية لم يمن أوريليانو بأشد منها في حياته . . . وفي غمرات
بلواه وضع الوليد في السلة التي أعدتها له أمه سلفاً، وغطى وجه الجثة

بملاءة ، وغادر البيت هائما على وجهه في البلدة . . . كان يبحث عن أحد ما يبيته مصابه ، ولما قادته قدماء إلى مكتبة القطالوني وجده قد ارتحل عائدا إلى بلاده . . . فلم يستطع ان يغالب دموعه التي تفجرت لطول ما حبسها في مآقيه أمام فراش «أمارانتا أورسولا» وهي في دور الاحتضار . . وراح يلطم الجدار بقبضتي يديه حتى ادماهما . . . وفي النهاية تذكر الطفل ، فقفل عائدا إلى البيت . .

لم يعثر على السلة . . .

تملكته أول الامر فرحة غامرة . فقد ظن أن «أمارانتا أورسولا» قد استيقظت من الموت لكي ترعى الطفل . . . لكن جثتها كانت كوما من العظام تحت الملاءة . . . وعندما فطن إلى أنه عندما وصل ألفى باب غرفة النوم مفتوحا ، لم يلبث أن يمم شطر غرفة الطعام ونظر فيها . . كانت الآثار والبقايا المتخلفة عن الولادة لا تزال كما هي . . .

فقد بدا له أن القابلة ربما عادت في وقت ما من اجل الطفل ، ووجد في هذا الخاطر وقفة للراحة والتفكير . . . فجلس في المقعد الهزاز وهو نفس المقعد الذي جلست فيه من قبل أمارانتا وهي تلاعب الكولونيل جيريلدو ماركيز الشطرنج ، والذي جلست فيه بعد ذلك «أمارانتا أورسولا» لتخطيط ملابس الطفل قبل أن يولد ، وفي لحظة الذكرى الخاطفة شعر بأنه عاجز عن احتمال وقر ذلك الماضي في قرارة روحه ، فإذا أضيفت إليه اثقال الحاضر كان الوقر ابهظ من أن يحتمله انسان . . . وفي خلال ذلك راعه اصرار العناكب وهي تعمل دائبة بين شجيرات الورود الميتة ، وحفيف الهواء وهو لا يكل ولا يتوقف . . . وعند هذا الحد وقع نظره على الطفل . .

كان كيسا يابسا منتفخا من الجلد ، التفت حوله نمال الدنيا كلها تسحبه شطر جحورها على امتداد الممشى الحجري في الحديقة . . .

لقد عجز أوريليانو عن الحركة . . لا لأنه شل من الهلع ، بل لأنه تذكر في هذه اللحظة الرهيبة المروعة تلك العبارة التي قرأها في مخطوطات مالكويداس والتي تقول : «إن أول السلالة سيربط في شجرة، وآخرها سوف تأكله النمال» . . .

لم يكن أوريليانو في كل حياته الماضية اصفى ذهنًا مما كان الآن وهو يسمر ابواب البيت ونوافذه بالعوارض المتصالبة المتخلفة من عهد فرناندا، حتى لا تستدرجه أية مغريات من العالم الخارجي، اذ قد عرف الآن أن مصيره مكتوب في مخطوطات مالكويداس . . .

وجدتها سالمة من أي سوء . . . وراح يفك طلاسمها صابرا مستعينا بمفاتيح الشفرة التي وفق اليها في دراساته الطويلة الماضية والتي أدت تطورات حياته الأخيرة الى انقطاعه عن اتمامها . . . لقد حشد مالكويداس وقائع تاريخ الاسرة على مدار قرن من الزمان . وإن ركزها في مدى واحد سبق به الزمن . . . وكان أوريليانو في لهفة بالغة لمعرفة منشئه، فجعل يتخطى الصفحات متعجلا في الوقت الذي بدأت الريح تهب فيه حارة مليئة بأصوات الماضي وحفيف الزهور الذابلة، بيد أنه لم يحفل بها لأنه ما لبث ان اكتشف بواكير وجوده في ذلك الجد الماكن الذي سعى عبر الجبال للفوز بامرأة جميلة لم يجد عندها السعادة التي كان ينشدها . . . عرف فيهما «أوريليانو الثاني وفرناندا» . . . وأسرع يتابع خفيا منبهته الى أن اطلع على واقعة حمل أمه «ميم» له بين العقارب والفراش الاصفر في حمام وقت الغروب، حيث أطفأ شاب ميكانيكي سورة عاطفته بين ذراعي امرأة منحته نفسها تمردا على كافة القيم . . . ولقد بلغ من شدة استغراق أوريليانو أنه لم يشعر بالريح وهي تعنف وتستحيل الى عاصفة خلعت الابواب والنوافذ وأطاحت بسقف الجناح الشرقي وخلخلت دعائم البيت . . فعندئذ فقط اكتشف ان «أمارانتا أورسولا» لم تكن اخته، بل كانت خالته، وكان ثمرة خطيئتهما ذلك المولود

الاسطوري الذي كتب عليه أن يكون آخر سلالة الاسرة. . .

عند هذا الحد كانت ماكوندو إعصاراً مروعا من الاتربة والانقاض المتطايرة، ولكن أوريليانو مضى يقرب الصفحات ليجاوز وقائع حياته الراهنة ويطلع على الفقرات التي تتبأ بتاريخ وظروف وفاته. . . وقبل ان يصل الى الصفحة الاخيرة كان قد أدرك مسبقاً أنه قد كتب عليه ألا يسرح هذه الغرفة قط، اذ خط في لوح القدر أن بلدة السراب هذه ستمحوها الرياح من على ظهر الأرض محوا وتزول ذكراها من الاذهان لحظة أن يفرغ أوريليانو بابيلونيا من فك طلاس المخطوطات، وأن كل ماورد بها لن يتكرر في مسار الزمان الى الأبد، لأن السلالة التي قضى عليها بأن تعيش مائة عام من العزلة لن تتاح لها فرصة اخرى لامتداد البقاء على وجه الأرض.

تمت



دمشق - بيروت

بيروت : شارع الحمراء - ص.ب. ١١٣/٥٧٢٠

دمشق : الجامعة - ص.ب. ١١٦٣٧

هاتف ٢٢٥٢٢٦ - سجل تجاري ٤٩٨٥٧